فرانسيس هودجسون برنت

الحديقة السرية

ترجمة

شريف الجيار

المركز القومى للترجمة

2553

سلسلة الإبداع القصصى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2553
- الحديقة السرية
- فرانسيس هودجسون برنت
- شريف الجيار
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة:
The Secret Garden
By: Frances Hodgson Burnett

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الحديقة السرية

تـــألـــيـــف: فرانسيس هودجسون برنت

تـــرجـــمـــة: شـــريـــف الجيـــار

2016

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

برنت، فرانسيس هودجسون - الحديقة السرية / تأليف فرانسيس هودجسون برنت؛ ترجمة شريف الجيار.

القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٦

٣٨٨ ص ؛ ٢٤ سم .

١ - القصص الإنجليزية.

٢ - قصص الأطفال.

(أ) الجيار شريف (مترجم)

العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠٤٣٤ / ٢٠١٤

الترقيم الدولى 978-977-718-905-7

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

- مقدمة 7

- **الفصل الأول**: لم يبق أحد 13

- **الفصل الثانى**: مارى .. مارى عكس الكل 21

- **الفصل الثالث**: عبر الدغل 33

- **الفصل الرابع**: مارثا 41

- **الفصل الخامس**: بكاء فى الممر 69

- **الفصل السادس**: هناك من يبكى .. هناك من يبكى 79

- **الفصل السابع**: مفتاح الحديقة 89

- **الفصل الثامن**: أبو الحناء الذى عرفها الطريق 99

- **الفصل التاسع**: أغرب منزل عاش فيه إنسان 109

- **الفصل العاشر**: ديكون 123

- **الفصل الحادى عشر**: عش طائر السمنة 139

- **الفصل الثانى عشر**: هل يمكن أن أخذ قطعة من الأرض؟ 151

- **الفصل الثالث عشر**: أنا كولن 163

– **الفصل الرابع عشر**: الأمير الهندى 183
– **الفصل الخامس عشر**: بناء العش 201
– **الفصل السادس عشر**: قالت مارى «لن أفعل» 217
– **الفصل السابع عشر**: نوبة غضب 227
– **الفصل الثامن عشر**: «لايجب أن تضيعى الوقت» 237
– **الفصل التاسع عشر**: «لقد أتى الربيع» 247
– **الفصل العشرون**: سأسعى للخلود.. للخلود» 263
– **الفصل الحادى والعشرون**: بن وذرستاف» 275
– **الفصل الثانى والعشرون**: عندما غابت الشمس 291
– **الفصل الثالث والعشرون**: السحر 301
– **الفصل الرابع والعشرون**: دعيهما يضحكا 319
– **الفصل الخامس والعشرون**: الستار 335
– **الفصل السادس والعشرون**: «إنها الأم» 345
– **الفصل السابع والعشرون**: فى الحديقة 359

مقدمة

يعد أدب الأطفال، بسياقاته المتنوعة، جزءًا أصيلاً من الأدب بشكل عام، غير أنه يتمايز بكونه يستهدف متلقيًا نوعيًا، يتمثل فى فئة الأطفال، الذين يختصون بمستوى عقلى خاص، وبإمكانات وقدرات نفسية ووجدانية مغايرة للكبار؛ لذا يتسم الخطاب الإبداعى المصدر لهم، بشعرية نصية تميل إلى الوضوح والبساطة والتشويق، والبعد عن الغموض والترميز.

ورغم تنوع الأشكال الإبداعية، فى هذا الجنس الأدبى؛ فإن الخطاب السردى، بأنساقه القصصية والروائية، يحتل مكان الصدارة فى مكتبة الطفل عالميًا، ويحظى باهتمام كبار المبدعين، لما له من تأثير كبير على السلوك القيمى للأطفال؛ حيث إنه يستثير عواطفهم، ويحفز قدراتهم على الابتكار والإبداع.

وفقًا لهذا السياق تأتى أهمية ترجمة رواية "الحديقة السرية" / ١٩١١م، من الإنجليزية إلى العربية؛ لأنها خطاب سردى متفرد، من كلاسيكيات الأدب الإنجليزى، يختص بمرحلة الطفولة المتأخرة

وبداية الشباب، وتعد هذه الرواية من أهم أعمال الروائية والمسرحية الإنجليزية "فرانسيس هودجسون برنت" Frances Hodgson Burnet (١٨٤٩– ١٩٢٤م)، وضمن منجزها الإبداعى الخاص بالأطفال، وما زالت هذه الرواية قيد التداول والانتشار حتى الآن، سواء على هيئة كتاب أو مسرحية أو فيلم سينمائى للأطفال.

ولهذه المبدعة الإنجليزية، الأمريكية الجنسية، إنتاج روائى ومسرحى ثرى؛ فمن رواياتها "هاورثز / ١٨٧٩م، لوزينا / ١٨٨٠م، الهمجى الجميل / ١٨٨١م، فى أثناء الإدارة / ١٨٨٣م، اللورد فونتلورى الصغير / ١٨٨٦م، سارة كريو / ١٨٨٨م؛ التى أعادت صياغتها فى عام ١٩٠٥م، تحت عنوان الأميرة الصغيرة، عمل الماركيزة / ١٩١١م، الأميرة التائهة / ١٩١٥م". ومن مسرحياتها "أزمرالادا"، و"سيدة أرستقراطية".

والقارىء لهذه الرواية يلحظ أنها بنية جمالية، مميزة بروح الواقعية، فى طرح تجربة الشخصية المحورية؛ الطفلة "مارى لينوكس"؛ ذات العشر سنوات، من خلال سياق إنسانى يمزج اليأس بالبهجة، والانعزال بالانفتاح، والموت بالحياة، ويتداخل فيه الغموض بالمغامرة، والاستكشاف بالتجريب، فى نسق سردى تصاعدى، يتوازى بنائيًا، مع مسار تحول وعى هذا النمط الإنسانى، وتغير واقعه الأرستقراطى من الإدراك الفردى السلبى، إلى الإدراك الجماعى الإيجابى، وفق تطور الفعل الدرامى للرواية.

إن نص "الحديقة السرية"؛ للكاتبة الإنجليزية "فرانسيس هودجسون برنت"، بواقعيته الفنية، قدم تجربة سردية للأطفال، مفعمة بالإنسانية،

التى يتفاعل معها الصغير والكبير، ويفيد منها السارد العليم فى غرس مجموعة من القيم الإنسانية والأخلاقية، فى نفوس متلقيه؛ منها الصداقة، والمودة، فضلاً عن قيم العمل والوعى الجماعى وروح التعاون والقيم المعرفية والبناء التربوى والتوازن النفسى واكتشاف الهوايات والمهارات الجديدة وإتاحة الفرصة أمام الطفل فى حل مشكلاته الخاصة؛ إلى غير ذلك من القيم التى تحفظ لهذه الرواية استمرارها فى وجدان الطفل والقارئ بشكل عام، فالأهداف الأخلاقية فى أدب الطفل، تمثل ركيزة محورية فى هذا النوع الأدبى، وهذا ما تناوله السارد فى خطابه اللاشخصى، الممتزج بشعرية زمانية ومكانية، متوازية ومتشابكة مع التحول السوسيونفسى للشخصية المحورية؛ حيث جاءت الطفلة "مارى لينوكس" كنمط إنسانى سردى يعانى من عدم التوازن النفسى، الناتج عن خلل فى المنظومة الاجتماعية والنفسية لطبقتها الأرستقراطية، التى عاشت معها فى بيئة الهند، حيث تركتها الأم الجميلة للخدم المنبوذين لتربيتها، ومن ثم تنازلت أمها عن دورها الاجتماعى والنفسى تجاه طفلتها، التى أصبحت نموذجًا ذميمًا يتخلى عنه الجميع، وكان لموت الأم والأب بالكوليرا، دور درامى فى سياق الرواية؛ حيث انتقلت مارى، من واقعها المأساوى فى الهند، إلى بيئة توفر لها التوازن النفسى، تمثلت هذه البيئة الجديدة فى موطن "مارى" الأصلى فى ضيعة ميسلثويت فى ريف يوركشاير الإنجليزى، وانتصر النص للطبقة الفقيرة / أسرة الخادمة مارثا، فى عودة التوازن النفسى لهذه الطبقة الأرستقراطية، وانفتاحها على الحياة مرة أخرى؛ حيث أوكل السارد العليم، للطبقة الشعبية البسيطة فى ريف يوركشاير، مهمة تحمل

مسئولية إنقاذ هذه الطبقة الأرستقراطية الثرية، من هواجسها المرضية، وانعزالها القسرى، والدفع بها نحو الانخراط فى الحياة، والانفتاح على العالم الخارجى؛ حيث لعبت أسرة "مارثا" الفقيرة (ديكون والأم سوزان سوربى)، دورًا مركزيًا، فى حياة (مارى وكولن والأب آرتشيبالد كرافن)، والدفع بهم نحو التحول الإيجابى، والتوازن النفسى؛ حيث بدأت "مارثا" فى حث الطفلة "مارى" – التى تشعر بالوحدة– نحو الخروج من استاتيكية بيت زوج عمتها المنغلق، ومحاولة الاندماج فى البيئة الخارجية المحيطة، من خلال اللعب فى الحدائق والممرات"... عليك باللعب خارج المنزل؛ وستكتسى عظامك باللحم، ولن يكون جلدك شاحبًا بعد ذلك أبدًا". ومارثا فى هذا؛ تمتلك وعيًا تربويًّا، بأهمية فوائد اللعب للأطفال؛ لاسيما الذين عاشوا حياة الوحدة والانعزال؛ مثل مارى.

وقد صاغ السارد العليم هذه التجربة الإنسانية، فى إطار زمنى حافظ – فى مجمله– على الترتيب السببى التصاعدى للأحداث، حيث بدأ بشتاء الهند المتصل بالواقع البائس لمارى، وانتهى بربيع يوركشاير المفعم بالإقبال على الحياة، لهذه الطفلة ولطبقتها، التى تمثلت فى زوج عمتها السيد آرتشيبالد كرافن، وابن عمتها الطفل كولن، ورغم هذا الترتيب الكرونولوجى للأحداث، استعان السارد فى غير موضع بتقنية الاسترجاع التى ارتبطت، بتذكر مارى لماضيها البائس فى الهند، وحياة الفوضى التى عاشتها هذه الطفلة.

أما المكان فجاء منصهرًا فى الزمان، ومتقاطعًا معه، فى هيئة زمكان فنى، يمثل بنية سردية إطارية؛ تصور مراحل التطور والتحول فى تجربة الشخصية المحورية "مارى لينوكس"، فى واقعها الاجتماعى والنفسى، ومجسدًا لتأثير هذه البنية المكانية، على الشخصية سلبًا وإيجابًا، من

خلال ثنائية كبرى تتمثل فى "بيئة الهند العدائية" و "بيئة ريف يوركشاير الودودة فى إنجلترا"، حيث ارتبطت "الهند" بالقيم السالبة فى حياة الطفلة الصغيرة "مارى"، وارتبطت بيئة ريف يوركشاير بالقيم الإيجابية، التى انفتحت فيها حياة مارى، على واقع الصداقة والمودة مع (مارثا وديكون والأم سوربى)، فضلاً عن تلاحمها مع الطبيعة، والحديقة السرية التى أضحت سرًا محفزًا للمغامرة والاكتشاف، وخروج ابن خالتها من عزلته الناتجة عن هواجسه النفسية، وشعوره بأنه سيموت مبكرًا، إلى واقع إيجابى يبث الأمل والخلود والاكتشافات العلمية.

المترجم

د. شريف الجيار

الفصل الأول

لم يبق أحد

حينما أُرسلت مارى لينوكس إلى ضيعة ميسلثويت لتعيش مع زوج عمتها، قال الجميع إنها أكثر طفلة دميمة فى العالم. وكانت تلك هى الحقيقة بالفعل. فقد كان لها وجه صغير ونحيف، وكذلك كان جسمها ضئيلاً نحيفًا، وكان شعرها خفيفًا ومتباعدًا، أما أسلوب حديثها فكان رديئًا. كان لها شعر أصفر، ووجه شاحب؛ حيث وُلدت بالهند وكانت دائمًا مريضة بشكلٍ أو بآخر. أما والدها فقد كان ذا منصب رفيع فى الحكومة الإنجليزية بالهند، وكان دائم الانشغال والمرض، فى حين أن والدتها كانت ذات جمال باهر، وكان كل اهتماماتها تنصب على حضور الحفلات، وأن تستمتع بوقتها مع الأشخاص المرحين. لم تكن ترغب فى أن يكون لها طفلة صغيرة مطلقًا، لدرجة أنها قد أعطتها لمربية أطفال(*) حين ولدتها لتتولى رعايتها، وجعلوا المربية تفهم؛ أنه إذا أرادت أن تُسعد السيدة (**)فعليها بأن تحفظ الطفلة

(*) an Ayah تعنى مربية أطفال هندية .

(**) Mem Sahib كلمة استخدمها الهنود للإشارة إلى المرأة الأوروبية، فى أثناء الحكم الاستعمارى البريطانى.

بعيدًا عن الأنظار بكل ما تستطيع. ولأنها كانت طفلة صغيرة دميمة مريضة ومشاكسة فقد وضعوها بعيدًا عن الأنظار، إنها لا تتذكر إطلاقًا أى شىء مألوف إلا الوجوه السوداء لمربيتها وللخدم الآخرين من الهنود. ولأنهم كانوا يطيعونها ويعطونها أى شىء تُريد، لأن السيدة ستغضب جدًّا إذا أزعجها بكاء البنت، فقد أصبحت بحلول عامها السادس مثل خنزير صغير لا يوجد له مثيل فى الأنانية والاستبداد.

وجاءت معلمة إنجليزية شابة لتعلمها القراءة والكتابة، ولكنها لم تحب الفتاة، فتركت وظيفتها بعد ثلاثة أشهر، وحينما أتت معلمات أخريات؛ ليشغلن هذه الوظيفة، كُنَّ دومًا يهربن فى وقت أقل من الوقت الذى قضته المعلمة الأولى. ولذلك لو لم تكن مارى قد اختارت أن تتعلم بنفسها القراءة، لما كانت قادرة مطلقًا أن تعرف أحرف اللغة الإنجليزية.

ذات صباح شديد الحرارة، حينما كان عمرها حوالى تسعة أعوام، استيقظت من نومها وهى تشعر بحزن عميق، وأصبحت أشد حزنًا حين رأت أن الخادمة التى تقف بجانب سريرها لم تكن مربيتها. فقالت للخادمة:

"لماذا تقفين هنا؟ أرسلى لى مربيتى فورًا".

بدا على المرأة الخادمة الخوف، ولكنها تمتمت قائلة إن المربية لم تستطع المجىء، فاندفعت مارى تركل الخادمة وتضربها، فبدت الخادمة أكثر خوفًا وكررت بأن المربية لم تستطع أن تأتى إلى السيدة الصغيرة.

وكان هذا الصباح يحمل الكثير من الغموض والأسرار. لم يتم أى شىء بالطريقة المعهودة، كما أن الكثير من الخدم المحليين كانوا متغيبين عن المنزل، فى الوقت الذى رأت فيه مارى هؤلاء الخدم يتسللون خلسة أو يسرعون والخجل أو الخوف يرتسم على وجوههم. أيقنت أنها قد تُركت وحيدة فى ذلك الصباح، وفى النهاية تجولت فى حديقة المنزل، وبدأت تلعب بمفردها تحت شجرة بالقرب من الشُرفة. وتظاهرت بأنها كانت تعمل إكليلاً من الزهور، وألصقت أزهار الخبيز القرمزية الضخمة(*)، فوق أكوام قليلة من التراب، وكانت طوال اليوم تزداد حنقًا على حنقٍ، وتتمتم لنفسها الأشياء التى ستقولها، والأسماء التى ستناديها بـ (سيدى) حينما تعود.

"يا خنزيرة! يا خنزيرة! يا بنت الخنازير!" نادت بتلك الطريقة، حيث إن سب أى مواطن هندى بكلمة "خنزير" هى أقذع سبة على الإطلاق.

كانت تصر بأسنانها وهى تكرر هذه الكلمات مرة بعد أخرى، إلى أن سمعت أمها تخرج إلى الشرفة ومعها شخص ما. كانت مع شاب أشقر صغير السن، وكانا يتحدثان بأصوات خفيضة غريبة. عرفت مارى الشاب الأشقر الذى بدا كصبى. وكانت قد سمعت بأنه ضابط صغير جدًا قد وصل لتوه من إنجلترا.

حدقت الطفلة فى الضابط الشاب، ولكنها حدقت فى والدتها أكثر، وكانت تفعل ذلك دائمًا حين تواتيها الفرصة لرؤيتها، لأن السيدة – كما

(*) أنواع من الشجيرات الاستوائية أو أشجار تبدو ضخمة، ذات أزهار مبهجة بألوان متنوعة.

تعودت مارى على أن تناديها فى أغلب الأحيان – كانت امرأة جميلة طويلة نحيفة، وكانت ترتدى ملابس جميلة جدًّا. كان شعرها حريريًّا مجعدًا، وكان لها أنف دقيق يبدو كأنه يزدرى الأشياء الأخرى، أما عيناها فكانتا ضاحكتين كبيرتين. كانت كل ملابسها رقيقة طليقة و"مملوءة بالأشرطة"كما تقول مارى. بدت الملابس أكثر امتلاءً بالأشرطة فى ذاك الصباح عن أى يوم آخر، ولكن عينيها لم تكونا ضاحكتين على الإطلاق، بل كانتا كبيرتين، مملوءتين بالذعر، مصوبتين إلى وجه الضابط الشاب الأشقر وفيهما توسل.

"هل الأمر بهذا السوء؟ يا إلهى .. أهو كذلك؟"سمعتها مارى وهى تتلفظ بهذه الكلمات.

فأجاب الشاب بصوت مرتعش: "للغاية يا سيدة لينوكس .. كان من المفترض أن تذهبى إلى التلال منذ أسبوعين".

كانت السيدة تعتصر يديها ."أوه .. أعرف أنه كان ينبغى علىّ ذلك، ولكننى تأخرت عن الذهاب إلى تلك التلال بسبب حفلة عشاء سخيفة. يا لى من حمقاء!".

فى تلك الأثناء، انفجر صوت بالنحيب من مسكن الخدم، مما جعلها تتشبث بذراع الشاب، أما مارى فكانت ترتعش من رأسها إلى قدميها، وكان النحيب يعلو ويزداد.

"ما هذا؟ ما هذا؟"تساءلت السيدة لينوكس بلهفة.

فأجاب الضابط الشاب: "شخص ما قد مات .. ولكنك لم تخبرينى بأن هذا الأمر قد وقع بين خدمك".

"لم أكن أعرف!" قالتها السيدة وهى تبكى، ثم قالت: "تعال معى! تعال معى!"، واستدارت وهرعت إلى داخل المنزل.

بعد ذلك، حدثت أشياء مروعة، وغرابة ذلك الصباح تم شرحها وتفسيرها لمارى. فقد انتشرت الكوليرا بشكلها القاتل المخيف، وكان الناس يموتون بكثرة مثل الذباب. حتى إنهم أخذوا المربية فى المساء، وفى الصباح ماتت، وهذا سبب عويل الخدم فى أكواخهم. وقبل أن يأتى صباح يوم جديد، مات ثلاثة خدم آخرون، وفرَّ آخرون مذعورين. كان الرعب يحيط بهم من كل جانب، ولم يخل بيت من الموتى.

وفى أثناء ذلك الارتباك والذهول، خبأت مارى نفسها فى حجرتها، ونسيها الآخرون. لم يسأل عنها أحد، ولم يكن هناك أحد يريدها، وحدثت أشياء غريبة لم تعرف عنها مارى شيئًا. أما مارى فكانت تتناوب البكاء والنوم خلال تلك الساعات. كان كل ما تعرفه أن الناس مرضى، وأنها تسمع أصواتًا غامضة ومخيفة. وذات مرة تسللت إلى حجرة المائدة ووجدتها فارغة تمامًا، بالرغم من أنها بدت وكأن وجبة طعام قد انتهت جزئيًا، وكانت آثارها على المنضدة والكراسى والأطباق، وبدت وكأنها قد دُفعت للخلف بسرعة حين رُفع الطعام فجأة لسبب ما. أكلت بعض الفاكهة والبسكويت، وكانت عطشى فشربت كوب خمر كان مملوءًا عن آخره. كانت الخمر حلوة المذاق، ولكنها لم تكن تدرى قوة تلك الخمر، وبعد دقائق قليلة لعبت الخمر برأسها، وجعلت النعاس يداعب جفنيها، فذهبت ثانية إلى حجرتها وأغلقت عليها الباب ثانية، وهى فى شدة الرعب، من الصرخات والبكاء الذى تسمعه

من الأكواخ، ومن وقع الأقدام المهرولة. وقد أثرت عليها الخمر لدرجة أن النعاس غلبها، ولم تكن قادرة أن تفتح عينيها، فرقدت فى سريرها، ولم تعرف المزيد لفترة طويلة من الوقت.

حدث الكثير من الأشياء فى الساعات الطويلة التى نامتها بعمق، ولم يزعجها العويل ولا أصوات الأشياء التى كانت تنقل من البيت وإليه(*).

وحينما استيقظت، كانت لا تزال راقدة فى السرير، وتنظر إلى الحائط. وكان المنزل ساكنًا تمامًا، ولم يحدث فى حياتها من قبل أن وجدت منزلها بهذا السكون. ولم تسمع عويلاً ولا وقع أقدام، فتساءلت: أيمكن أن يكون مرض الكوليرا قد انتهى وأن جميع المشاكل والمتاعب قد انتهت؟ كما سألت نفسها: "يا ترى من سيرعاها الآن بعد أن ماتت مربيتها؟" ربما سيكون هناك مربية جديدة وستعرف قصصًا جديدة، فقد كانت مارى تمل من سماع القصص القديمة. ولم تبك لأن مربيتها ماتت. فلم تكن فتاة عاطفية، لم تهتم لأمر أحد. فقد كانت الضوضاء والهرولة هنا وهناك والعويل من الكوليرا قد أرعبها، وكانت غاضبة جدًّا؛ لأن الأمر بدا وكأن لم يتذكر أحد أنها ما زالت على قيد الحياة. فقد كان الجميع مبتلى بالذعر لدرجة أنه لم يكن هناك من يفكر فى فتاة غير محبوبة من الجميع. حين أتت الكوليرا على كل شىء كان كل واحد لا يهتم بشىء إلا نفسه. ولكن إذا أصبح الجميع فى عافية ثانية فبالطبع سيتذكرها أحدهم ويأتى ليبحث عنها.

(*) bungalow منزل شائع فى ريف الهند، مبنى بطراز محدد؛ كى يلطف من الضوء الشديد والحرارة الاستوائية، به غرف عديدة، وأسقف عالية ، ونوافذ وأبواب واسعة، وشرفات فى كل الجوانب .

ولكن لم يأت أحد، وزاد سكون المنزل رويدًا رويدًا وهى راقدة فى سريرها. وسمعت شيئًا يحف بالحصيرة وحين نظرت لأسفل لترى ما الأمر، وجدت ثعبانًا يزحف للأمام، ويراقبها بعينين مثل جوهرتين. لم تكن خائفة منه لأنه شىء صغير غير مؤذٍ، ولن يضرها، كما كان فى عجلة من أمره للخروج من تلك الغرفة، فانزلق من تحت الباب وهى تراقبه.

فقالت لنفسها: "يا لغرابة المكان وهدوئه. الأمر يبدو وكأننى وهذا الثعبان الوحيدان فى المنزل".

فى الدقيقة التالية تقريبًا سمعت وقع أقدام فى فناء البيت، ثم فى شرفة البيت. كانت الأقدام لرجال دلفوا إلى البيت، ثم بدؤوا فى التحدث بصوت هامس. لم يذهب أحد من المنزل إليهم ليقابلهم أو ليتحدث إليهم، ويبدو أنهم كانوا يفتحون أبواب الحجرات، ويفتشونها.

فسمعت أحدهم يقول: "يا له من مكان مهجور. تلك السيدة الجميلة جدًا، وأعتقد أن الطفلة كذلك. لقد سمعت أن لها طفلة، ولكن لم يرها أحد من قبل".

وبعد دقائق قليلة، كانت مارى تقف فى منتصف الحجرة حينما فتحوا باب حجرتها. كانت تبدو كشىء قبيح وهجين، وكانت عابسة الوجه لأنها بدأت تشعر بالجوع، كما بدأت تشعر بالخزى لأن عائلتها أهملتها وتركتها وحيدة فى البيت. وأول من دخل الغرفة من الرجال كان ضابطًا ضخمًا رأته يتحدث ذات مرة إلى والدها. كان الإرهاق والتعب يبدوان عليه ولكن حين رآها، كان خائفًا جدًا لدرجة أنه قفز للخلف.

صاح الرجل: "يا بارنى .. ها هنا طفلة! طفلة وحيدة! فى مكان مثل هذا! يا لرحمة السماء! من تكون تلك الفتاة؟".

فقالت الطفلة الصغيرة معتدةً بنفسها، وبصرامة: "أنا مارى لينوكس"، واعتقدت أن هذا الرجل كان غير مهذب حين دعا بيت والدها بـ "مكانٍ مثل هذا!"فاستطردت قائلة: "لقد كنت نائمة حين كان الجميع مصابين بالكوليرا، ولقد استيقظت لتوى. لِمَ لَمْ يأت أحد إلىّ؟".

فهتف الرجل فى أصحابه: "إنها الطفلة التى لم يرها أحد من قبل .. لقد نسيها الجميع بالفعل".

فقالت مارى: "لماذا نسينى الجميع، و لِمَ لَمْ يأت أحد إلىّ؟"

فنظر إليها الشاب الذى كان يدعى بارنى فى حزن، حتى إن مارى رأته وهو يغلق عينيه ليبعد عنهما الدموع.

ثم قال: "أيتها الطفلة الصغيرة المسكينة! لم يعش أحد ليأتى إليك". وبهذه الطريقة الغريبة والمفاجئة اكتشفت مارى أن أمها وأباها رحلا؛ فقد ماتا، وحملوهما بعيدًا فى الليل، حتى إن الخدم المحليين القلائل الذين لم يموتوا وبقوا على قيد الحياة، قد رحلوا بعيدًا عن المنزل بأسرع ما يمكنهم، ولم يتذكر أى منهم السيدة الصغيرة مارى. وهذا هو سبب هدوء المكان. والحق أنه لم يكن بالمنزل غيرها، فضلا عن الثعبان الصغير الذى كان يزحف خارجًا من الغرفة.

الفصل الثانى

مارى .. مارى عكس الكل

كانت مارى تحب أن تنظر إلى والدتها من بعيد، وكانت تعتقد أنها جميلة جدًّا، ولكنها لم تعرف عنها سوى القليل لدرجة أنه كان من الصعب أن يعتقد أحد أنها ستحب أمها أو ستفتقدها كثيرًا حينما ترحل. وفى الواقع، لم تفتقد أمها على الإطلاق، ولأنها كانت فتاة منهمكة فى شؤونها، فقد منحت كل وقتها وأفكارها لنفسها، ولو كانت أكبر سنًّا فبالطبع كانت ستقلق جدًّا من تركها وحيدة فى هذا العالم، ولكنها كانت صغيرة جدًّا، ولأنها اعتادت أن يرعاها الغير، فقد كانت على يقين بأن هذه الرعاية ستدوم. وكان كل ما يدور بخلدها هو إذا ما كانت ستنتقل إلى أناس طيبين يكونون مهذبين معها، وأن يتركوها تتصرف بحرية كما كانت تدعها مربيتها والخدم المحليون الآخرون.

وكانت تعرف أنها لن تمكث فى بيت رجل الدين الإنجليزى الذى أُخذت إليه فى البداية. فهى لم تكن تريد أن تعيش هناك. فقد كان رجل

الدين الإنجليزى فقيرًا، ولديه خمسة أطفال فى السن نفسها تقريبًا، وكانوا يرتدون ملابس رثة، كما كانوا يتشاجرون دائمًا، ويخطفون الألعاب من بعضهم. وكرهت مارى بيتهم غير المنظم، وكانت ذات طباع سيئة معهم لدرجة أنه بعد اليوم الأول أو الثانى لم يكن أحد من أطفال البيت يلعب معها. وفى اليوم التالى أطلقوا عليها لقبًا جعلها شديدة الغضب.

باسل هو من فكر فى هذا اللقب فى البداية، وكان باسل صبيًّا صغيرًا ذا عينين زرقاوين وقحتين، وأنف أفطس، وكانت مارى تكرهه. كانت تلعب بمفردها أسفل شجرة، كما كانت تلعب فى اليوم الذى انتشرت فيه الكوليرا. كانت تعمل أكوامًا من التراب وتخطط طرقًا لحديقة، أما باسل فقد أتى ووقف بجوارها ليشاهدها، وفى الحال أصبح مهتمًا بما تفعله وفجأة اقترح فكرة:

"لما لا تضعين كومة من الأحجار وتتظاهرين بأنها حديقة حجرية .. هنا فى المنتصف"، ثم انحنى فوقها ليشير إلى المكان الذى يقصده، فصرخت فيه مارى: "ابتعد عنى .. لا أريد اللعب مع الأولاد .. ابتعد عنى".

فى تلك اللحظة ظهر الغضب على باسل، ثم ما لبث أن بدأ فى مضايقتها، وقد كان دائمًا يضايق أخواته البنات، فبدأ يرقص حولها ويُلعِّب وجهه ويُغنِّى:

الآنسة مارى، متناقضة للغاية.

كيف تنمو حديقتك،

بها أجراس فضية، ومحارات رخوية،

ونبات القطيفة فى صفوف.

وظل يغنى تلك الأغنية حتى سمعها الأطفال الآخرون وبدؤوا يضحكون ويسخرون أيضًا، وكلما ازداد غضب مارى، ازداد غناء الأطفال "مارى .. مارى .. عكس الكل"، وبعد ذلك طوال المدة التى قضتها معهم كانوا ينادونها بـ "مارى عكس الكل".

قال باسل لها: "سيرسلونك إلى أرض الوطن فى نهاية الأسبوع، ونحن سعداء بهذا".

فأجابت مارى: "وأنا سعيدة بذلك أيضًا. ولكن أين ذلك الوطن؟".

فقال باسل بسخرية طفل فى السابعة: "إنها لا تعرف أين الوطن!" "الوطن هو إنجلترا. جدتنا تعيش هناك، وقد أرسلت أختنا مابل إليها فى العام الماضى. أما أنت فلن تذهبى إلى جدتك، حيث لا جدة لك هناك. ستذهبين إلى زوج عمتك المدعو السيد أرتشيبالد كرافن".

فقالت مارى فى غيظ: "لا أعرف أى شىء عنه".

فأجاب باسل: "أعرف أنك لا تعرفين عنه شيئًا .. لا تعرفين أى شىء، فالبنات دائمًا لا يعرفن شيئًا. سمعت أبى وأمى يتحدثان عنه. يعيش فى بيت قديم كبير وفخم ومهجور فى الريف، ولا أحد يقترب منه، ويغضب جدًّا إذا أراد أحد الاقتراب منه .. حتى إن الناس لن يقتربوا من البيت إن سمح لهم بذلك. كما أنه شخص أحدب وبغيض".

ردت ماری: "أنا لا أصدقك". ثم أدارت له ظهرها، ووضعت إصبعيها فی أذنيها، لأنها لم تود سماع المزيد.

ولكنها أعطت لهذا الأمر عظيم الاهتمام فيما بعد؛ وحين أخبرتها السيدة كراوفورد فی تلك الليلة بأنها ستبحر إلى إنجلترا فی غضون أيام قلائل لتذهب إلى زوج عمتها السيد أرتشيبالد كرافن، والذی كان يعيش فی مسيلثويت، فبدت كالحجر الأصم وبدا عليها عدم الاهتمام بدرجة جعلتهم يشعرون أنهم لا يعرفونها. حاولوا أن يكونوا لطفاء معها، إلا أنها أزاحت بوجهها بعيدًا حينما حاولت السيدة كراوفورد أن تقبّلها، وكانت كالصخرة الصلدة لما حاولت السيدة كراوفورد أن تُربت على كتفيها.

قالت السيدة كراوفورد بشفقة: "يا لها من فتاة قبيحة!"، ثم أردفت قائلةً: "كانت والدتها مخلوقًا جميلاً، كما كان سلوكها رائعًا أيضًا، أما سلوك ماری فهو الأسوأ على الإطلاق بين الأطفال. إن الأطفال ينادونها بـ "ماری عكس الكل"، وبرغم أنها سيئة السلوك معهم، فإن المرء لا يمكنه فهم الأمر".

"ربما لو منحتها أمها وجهًا جميلاً، وعلمتها السلوك الحسن بصورة متكررة فی الحضانة، لكانت ماری قد تعلمت بعض السلوكيات الحسنة. يا له من شیء مؤسف – فقد ولى الشیء الجميل – أن نتذكر بأن كثيرًا من الناس لم يعرفوا قط أن لها أی أطفال".

تنهدت السيدة كراوفورد وقالت: "أنا على يقين بأن والدتها لم تكن تنظرها إلا فى النادر، فحين تُوفيَت مربيتها، لم يكن هناك أى شخص ليفكر -مجرد التفكير- فى هذا الكائن الصغير. تذكر أن الخدم كانوا يهربون من هذا البيت وتركوها وحيدة بين جنبات هذا المنزل المهجور. إن الكولونيل ماكجرو أخبرنى بأنه قفز للخلف حين فتح باب غرفتها ووجدها واقفة وحيدة فى منتصف الغرفة".

أبحرت مارى طويلاً إلى إنجلترا تحت رعاية زوجة الضابط، التى كانت فى طريقها مع أبنائها لتضعهم فى مدرسة داخلية بإنجلترا. كانت منغمسة كليةً مع ابنها الصغير وابنتها، وكانت فى غاية السعادة، حينما سلمت مارى إلى السيدة التى أرسلها إليها السيد أرتشيفالد كرافن فى لندن. هذه السيدة هى مديرة المنزل فى ضيعة ميسلثويت واسمها السيدة ميدلوك. كانت سيدةً بدينة ذات خدين متوردين، وعينين حادتين سوداوين. كانت ترتدى فستانًا بنفسجيًا زاهيًا، وعباءة حريرية سوداء ذات شراريب سوداء من الكهرمان(*)، وقلنسوة سوداء ذات أزهار مخملية بنفسجية ملتصقة بالقلنسوة من أعلى وتهتز كلما حركت رأسها. لم تحبها مارى على الإطلاق، وحيث إنه من النادر لها أن تألف البشر، فإن هذا الشىء لم يكن له أهمية كبيرة، بالإضافة إلى أنه ومما لا يحتاج إلى دليل، أن السيدة ميدلوك لم تكن تهتم بمارى كثيرًا.

(*) خرز مصنوع من شكل أسود براق من الكربون الطبيعى.

كانت تقول:

-"يا إلهى! ليس بها شىء حسن، وقد سمعنا مرارًا عن جمال أمها، ولكنها لم ترث من جمال أمها شيئًا، أليس كذلك يا سيدتى؟".

- "ربما ستتحسن حين تكبر" قالتها زوجة الضابط بأسلوب حسن.

- "لو لم تكن شديدة الشحوب، ولها سيماء أفضل، لكانت معالمها حسنة. فالأطفال يتغيرون تغيرًا كبيرًا".

أجابتها السيدة ميدلوك: "سيجب عليها أن تتغير للأفضل. ولكن من المحتمل أنه لا يوجد شىء يجعل الأطفال تتغير للأحسن فى مسلثويت – إن أردتِ الحقيقة".

اعتقدت أن مارى لم تكن تستمع إليهم لأنها كانت تقف بعيدًا عنهم عند نافذة الفندق الخاص الذى ذهبوا إليه. كانت تشاهد الحافلات، وسيارات الأجرة، والناس المارة، ولكنها سمعت جيدًا ما كانتا تتحدثان عنه، وكان يملؤها حب الاستطلاع عن زوج عمتها، وعن المكان الذى يعيش فيه. وعن طبيعة هذا المكان، وكيف يبدو زوج عمتها، وما هو الأحدب، فهى لم تر فى حياتها قط أحدب. ربما لا يوجد أى شخص أحدب فى الهند.

ومنذ أن بدأت العيش فى منازل الناس الآخرين، بلا مربية، فقد بدأت تشعر بالوحدة، وبدأت تفكر أفكارًا غريبة كانت جديدة بالنسبة إليها. وبدأت تتساءل لِمَ لَمْ تبدُ قط أنها تخص أى أحد حين كان أبواها ما زالا على قيد الحياة.

فالأطفال الآخرون يبدو أنهم ينتمون إلى آبائهم وأمهاتهم، ولكنها لم تبد مطلقًا أنها ابنة أى أحد على الإطلاق. كان لها الخدم، والطعام، والملبس، ولكن لم يكن يلحظها أى أحد. لم تكن تعرف أن هذا نتيجة أنها طفلة دميمة سيئة الطباع. كانت تعتقد أن الناس الآخرين كلهم هكذا، ولكنها لم تعرف أنها كذلك.

كانت تعتقد أن السيدة ميدلوك هى أكثر شخص دميم وسيئ الطباع قابلته طوال حياتها، بوجهها المألوف الذى تصبغه بالألوان، وقلنسوتها العادية.

فى اليوم التالى، انطلقوا فى رحلتهم إلى يوركشاير، ومشت عبر محطة السكة الحديدية حتى وصلت إلى عربة الركاب برأس مترفع، وكانت تحاول أن تبعد نفسها عنها بأقصى ما تستطيع؛ لأنها لم تكن تود أن يعتقد أحد أنها ابنة السيدة ميدلوك. وكانت تستشيط غضبًا حين تفكر أن الناس ربما يعتقدون أنها ابنة لهذه السيدة.

ولكن السيدة ميدلوك لم تكن منزعجة منها على الإطلاق، أو حتى من أفكارها. فقد كانت من نوعية النساء اللائى لا يهتممن بأفعال الصغار. أو على الأقل، فإنها ستقول كذلك إن سألها أحد. فهى لم ترد الذهاب إلى لندن لحضور زفاف ابنة أختها ماريا فقط، ولكن لأنها ستحصل على وظيفة مريحة، وذات أجر جيد، كمديرة شؤون البيت فى ضيعة مسلثويت. والسبيل الوحيد فى الحفاظ على هذه الوظيفة، هى أن تقوم بعمل ما يود السيد أرتشيبالد كرافن فعله فى الحال. ولم تجرؤ قط على أن تسأله سؤالاً. لقد أخبرها السيد كرافن بأسلوبه المقتضب البارد: "لقد مات الكابتن

لينوكس وزوجته بسبب الكوليرا". ثم أردف قائلاً: "كان الكابتن لينوكس أخًا لزوجتى، وأنا الوصى على ابنتيهما. وستُربى هذه الفتاة هنا. يجب عليك الذهاب إلى لندن وإحضارها إلى هنا بنفسك".

ولذا فقط حزمت حقيبتها الصغيرة، وقامت بالرحلة.

كانت مارى تجلس فى ركن عربة القطار وجهها شاحب ومضطربة. ولم يكن لديها ما تقرؤه، أو تنظر إليه. صلّبت يديها النحيلتين الصغيرتين ذوى القفازات السوداء عند صدرها. أضفى عليها الفستان الأسود الذى ترتديه شحوبًا أكثر من ذى قبل. وشعرها الخفيف المترنح كان منتشرًا بلا نظام من تحت قبعتها السوداء المصنوعة من قماش رقيق(*).

فكرت السيدة ميدلوك وقالت: "يا لها من فتاة مدللة، وسيئة الطباع، لم أر لها مثيلاً من قبل". فهى لم تر من قبل طفلةً تجلس ساكنةً بلا أى حركة، وفى النهاية ملّت منها، وبدأت تتحدث فى صوت حاد جامد: "أعتقد أنه من المفترض أن أخبرك بعض الأشياء عن المكان الذى ستذهبين إليه". ثم أردفت: "هل تعرفين أى شىء عن زوج عمتك؟".

فردّت مارى: "كلا".

– "ألم تسمعى أباك أو أمك تتحدث عنه من قبل؟".

عبست مارى وقالت: "كلا".

(*) Crepe قماش مصبوغ، ذو نسيج رقيق، يلبس للحداد.

عبست لأنها تذكرت أن أباها وأمها لم يتحدثا معها عن أى شىء بوجه خاص. وبالطبع لم تخبرها أى شىء.

همهمت السيدة ميدلوك: "أووف" ونظرت إلى وجهها الضئيل الغريب الذى لا تبدو عليه أى أمارات لإحساس. لم تقل المزيد لعدة لحظات، وبعدئذٍ بدأت ثانيةً:

"أعتقد أنه من الواجب أن أخبرك ببعض الأشياء – كى أعدك للحياة فى المكان الجديد. فأنت ذاهبة إلى مكان غريب".

لم تنطق مارى بأى شىء مطلقًا، فأحست السيدة ميدلوك باليأس بسبب عدم مبالاتها الواضحة. ولكن بعد أن تنهدت قالت ثانية:

"ولكن هذا المكان كبير جدًا بطريقة تدعو للكآبة، كما أن السيد كرافن فخور به بطريقته الخاصة، وهذا شىء كئيب أيضًا. و هذا البيت يبلغ عمره ستمئة عام، وهو على حافة البرارى، ويوجد به ما يقرب من المئة غرفة؛ بالرغم من أن معظمهما مغلق، وهناك لوحات، وأثاث قديم رائع، وأشياء أخرى موجودة هناك منذ عصور، كما يوجد منتزه كبير حول البيت، وحدائق، وأشجار تتدلى أفرعها إلى الأرض – بعضها". هنا توقفت عن الكلام فجأة، وتنهدت:

"لكن لا يوجد شىء آخر". وأنهت حديثها فجأة.

استمعت مارى إلى حديثها رغمًا عنها. بدا كل هذا أنه مختلف تمامًا عن الهند، وكل هذه الأشياء الجديدة سحرتها. ولكنها لم تود أن يظهر عليها

الاهتمام. وكان هذا أسلوبًا من أساليبها الكريهة المحزنة. ولذا فكانت تجلس ساكنة بلا حركة.

قالت السيدة ميدلوك: "حسنًا. ما رأيك فيها؟".

أجابت: "لا شىء. فأنا لا أعرف شيئًا عن تلك الأماكن".

وهذا الكلام جعل السيدة ميدلوك تضحك ضحكة قصيرة مقتضبة.

– "إيه .. ولكنك مثل سيدة عجوز. ألا تهتمين؟".

– "لا يهم إذا كنت أهتم أم لا".

– "عندك حق. لا يهم. فما سيجعلك تمكثين فى ضيعة مسلثويت لا أعرفه، إلا لأنه أبسط الطرق. فهو لن يشغل باله بكِ. هذا شىء مؤكد. فهو لم يشغل باله بأى أحد من قبل".

وأحجمت عن الكلام كما لو أنها قد تذكرت شيئًا فى الوقت المناسب. ثم قالت:

"إن له ظهرًا أحدب. وقد أثر عليه ذلك سلبًا. فقد كان شابا فظًا، ولم يستفد بماله، وبيته الكبير حتى تزوج.

تحولت عينا مارى إليها بالرغم من نيتها عدم إظهار أى اهتمام. فلم تفكر يومًا أنه يمكن للأحدب أن يتزوج، وكانت مندهشة إلى حدٍّ ما. لاحظت السيدة ميدلوك هذا، ولأنها كانت سيدة ثرثارة فقد تابعت حديثها بمزيد من الاهتمام. وكانت هذه طريقتها لجعل الوقت يمر، بأى طريقة.

– "لقد كانت امرأة بارعة الجمال، وقد مشطت العالم بحثًا عن بعض النباتات العشبية التى كانت تريدها. لم يعتقد أحد أنها ستتزوجه، ولكنها تزوجته. قال البعض إنها تزوجته لماله. ولكن هذا لم يكن صحيحًا – لم تتزوجه لماله". قالتها بيقين.

– "وعندما ماتت–"

وقفزت مارى قفزة لا إرادية.

قالت بقوة: "أوه! لقد ماتت!" قالتها دون أن تعنى شيئًا. ولكنها تذكرت قصة فرنسية للأطفال قرأتها ذات مرة وتُدعى "رِكت وخصلة الشعر" كانت تتحدث عن أحدب فقير، وأميرة جميلة، وتركت القصة أثرًا على مارى بأن شعرت بالأسى تجاه السيد أرتشيبالد كرافن.

أجابت السيدة ميدلوك: "نعم .. لقد ماتت. وجعله موتها أغرب من ذى قبل، فهو لا يهتم بأحد. ولا يريد أن يرى أحدًا. ويسافر بعيدًا معظم الوقت، وحين يكون فى ضيعة مسلثويت يغلق على نفسه الجناح الغربى، ولا يسمح لأحد بأن يدخل عليه إلا بتشر. بتشر هذا خادم عجوز، ولكنه يرعاه منذ أن كان طفلاً، ويعرف كل أساليبه".

أحست مارى بأن كل ما يُحكى لها ما هو إلا جزء من كتاب، وهذا لم يبهجها. فمنزل به مئة حجرة، معظمها مغلق – وعلى حافة البرارى – مهما تكن البرارى، يبدو شيئًا مخيفًا. رجلاً أحدب أغلق باب الدنيا على نفسه! نظرت خارج النافذة وشفتاها مزمومتان، وبدا من الطبيعى أن تبدأ

السماء بالانهمار فى المطر فى خطوط رمادية مائلة، ويصطدم رذاذ المطر بزجاج النافذة ثم يتدفق لأسفل. لو كانت الزوجة الحسناء ما زالت على قيد الحياة، لربما كانت الأشياء أفضل مثلما كانت والدتها، وأن تهرع من الداخل للخارج، وأن تذهب إلى الحفلات كما كانت تفعل بفساتين سهرة معقودة بشريط. ولكنها لم تكن على قيد الحياة.

قالت السيدة ميدلوك: "لا تنتظرى أن تريه؛، لأن مئة فى المئة لن تشاهديه. ويجب ألا تعتقدى أن هناك أناسًا سيتحدثون معك. سيجب عليك أن تلاعبى نفسك وتعتنى بنفسك. سيتم إخبارك بالحجرات التى يمكنك أن تدخليها، والحجرات التى لا يمكنك دخولها. هناك الكثير من الحدائق بما يكفى. ولكن حين تكونين فى المنزل، فلا تتجولى وتتسكعى فى المكان حيث إن السيد كرافن لا يحب هذا".

قالت مارى الصغيرة بغضب: "لن أتسكع فى البيت". وحدث فجأة -كما حدث أن شعرت بالأسى تجاهه- فقد شعرت بأنه إنسان كريه وبغيض لدرجة أنه يستحق كل ما حدث له. أشاحت بوجهها إلى خيوط المطر المتدفقة على نافذة عربة القطار، وحدقت فى قطرات المطر الرمادية المتساقطة التى بدت وكأنها ستستمر إلى الأبد. شاهدتها طويلاً وباستمرار حتى ازداد فى عينيها اللون الرمادى رويدًا رويدًا إلى أن استغرقت فى النوم.

الفصل الثالث

عبر الدغل

نامت طويلاً، وحينما استيقظت، كانت السيدة ميدلوك قد اشترت سلة الغداء من إحدى المحطات، فتناولوا دجاجًا، ولحمًا بقريًا باردًا، وخبزًا، وزبدًا، وشايًا ساخنًا. فى ذلك الوقت كانت الأمطار تنهمر بغزارة أكبر من ذى قبل، وكان كل من بالمحطة يرتدون معاطف واقية من المطر مبتلة وبرّاقة. أتى حارس ليشعل المصباح فى عربة القطار، وكانت السيدة ميدلوك سعيدة جدًا بوجبة الغداء التى تناولت فيها الدجاج، واللحم البقرى، والشاى. ملأت بطنها بالطعام، وما لبثت أن غطت فى نوم عميق. جلست مارى تحدق فيها، وتشاهد قبعتها الرائعة التى انزلقت على أحد الجانبين، إلى أن غطت مارى هى الأخرى فى نوم عميق فى أحد جوانب العربة، حيث كانت تستمع لدقات المطر على النوافذ الزجاجية. وحين استيقظت، كانت العربة مظلمة تمامًا، والقطار متوقفًا فى إحدى المحطات، وكانت السيدة ميدلوك تهزها كى تستيقظ.

وقالت لها: "لقد نمت بما فيه الكفاية!" "حان وقت الاستيقاظ! نحن الآن فى محطة ثويت، ومازال أمامنا طريق طويل".

نهضت مارى، وحاولت أن تبقى عينيها مفتوحتين، فى حين بدأت السيدة ميدلوك فى حمل متعلقاتهما، إلا أن الفتاة الصغيرة لم تعرض عليها المساعدة؛ لأن الخدم المحليين فى الهند دومًا هم من يحملون الأشياء، فبدا الأمر عاديًّا تمامًا حين ينتظر الناس الآخرون واحدًا من الخدم لحمل حقائبهم.

كانت المحطة صغيرة، وبدا أنهم هم الأشخاص الوحيدون الذين نزلوا من القطار فى تلك المحطة. تحدث ناظر المحطة إلى السيدة ميدلوك بصوت أجش، وبطريقة مهذبة، متلفظًا بكلماته بشكل غريب، اكتشفت مارى بعدئذ أنها طريقة سكان يوركشاير.

فقال لها: "ها قد عدت إلى هنا .. وقد جلبت معك السيدة الصغيرة".

فأجابت بلهجة يوركشاير: "نعم .. ها هى". وأومأت برأسها تجاه مارى. ثم قال: "كيف حالك أيتها السيدة؟".

"حسنًا، هذا يكفى! العربة جاهزة خارج المحطة".

كانت هناك عربة صغيرة تنتظر على الطريق أمام الرصيف الخارجى الصغير. شعرت مارى أن العربة أنيقة، وأن الخادم الذى ساعدها فى ركوبها كان أنيقًا أيضًا. كان معطفه الطويل الواقى من المطر، وغطاء قبعته الواقى

من المطر يلمعان، ويتساقط منهما قطرات المطر ككل شىء فى المحطة، بما فى ذلك ناظر المحطة الضخم.

بعد أن أغلق الباب، أعطت صندوق المتعلقات لسائق العربة، وانطلق بالعربة، ووجدت الطفلة الصغيرة نفسها تجلس فى ركن مبطن بالوسائد ومريح، ولكن لم يكن لديها أى رغبة فى النوم ثانيةً. جلست تنظر من نافذة العربة متمنية أن ترى طريق الذهاب إلى المكان الغريب الذى ستأخذها السيدة ميدلوك إليه، وطالما حدثتها عنه. لم تكن مارى طفلة جبانة مطلقًا، ولم تكن خائفة بالمرة، ولكن شعورها كان غريبًا تجاه عدم معرفتها بما سيحدث فى بيت به مئة غرفة معظمها مغلق تقريبًا – بيت يقف وحيدًا على حافة دغل.

سألت مارى السيدة ميدلوك فجأةً: "ما هو الدغل؟(*)".

فردت السيدة ميدلوك: "انظرى حولك لعشر دقائق وستعرفين معنى الدغل. مازال أمامنا خمسة أميال لنقودها عبر دغل ميسل حتى نصل إلى الضيعة. لن تستطيعى رؤية الكثير من الأشياء لأنها ليلة مظلمة، ولكن على الأقل سترين شيئًا".

لم تسأل مارى المزيد من الأسئلة، ولكنها ظلت ساكنةً فى ركن العربة المظلمة، مثبتة عينيها على نافذة العربة. كانت كشافات العربة تلقى بخيوطٍ

(*) brougham :عربة حنطور؛ مغلقة من كل الجهات، وسائقها يجلس خارجًا فى الأمام.

من ضوء لمسافة قليلة أمامهم، وكانت مارى تحاول أن تلمح سريعًا الأشياء التى يقع عليها الضوء حين يمرون بها. بعد أن تركوا المحطة، قادوا العربة عبر قرية صغيرة، ورأت مارى البيوت الريفية المطلية بالجبس، وأضواء مجلس عمومى. وبعدئذٍ مروا بكنيسة، ثم بمقر القس، ثم بعارضة محل زجاجية أو ما شابه ذلك فى بيت ريفى، وبها ألعاب، وحلوى، وأشياء أخرى كثيرة معروضة للبيع. وبعد ذلك وصلوا إلى الطريق السريع، ورأوا أسيجة من شجيرات صغيرة، وأشجار. وبعد ذلك لم يكن هناك شىء يبدو مختلفًا لفترة طويلة – أو على الأقل بدت الفترة طويلة بالنسبة إليها.

فى النهاية بدأت الخيول تقلل من سرعتها، كما لو كانت تصعد تلاً، وفى تلك الأثناء لم يعد هناك المزيد من أسيجة الشجيرات، أو الأشجار. ولم تكن قادرة على رؤية أى شىء– فى الواقع – سوى ظلام كثيف على جانبى العربة. انكفأت للأمام وضغطت بوجهها على النافذة حين ارتجت العربة رجة عنيفة.

فقالت السيدة ميدلوك: "إيه .. أنا على يقين بأننا الآن فى الضيعة".

ألقت العربة بضوء أصفر على طريق خشن يبدو أنه تم تعبيده عبر شجيرات وحشائش نامية، وينتهى الطريق بامتداد هائل من الظلام واضح أنه ممتد أمامهم ومن حولهم. كانت هناك رياح تهب محدثة صوتًا فريدًا، موحشًا، وعاصفًا.

فالتفتت مارى إلى رفيقتها، وقالت: "إنه .. إنه ليس البحر، أليس كذلك؟".

فأجابت السيدة ميدلوك: "نعم، ليس البحر، ولا الحقول، ولا الجبال، إنها مجرد أميال وأميال وأميال من الأرض الموحشة التى لا ينبت فيها شىء سوى نباتات الخلنج، والجولق، والوزال(*)، ولا يعيش فيها أحد سوى الخراف، والخيول القزمة البرية".

فقالت مارى: "أشعر أن هذا الصوت صادر عن البحر، لو أن هذه الأرض تحوى بحرًا، ويبدو الصوت الآن كصوت البحر".

فقالت السيدة ميدلوك: "إن هذا صوت الرياح تهب عبر الشجيرات. إن هذا المكان بالنسبة إلىّ موحش وكئيب، برغم أن هناك الكثيرين الذين يحبون هذا المكان، خاصةً حين تزهر نباتات الخلنج".

استمرت العربة فى سيرها عبر الظلام، وبرغم أن المطر قد توقف، فإن الرياح كانت تندفع عبر تلك الأرض الواسعة، وكانت تصفر، وتحدث أصواتًا غريبة. كان الطريق يصعد حينًا ويهبط حينًا، ومرت العربة مرات عديدة فوق جسور صغيرة تندفع المياه أسفل منها بسرعة كبيرة محدثة جلبة كبيرة. شعرت مارى وكأن هذه الرحلة بلا نهاية، كما شعرت بأن

(*) broom :أنواع قوية من الشجيرات الكثيفة، توجد فى المناطق البرية؛ تنمو بقوة وتثمر عناقيد فواحة، ذات شكل جرسى وأصفر، وأزهار أورجوانية وردية.

الضيعة الواسعة والقاحلة، لم تكن سوى محيط كبير من الظلام تعبره على خيط من الأرض الجافة.

قالت مارى لنفسها: "أنا لا أحب هذا المكان .. لا أحبه". ثم زمّت شفتيها الرفيعتين أكثر فأكثر.

كانت الخيول تصعد جزءًا صاعدًا من الطريق، حين أبصرت ضوءًا، ورأت السيدة ميدلوك الضوء أيضًا، وأطلقت تنهيدة ارتياح.

"إيه .. أنا سعيدةٌ جدًّا لرؤية هذا الضوء المتلألئ. إنه الضوء الآتى من نافذة المسكن. أخيرًا سنتناول كوبًا من الشاى بعد برهة، على كل حال".

وكان "بعد برهة" كما قالت، لأنه بعد عبور بوابة الحديقة كان أمامنا ميلان من طريق مشجر على العربة أن تقطعهما، وجعلت الأشجار المتعانقة، الطريق يبدو كما لو كنا نقود العربة عبر قبو مظلم طويل.

خرجت العربة من القبو المشجر إلى مساحة خالية من الأشجار، وتوقفت أمام منزل منخفض، ولكنْ ذى مساحة هائلة، بدا وكأنه يلتف حول زقاق حجرى. فى البداية، اعتقدت مارى أنه لا توجد أى أضواء منبعثة من النوافذ، ولكن حين هبطت من العربة، رأت ضوءًا خافتًا ينبعث من حجرة جانبية فى الطابق العلوى.

كان باب المدخل هائلاً، مصنوعًا من ألواح خشبية هائلة ومصنوعة بدقة من أخشاب البلوط، ومرصعة بمسامير حديدية ضخمة، ومثبتة بألواح حديدية ضخمة. انفتح الباب على صالة هائلة خافتة الضوء لدرجة أن الوجوه فى اللوحات المرسومة على الجدران، والتماثيل فى

زى المحاربين جعلت مارى غير راغبة فى رؤيتها. بمجرد أن وقفت على الأرضية الصخرية بدت كشكل أسود صغير جدًا، وشعرت بضآلتها وغرابتها كما بدت.

كان هناك شيخ نحيف وأنيق يقف بجوار الخادم الذى فتح الباب لهما.

فقال الشيخ بصوت أجش: "خذيها إلى غرفتها". ثم استطرد: "لا يريد السيد أن يراها. إن عليه الذهاب إلى لندن فى الصباح".

فردت السيدة ميدلوك: "حسنًا يا سيد بتشر، ما دمت أعرف ما يجب علىّ فعله، فتأكد أننى قادرة على تولى هذا الأمر".

فسألها السيد بتشر: "وما الذى يجب عليك فعله؟".

فأجابت: "أن تكون على يقين بأن لا أحد يزعج السيد، وألا يرى ما لا يحب أن يراه".

وبعد ذلك، اُقتيدت مارى عبر سلم عريض، ثم دهليز أدى إلى بعض درجات من سلم أدى إلى دهليز آخر، ثم إلى آخر حتى وصلت إلى باب مفتوح فى حائط فوجدت نفسها داخل غرفة، بها مدفأة، كما وجدت طعام العشاء معدًا على المائدة.

فقالت السيدة ميدلوك بطريقة جافة: "حسنًا .. ها أنت هنا أخيرًا. هذه الغرفة والغرفة التى تجاورها هما المكان الذى ستعيشين فيه. يجب عليك ألا تتعدى حدودهما. عليك أن تحفظى ذلك جيدًا!".

وبهذه الطريقة وصلت مارى الصغيرة إلى ضيعة ميسلثويت، وربما لم تشعر بعد ذلك مطلقًا بأنها عكس الكل.

الفصل الرابع

مارثا

حينما فتحت عينيها في الصباح التالى، كان ذلك لأن خادمة شابة أتت إلى الغرفة لتشعل نار المدفأة، وكانت منحنية على السجادة المجاورة للمدفأة تقلب الرماد، لتأخذه بعيدًا، وكان لعملها ضجة. ظلت مارى راقدة فى فراشها تنظر إلى الخادمة الصغيرة للحظات قليلة، ثم بدأت تجول بناظريها فى الحجرة. لم تر مثل تلك الحجرة من قبل، وبدت لها غريبة وكئيبة. كانت الحوائط مغطاة بنسيج مطرز برسم لغابة. كان فى هذا المنظر أناس يرتدون ملابس أنيقة يجلسون تحت الأشجار، وعلى البعد تلوح أبراج قلعة. كان هناك صيادون، وخيول، وكلاب، وسيدات. وأحست مارى أنها فى الغابة معهم. من نافذة عميقة استطاعت أن ترى مساحة شاسعة من أرض مرتفعة خالية تمامًا من الأشجار، وتبدو كأنها بحر أرجوانى باهت اللون وبلا نهاية.

فقالت مارى مشيرة إلى خارج النافذة: "ما هذا؟".

فقالت مارثا، الخادمة الشابة، التى نهضت لتوها من على السجادة المجاورة للمدفأة، بعد أن نظرت وأشارت أيضًا فى الاتجاه نفسه: "هذا الذى هناك؟".

فقالت مارى: "نعم".

فأخبرتها مارثا: "إنها البرارى". ثم ابتسمت ابتسامة لطيفة وقالت: "هل تعجبك؟".

فردت مارى: "لا .. إنى أكرهها".

فقالت مارثا: "هذا لأنك لم تتعودى عليها". ثم قالت وهى تعود ثانية إلى المدفأة: "إنك تعتقدين أنها مكان شاسع جدًّا وقاحل الآن. ولكنك ستحبينها".

فاستفسرت مارى: "هل تحبينها؟".

فردت مارثا بسعادة وهى تلمع القضبان الحاجزة للمدفأة: "نعم .. لا أنكر أننى أحبها. فهى مليئة بالأشياء النامية ذات الروائح الذكية. كما أنها جميلة حقًّا فى فصلى الربيع والصيف، حيث تزهر نباتات الجولق والوزال والخلنج. رائحتها حلوة، وبها الكثير من الهواء المنعش – كما تبدو السماء مرتفعة جدًّا، أما النحل وطيور القبرة فتجعلها مليئة بالطنين والغناء الجميل. آه .. لا أريد أن أعيش بعيدًا عن هذه البرارى لأى سبب مهما يكن".

استمعت إليها ماري، وترسم على وجهها أمارات التحير والصمت. فالخدم المحليون الذين اعتادت عليهم ماري في الهند لم يكونوا مثل هذه الخادمة. قد كان الخدم بالهند متذللين(*)، ومستسلمين للعبودية، ولم يكن يجرؤ أحدهم أن يتحدث مع سيده وكأنهم متساوون. كان الخدم بالهند ينحنون(**) للسادة ويسمونهم "حماة الفقراء"، وأسماء من هذا القبيل. فالخدم في الهند كانوا يؤمرون بفعل الأشياء، لا أن تُطلب منهم. ولم يكن السادة ليقولوا "من فضلك"أو "شكرًا لك"، وكانت ماري تصفع مربيتها دائمًا على خديها حين تكون غاضبة. وتساءلت في نفسها ما الذي يمكن لتلك الفتاة الشابة أن تفعل إن صفعها أحد على وجهها. فقد كانت الفتاة مخلوقًا جميلاً مهذبًا، كانت مشرقة وكاملة، وشخصيتها كانت قوية، لدرجة أن ماري الصغيرة تحيرت لو تم ذلك، فربما لن تكتفي فقط برد الصفعة - حتى لو أن الذي صفعها كان مجرد طفلة صغيرة.

فقالت ماري، وهي مستلقية على الوسائد، بغطرستها المألوفة: "أنت خادمة عجيبة".

فجلست مارثا على مؤخرة كعبيها، وفي يدها فرشاة التنظيف السوداء، ثم ضحكت، ولم يبد عليها أي غضب، وقالت:

(*) obsequious: حريصون للغاية على الطاعة.

(**)salaams: انحناءات للتحية؛ فيها توضع الكف اليمنى على الجبهة. وفي العربية تعني السلام.

"هه .. أعرف هذا! لو أن بميسلثويت سيدة المنزل المهيبة، فلن أكون حتى واحدة من هؤلاء الخدم المسؤولين عن شؤون البيت، ولكن ربما كنت واحدة من الخدم الذين يغسلون الأطباق، وبكل تأكيد لن يُسمح لى بالصعود إلى الطابق العلوى. أنا فتاة عادية جدًا، وأتكلم كثيرًا بلهجة يوركشاير. ولكن هذا البيت غريب، برغم أنه منزل كبير. ويبدو بلا سيد أو سيدة فيما عدا السيد بتشر والسيدة ميدلوك. أما السيد كرافن فلن يزعجه أى شىء حين يكون هنا، ونادرًا ما يوجد هنا حيث إنه كثير الأسفار. وقد أعطتنى السيدة ميدلوك الوظيفة هنا عطفًا منها علىّ، وأخبرتنى بأنها لم تكن لتستطيع فعل ذلك الأمر لو أن مسيلثويت كان مثل البيوتات الضخمة الأخرى".

فسألتها مارى، ومازالت تتصرف بطريقتها المتغطرسة التى كانت تتبعها فى الهند: "هل ستكونين خادمتى؟".

بدأت مارثا فى مسح قضبان المدفأة ثانيةً.

"أنا خادمة السيدة ميدلوك. والسيدة ميدلوك خادمة السيد كرافن. ولكننى أقوم بما تقوم به الخادمات هنا، ويمكننى خدمتك من حين لآخر. ولكنك لن تحتاجى الكثير من الخدمة".

فقالت مارى آمرةً: "إذًا فمن سيساعدنى فى ارتداء ملابسى؟".

جلست مارثا على كعبيها ثانية وحدقت فى مارى، ثم تساءلت مندهشة بلهجة يوركشاير الفظة:

"ألا تستطيعين أن ترتدى ملابسك بمفردك؟!".

فقالت مارى:

"ماذا تقصدين؟ لا يمكننى فهم لغتك".

فقالت مارثا:

"آه .. لقد نسيت. إن السيدة ميدلوك أخبرتنى بأن أحترس عند الكلام معك، وإلا فلن تفهمى ما أقول. أقصد أنك لا تستطيعين ارتداء ملابسك بمفردك؟".

فأجابت مارى بغضب:

"كلا .. لم أفعل ذلك قط طوال حياتى. كانت مربيتى هى المسؤولة عن هذا بالطبع".

فقالت مارثا، بوضوح وبعدم اكتراث إذ كان أسلوبها وقحًا:

"حسنًا .. لقد حان الوقت لتتعلمى أن ترتدى ملابسك بمفردك. لم تعودى صغيرة. وسيكون هذا بداية لتعرفى كيفية خدمة نفسك. فقد كانت أمى تقول دائمًا أنها لا تعرف لم لا يتحول أبناء الطبقة الأرستقراطية إلى حمقى — حيث تخدمهم المربيات عند الاستحمام، وارتداء الملابس، وتمشيتهم خارج البيت، كما لو كانوا جراءً صغيرة".

فقالت السيدة الصغيرة؛ مارى، بازدراء: "الأمر مختلف فى الهند". ولم تعد تطيق ذلك النقاش.

لكن مارثا لم تلق للأمر بالاً على الإطلاق.

وردت عليها مارثا بإشفاق:

"أعرف أن الأمر مختلف هناك، كما يمكننى القول بأن هذا يرجع لوجود الكثيرين من السود هناك بدلاً من البيض المبجلين، حتى إننى حين سمعت بقدومك من الهند، اعتقدت أنك سوداء مثلهم".

جلست مارى فى سريرها وقد استشاطت غيظًا، وقالت منفعلة:

"ماذا! .. ماذا! .. هل اعتقدت أننى من المحليين يا ابنة الخنازير؟".

نظرت إليها مارثا وبدا عليها الغضب، وقالت:

"من التى تنابينها هكذا؟ لا ينبغى أن تستثارى إلى هذا الحد. ليس هذا أسلوب فتاة شابة فى الحديث. ليس لدى أى شىء تجاه الزنوج. حين تقرئين عنهم فى بعض المنشورات ستعرفين أنهم دائمًا متدينون جدًا. فأنت دائمًا تقرئين هذا الشعار.أسود حتى كأنه أخ".. لم أر فى حياتى شخصًا من الزنوج من قبل، وكم كنت سعيدة حين اعتقدت أنه سيمكننى رؤية واحدة من الزنوج عن قرب. وحينما أتيت إلى حجرتك فى الصباح لأشعل نار المدفأة، انحنيت على سريرك، ورفعت عنك الغطاء بحرص لأنظر إليك، وقد رأيتك". ثم قالت بخيبة أمل: "حتى لون بشرتك ليس أغمق من بشرتى، برغم من أن بشرتك صفراء جدًا".

لم تحاول مارى أن تتحكم فى غضبها الشديد واستكبارها، وقالت:

"اعتقدتِ أننى من المحليين! أجرؤتِ على فعل ذلك؟! أنت لا تعرفين أى شىء عن المحليين. إنهم ليسوا بشرًا – مجرد خدم ينحنون لك حين يقدمون التحية. لا تعرفين شيئًا عن الهند. أنت لا تعرفين أى شىء عن أى شىء".

كانت مارى فى شدة الغضب، وشعرت بعدم جدوى غضبها أمام تحديق الفتاة الشابة فيها، وشعرت فجأة بأنها وحيدة جدًا، وبعيدة عن أى شىء تستطيع فهمه، أو أى شىء يستطيع فهمها، لدرجة أنها ألقت بنفسها على السرير، ودفنت وجهها فى الوسائد، وانفجرت فى بكاء مرير. لقد أسرفت فى البكاء حتى أن مارثا، الفتاة اليوركشايرية حسنة الطباع، خافت عليها وشعرت بالأسى تجاهها. واتجهت إلى السرير، وانحنت فوقها، وقالت متوسلةً:

"لا .. لا! ينبغى ألا تبكى هكذا. بكل تأكيد ينبغى ذلك. لم أكن أعرف أنك ستستثارين إلى هذا الحد. فأنا لا أعرف أى شىء عن أى شىء – كما قلتِ. أتوسل إليك يا آنسة أن تتوقفى عن البكاء".

وكان هناك شعور بالراحة، وإحساس حقيقى بالود فى لهجتها اليوركشايرية الفجة، وأسلوبها الغريب الذى كان له عظيم الأثر على مارى. فبدأت تتوقف عن البكاء تدريجيًا، وأصبحت هادئة، فتنهدت مارثا وشعرت بارتياح.

قالت مارثا:

"لقد حان الوقت لتنهضى من الفراش الآن. إن السيدة ميدلوك أخبرتنى بأن أضع الإفطار، والشاى، والعشاء فى الحجرة المجاورة لهذه

الغرفة. وهى بمثابة الحضانة لك. وسأساعدك فى ارتداء ملابسك لو أن هذا سيجعلك تنهضين من الفراش. لو أن الأزرار من الخلف فلن تتمكنى من تزريرها بمفردك".

وحين قررت مارى أن تنهض أخيرًا من السرير، أخذت مارثا من الدولاب بعض الملابس، وكانت غير التى كانت ترتديها مارى حين وصلت فى الليلة السابقة مع السيدة ميدلوك.

قالت مارى:

"هذه الملابس ليست ملابسى. لقد كانت ملابسى سوداء".

أخذت المعطف الصوفى الأبيض السميك، فارتدته، ثم قالت فى نشوة:

"هذه الملابس أفضل من ملابسى".

فقالت مارثا: "هذه هى الملابس التى ينبغى عليك أن ترتديها. فقد أمر السيد كرافن السيدة ميدلوك بأن تجلبها من لندن معللاً ذلك بقوله إنه لا يريد أن يكون لديه طفل يرتدى ملابس سوداء ينتقل هنا وهناك كروح ضائعة. إن هذا سيجعل المكان أكثر حزنًا مما هو عليه. ألبسيها ألوانًا مختلفة. وقالت السيدة بأنها أدركت ما يقصد، فهى تعرف دائمًا ما يقصده أى شخص. كما أن اللون الأسود لا يروق لها".

فقالت مارى:

"وأنا أكره الأشياء السوداء".

وقد علّمت عملية ارتداء الملابس كليهما شيئًا. كانت مارثا تزرر أزرار الملابس لإخوتها البنات والبنين، ولكنها لم تر مطلقًا طفلة تقف ساكنةً فى انتظار من يلبسها ملابسها، وكأنها بلا ذراعين أو قدمين.

وحين وضعت مارى قدمها فى يد مارثا، قالت لها مارثا:

"لِمَ لا ترتدين حذاءك بنفسك؟".

فأجابت مارى:

"لأن مربيتى كانت تقوم بهذا الفعل".

ثم حدقت فيها، وأردفت قائلةً:

"تلك هى العادة!".

كانت تقول ذلك مرارًا – "تلك هى العادة". الخدم المحليون كانوا يقولون ذلك دومًا. لو أن شخصًا ما أخبرهم بأن يفعلوا شيئًا لم يفعله أجدادهم من آلاف السنين، فسينظرون إليه ببرود ويقولون:

"هذه ليست من عادتنا"، وسيعرف هذا المرء أن هذا الأمر هو نهاية ما أراد.

وكانت العادة أن السيدة مارى الصغيرة لم تكن تفعل أى شىء سوى الوقوف ساكنةً ليضعوا عليها ثيابها مثل دمية، ولكن قبل أن تجهز لطعام الإفطار بدأت تشك فى أن حياتها فى ضيعة ميسلثويت ستحتم عليها أن

تتعلم الكثير من الأشياء التى لم تعتدها من قبل – أشياء مثل أن ترتدى الحذاء والجورب بنفسها، وأن تلتقط الأشياء التى سقطت منها. فلو كانت مارثا خادمة شابة مهذبة وذات حسن تصرف، لأدركت أنه كان من الواجب عليها أن تكون أكثر احترامًا ونفعًا، وأنه من الواجب عليها أن تخدمها بتمسيد شعرها، وتزرير أزرار حذائها ذى الرقبة، وأن تلتقط الأشياء وأن تضعها فى المكان المألوف. ولكنها رغم ذلك كانت فتاة ساذجة غير مدربة من يوركشاير، تربت فى بيت ريفى فى البرارى مع حشد من الإخوة والأخوات الصغار، لم يحلموا بشىء قط إلا الانتظار لخدمة أنفسهم، أو خدمة الأصغر منهم، سواء من الأطفال الرضع الذين يحملون على الذراعين، أو الذين يتعلمون المشى ويسقطون فوق الأشياء فى أثناء سيرهم.

ولو أن مارى لينوكس كانت من الأطفال الذين لديهم استعداد للهو، لكان من المحتمل أن تسخر من استعداد مارثا للحديث، ولكن مارى كانت تستمع إليها ببرود، وكانت تندهش من حريتها فى التعبير عما يجول بخاطرها. فى البداية لم تكن تهتم إطلاقًا – ولكن تدريجيًا– وبما أن مارثا كانت تثرثر بطريقة ودية، وكان مزاجها حسنًا، فبدأت مارى تلتفت وتهتم بما تقوله مارثا.

قالت مارثا:

"إيه .. ينبغى عليك أن تشاهديهم جميعًا. نحن اثنا عشر، وأبى يتحصل على ستة عشر شلنًا فى الأسبوع. ويمكننى أن أخبرك أن أمى تعانى كثيرًا

لتحضير عصيدة لهم جميعًا. كانوا يتقافزون عبر البرارى ويلعبون هناك طوال اليوم حتى إن أمى كانت تقول دائمًا إن هواء البرارى يسمنهم. كما كانت تقول بأنها تعتقد أنهم يأكلون من العشب كما تأكل الجياد البرية الصغيرة. أخى ديكون الذى يبلغ من العمر اثنى عشر عامًا، له جواده الصغير الذى يدعى بأنه ملكه".

سألتها مارى:

"من أين حصل عليه؟".

فأجابت مارثا:

"وجده فى البرارى مع أم الجواد، حين كان الجواد صغيرًا، وبدأ فى تكوين صداقة بينه وبين الجواد الصغير، فقد كان يعطيه كسرات من الخبز، ويقتلع الحشائش الصغيرة من أجله ثم يعطيها له. أحبه الجواد الصغير وبدأ يتبعه فى كل مكان، كما سمح له بامتطاء ظهره. إن ديكون شابٌ طيبٌ والحيوانات تحبه".

لم تملك مارى حيوانًا أليفًا قط، وكانت تعتقد دائمًا أنه ينبغى عليها الحصول على أحدها، ولذا بدأت تشعر باهتمام تجاه ديكون، ولأنها لم تكن تهتم بأى أحد من قبل سوى نفسها، فإن هذا الاهتمام بديكون كان بداية لشعور صحى حسن. حين ذهبت إلى الحجرة التى خصصت كحضانة لها، وجدت أنها مثل الغرفة التى تنام فيها. لم تكن غرفة لطفل، بل غرفة شخص بالغ، ذات رسوم قديمة كئيبة على الجدران، وكرسى قديم من السنديان.

أما فى منتصف الغرفة فكانت تقبع مائدة عليها طعام إفطار سخى. ولكن شهيتها كانت دائمًا ضعيفة، فنظرت بلا مبالاة إلى أول الأطباق التى وضعتها مارثا أمامها.

فقالت مارى: "لا أريده".

فقالت مارثا مدهوشة، ويملؤها الشك: "ألا تريدين العصيدة!".

فأجابت مارى: "كلاّ".

فقالت مارثا: "أنت لا تعرفين كم هى لذيذة. يمكنك أن تضعى عليها القليل من دبس السكر أو السكر".

فرددت مارى مقولتها: "لا أريدها".

فقالت مارثا: "إيه .. لا يمكننى أن أرى طعامًا جيدًا يذهب أدراج الرياح. لو أن إخوتى هاهنا الآن لتناولوا كل ما على المائدة وتركوها خالية تمامًا فى خمس دقائق".

فقالت مارى ببرود: "لماذا؟"

فرددت مارى كلمتها: "لماذا! لأنه من النادر أن تمتلئ بطونهم، فمعدتهم دائمًا خاوية مثل الصقور والثعالب الصغيرة".

قالت مارى بلا مبالاة الجهل: "لا أعرف ما معنى أن يكون المرء جوعان".

نظرت إليها مارثا بسخط. وقالت بصراحة:

"حسنًا .. من الأفضل لك أن تجربى. يمكننى رؤية هذا بوضوح. ليس لدى صبر مع أى شخص يجلس ليحدق فى الخبز الجيد واللحم. يا إلهى! كم تمنيت أن ينال ديكون، وفيل، وجين، والإخوة الباقون كل ما هنا ليكون تحت ثياباهم".

فاقترحت مارى: "ولمَ لا تأخذين هذا الطعام إليهم؟".

فأجابت مارثا بجرأة:

"لأنها ليست ملكى. كما أن اليوم ليس يوم خروجى، فاليوم الذى أخرج فيه يكون يومًا واحدًا فى الشهر مثل الباقين. عندئذٍ أذهب إلى البيت وأقوم بالتنظيف لأستريح ولو ليوم واحد".

شربت مارى القليل من الشاى، وأكلت القليل من الخبز المحمص والمربى.

قالت مارثا: "دعينا من هذا الحديث الآن، وهيا لتذهبى إلى الخارج لتلعبى. فإن هذا سيجعلك تشعرين بتحسن كما سيجعل معدتك خاوية لتتناولى اللحم".

ذهبت مارى إلى النافذة. كان هناك الكثير من الحدائق والممرات والأشجار الضخمة، ولكن بدا كل شىء باهتًا وشتويًا.

– "فى الخارج؟ لماذا علىّ أن أذهب إلى خارج البيت فى يوم مثل هذا؟".

– "حسنًا .. إن لم يكن لك رغبة فى الذهاب إلى الخارج، إذًا فعليك المكوث داخل المنزل، ولكن ما الذى ستفعلينه؟".

رمقتها مارى. لم يكن هناك ما يمكنها فعله. حتى إن السيدة ميدلوك لم تفكر فى أن تضع أى وسيلة من وسائل الترفيه حين خصصت لها حجرة كحضانة. ولذا كان من الأفضل لها أن تذهب إلى الخارج لترى كيف تبدو الحدائق.

تساءلت مارى:

– "من سيذهب معى؟".

حدقت فيها مارثا، ثم أجابت:

– "ستذهبين بمفردك .. سيتوجب عليك أن تتعلمى كيف تلعبين مثل بقية الأطفال حين لا يكون لديهم إخوة أو أخوات. فمثلاً ديكون كان ينطلق بمفرده إلى البرارى ويلعب هناك لساعات. وهذا ما جعله صديقًا للجواد الصغير. كما أن هناك أغنامًا فى البرارى تعرفه. وتأتى الطيور لتأكل من يديه. ومع أنه لا يوجد سوى القليل من الطعام، غير أنه كان يدخر فتاتًا من خبزه ليلاطف بها حيواناته الأليفة".

وما إن ذُكر هذا الكلام عن ديكون، حتى قررت مارى الخروج إلى البرية، بالرغم من أنها لم تكن على دراية بها. وسيكون فى الخارج الكثير من الطيور، برغم أنه لن يكون هناك أغنام أو جياد صغيرة. فربما كانت الطيور مختلفة عن الطيور فى الهند، وستستمتع بمشاهدتها.

وجدت مارثا معطفها وقبعتها، وزوجًا من حذاء ذى رقبة سميك. وأرشدتها إلى طريق النزول للطابق السفلى.

قالت مارثا: "إذا مشيتِ فى هذا الطريق فستصلين إلى الحدائق". وأشارت إلى بوابة فى حائط تكسوه الشجيرات، ثمّ: "يوجد هناك الكثير من الأزهار فى فصل الصيف، ولكنك لن تجدى شيئًا مزهرًا الآن". وبدا أنها ترددت للحظة قبل أن تضيف: "إحدى هذه الحدائق مغلقة، ولم يدخلها أحد لعشر سنين".

فتساءلت مارى رغمًا عنها: "لماذا؟"، وقد تبدى لها قفل جديد قد أُضيف إلى مئات الأقفال فى هذا المنزل الغريب.

– "لقد أغلقها السيد كرافن حين ماتت زوجته فجأة، ولم يسمح لمخلوق أن يدخل تلك الحديقة منذ ذلك اليوم. لقد كانت حديقتها. وقد قام بإغلاق بابها ثم حفر حفرة وضع بها المفتاح ليدفنه فيها. هاهو جرس السيدة ميدلوك يدق – يجب أن أسرع إليها".

بعد أن ذهبت مارثا، مشت مارى متجهة إلى الباب فى الحائط المغطى بالشجيرات، ولم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير فى الحديقة؟ السرية التى لم يدخلها أحد منذ عشر سنين. تساءلت: يا ترى كيف تبدو تلك الحديقة، كما تعجبت إن كان ما زال بها بعض الزهور النامية. حين اجتازت البوابة فى الجدار المغطى بالشجيرات وجدت نفسها وسط حدائق عظيمة بها مروج واسعة ومنعطفات للسير، وذات جوانب ثابتة. كانت هناك أشجار، ومروج من الأزهار، ونباتات دائمة الخضرة تتشابك مكونةً أشكالاً غريبة، وبركة كبيرة، فى وسطها نافورة رمادية قديمة. لكن مروج الأزهار كانت قاحلة وشتوية، كما أن النافورة لم تكن تعمل. لم تكن هذه هى الحديقة المغلقة. كيف يمكن غلق حديقة؟، تستطيع دائمًا أن تسير فى الحديقة.

كانت مستغرقة فى التفكير بتلك الأشياء حتى رأت أن – فى نهاية الممر الذى كانت تسير فيه – هناك كما يبدو جدارًا طويلاً، ينمو عليه أشجار اللبلاب. لم تكن قد ألفت إنجلترا بالقدر الكافى بعد، لتدرك أنها قد وصلت إلى الحدائق المخصصة للمطبخ، حيث يزرعون الفواكه والخضروات. مشت صوب الجدار ووجدت أن هناك بابًا أخضر عبر اللبلاب، وكان مفتوحًا. لم تكن هذه هى الحديقة المغلقة – بالتأكيد – ولذا فيمكنها الدخول.

مرت من الباب ووجدت نفسها داخل حديقة مسورة، تحيطها الجدران من كل جانب، وكانت تلك الحديقة واحدة من الحدائق المسوّرة ويبدو وكأن كل واحدة منها تنفتح على حديقة أخرى. رأت بابًا أخضر آخر مفتوحًا، وتظهر منه الشجيرات، والممرات بين مروج الزهور التى تحتوى على خضروات الشتاء. أما أشجار الفاكهة فكانت متراصة فى مواجهة الجدار، وفوق بعض المروج كانت هناك أشكال زجاجية. وقد اعتقدت مارى بأن المكان كان قبيحًا وخاليًا بما يكفى، فتوقفت وتطلعت إلى كل شىء حولها. ربما سيكون هذا المكان أجمل فى فصل الصيف حينما تخضر الأشياء، أما الآن فلا يوجد شىء جميل بها.

فى تلك الأثناء كان هناك رجل مسن يحمل على كتفه جاروفًا، ومشى عبر الباب المؤدى إلى الحديقة الثانية، بدا عليه الروع حين رأى مارى، ثم لمس قبعته ليحييها. كان له وجه مسن، ولم يبد عليه السعادة لرؤيتها هناك – ولكن عندئذ انتابها الغم من حديقته، ولبسها التعبير القديم "مارى عكس الكل"، وبكل تأكيد لم يبد عليها السعادة لرؤيته.

سألته: "ما هذا المكان؟".

فأجاب: "إحدى الحدائق الخاصة بالمطبخ".

فسألته وهى تشير إلى الباب الأخضر الآخر: "وما تلك؟".

فأجاب باختصار: "واحدة أخرى". ثم "يوجد واحدة أخرى على الجانب الآخر من الجدار، أما بستان الفاكهة فيوجد على الجانب الآخر من تلك الحديقة".

فسألت: "هل يمكننى الذهاب إليها؟".

- "لو تحبين ولكن لا يوجد ما يستحق الرؤية الآن".

لم ترد مارى. بل مشت مباشرة عبر الممر المؤدى إلى الباب الأخضر الثانى. وهناك وجدت المزيد من الجدران وخضروات الصيف وأشكالاً زجاجية، ولكن فى الحائط الثانى كان هناك باب أخضر آخر، ولم يكن مفتوحًا. ربما يؤدى هذا الباب إلى حديقة لم يدخلها أحد منذ عشر سنين. وحيث إنها لم تكن طفلة جبانة، بل كانت تفعل كل ما تريد فعله، ذهبت مارى إلى الباب الأخضر، وعالجت المقبض لتفتحه. تمنت ألا يُفتح الباب لأنها أرادت التأكد من أنها قد وصلت إلى الحديقة العجيبة - لكن الباب انفتح بسهولة وعبرته، ووجدت نفسها فى بستان الفاكهة. وكانت تحوطه الجدران أيضًا، وتصطف أمامها الأشجار، كما كان يوجد أشجار فاكهة خالية تمامًا من الثمار، وتنمو بين الحشائش الشتوية البنية، ولكن لم يكن هناك باب أخضر آخر فى أى مكان منها. بحثت مارى عن باب أخضر آخر، ومع ذلك فحين دخلت فى الجزء البعيد عن الباب، لاحظت أن الحائط يبدو وكأنه لا ينتهى ببستان الفاكهة، ولكنه يمتد إلى ما وراء ذلك، حتى وكأنه

يحيط بمكان على الجانب الآخر. كانت ترى قمم الأشجار من فوق الجدار، وحين وقفت ساكنةً رأت طائرًا أحمر الصدر يقف على أعلى فرع من فروع الشجرة، وفجأة بدأ يغنى أغنيته الشتوية، وكأنه رآها وبدأ ينادى عليها.

توقفت لتستمع إليه. منحها صفيره الصغير المرح والود وإحساسًا بالسعادة - حتى إن فتاة صغيرة سيئة الطباع ربما تكون وحيدة، وذاك البيت الضخم المغلق، والبرارى الكبيرة القاحلة، والحدائق الكبيرة الخالية من الأزهار جعلت فتاة مثلها تشعر وكأنه لا يوجد أحد بالعالم سواها. فلو كانت طفلة رقيقة المشاعر، اعتادت أن يحبها الجميع، لكان قلبها سينفطر، ولكن رغم ذلك كانت "ماري عكس الكل". لقد كانت مكتئبة، ولكن الطائر الصغير ذا الصدر اللامع قد جلب إلى وجهها البائس نظرة تشبه البسمة. ظلت تنصت له إلى أن طار بعيدًا. لم يكن مثل الطيور الهندية، كما أنها أحبته، وتساءلت إن كان من الممكن أن تراه ثانيةً. ربما يعيش فى الحديقة الغريبة، ويعرف كل شىء عنها.

ربما كان هذا لأنها لم يكن لديها ما تفعله لدرجة أن كل تفكيرها كان منصبًّا على الحديقة المهجورة. كانت تشعر بالفضول تجاهها، وتريد أن ترى كيف تبدو تلك الحديقة. لمَ دفن السيد أرتشيبالد كرافن المفتاح؟ إذا كان يحب زوجته إلى هذا الحد، فلِمَ يكره حديقتها؟ وتساءلت إن كان يمكنها فى يوم من الأيام أن تراه، ولكنها كانت تعرف أنها إن رأته فلن تحبه، وأنها ستقف أمامه لتحدق فيه، ولن تقول كلمة، برغم أنها تريد بإلحاح أن تسأله لِمَ فعل هذا الشىء الغريب.

فكَّرتْ "إن الناس دائمًا لا يحبوننى، كما أننى لا أحبهم". ثمّ: "كما لا يمكننى أن أتحدث مثلما يتحدث أطفال كراوفورد. لقد كانوا دائمى التحدث، والضحك، ويصنعون الكثير من الضوضاء".

فكرت فى طائر أبى الحناء، وفى طريقة غنائه أغنيته لها. ولأنها تذكرت قمة الشجرة التى كان يجثم عليها، توقفت فجأة فى طريقها، ثم قالت لنفسها: "أعتقد بأن تلك الشجرة موجودة فى الحديقة السرية – أنا على يقين بهذا. فإن المكان محاط بالأسوار من كل جانب ولا يوجد أى باب".

مشت عائدةً إلى أول حديقة دخلت إليها، ووجدت الرجل المسن يعزق فيها. ذهبت إليه ووقفت بجواره، وراقبته للحظات بطريقتها الباردة. لم يلحظها الرجل، وفى النهاية تحدثت إليه قائلةً:

– "لقد كنت فى الحديقة الأخرى".

– "لم يوجد ما يمنعك من ذلك". أجابها بقسوة.

– "دخلت إلى بستان الفاكهة".

– "لا يوجد كلب على الباب ليعضك".

– "لم يكن هناك باب آخر ليقودنى إلى الحديقة الأخرى".

– "أى حديقة؟" قالها الرجل بصوته الخشن، ثم توقف عن عزق الأرض للحظة.

فقالت الآنسة مارى: "الحديقة الموجودة على الجانب الآخر من السور. يوجد هناك أشجار – لقد رأيت قممها. كما أن طائرًا بصدر أحمر كان يقف على قمة أحدها ويغنى": ولدهشتها فإن وجه الرجل المسن الفظ الذى دارت عليه دائرة الأزمان تغير تعبيره كليةً. انفردت على هذا الوجه ابتسامة كبيرة ببطء، وبدا البستانى مختلفًا تمامًا. جعلها هذا الأمر تعتقد إلى أى مدى يكون الإنسان أكثر لطفًا ورقةً حين يبدو مبتسمًا. لم تلحظ هذا الأمر من قبل.

التفت إلى الجانب الذى به بستان الفاكهة، ثم بدأ يُصفر – صفيرًا رقيقًا وهامسًا. ولم تفهم كيف يمكن لرجل فظ مثله أن يصدر عنه مثل هذا الصوت اللطيف. وفى اللحظة التالية حدث شىء رائع. سمعت صوت طائر محلق اندفع فى الهواء مسرعًا إليهم – وكان هو الطائر ذو الصدر الأحمر – وحط بالفعل على كتلة الطين المجاورة لقدم البستانى.

ضحك الرجل المسن وقال: "ها هو ذا!"، ثم بدأ يتحدث مع الطائر وكأنه يتحدث مع طفل صغير.

قال البستانى: "أين كنت أيها الشحاذ الصغير ذو الخدين الممتلئين. لم أرك قبل اليوم. هل بدأت غناءك مبكرًا هذا الموسم؟ أنت مغرور جدًا". أمال الطائر رأسه الدقيق على أحد الجانبين، ونظر لأعلى إليه بعينيه الرقيقتين المشرقتين، والتى بدتا كقطرتى ندى سوداوين. بدا الأمر كأنه مألوف، ولا يوجد أى شىء ليخيفه. تقافز الطائر وبدأ ينقر التربة برشاقة باحثًا عن البذور والحشرات. وبالفعل أحست مارى بإحساس غريب ينتاب قلبها، لأنه

كان طائرًا جميلاً جدًّا، ويبعث على البهجة، ويبدو كأنه إنسان. كان له جسم ضئيل- لكنْ ممتلئ- ومنقار دقيق، ورجلان نحيلتان دقيقتان.

تساءلت ماري بصوت هامس: "هل يأتي إليك دائمًا حين تناديه؟".

فأجاب البستاني: "نعم، يلبي النداء. أعرفه منذ أن كان فرخًا صغيرًا. خرج من العش في الحديقة الأخرى، وحين طار لأول مرة فوق السور، كان ضعيفًا جدًّا لدرجة أنه لم يستطع الطيران ليعود إلى عشه ثانية لأيام قلائل، وأصبحنا أصدقاء. وحين طار ثانية فوق السور وجد أن الأفراخ الأخرى قد غادرت، وتركته وحيدًا، فعاد ثانيةً إليَّ".

سألته ماري: "أي نوع من الطيور هذا الطائر؟"

فأجابها البستاني: "ألا تعرفين؟ إنه أبو الحنّاء ذو الصدر الأحمر وفصيلته هي أكثر الطيور فضولاً وصداقةً للبشر. هي ودودة تمامًا مثل الكلاب – لو علمتِ كيف تتعاملين معها. انظري إليه وهو ينقر الأرض هناك وينظر إلينا من حين لآخر. يعرف أننا نتحدث عنه". وكان أغرب شيء يمكنها أن تراه في هذا العالم هو ذاك البستاني العجوز. لقد كان ينظر إلى الطائر الصغير الممتلئ الجسم، والذي يميل لون وسطه إلى اللون القرمزي كما لو أنه فخور ومعجب به.

قال البستاني ضاحكًا: "إنه طائر مغرور. يحب أن يسمع حكايات العامة عنه. كما أنه فضولي – ليباركني الرب، لم أر مطلقًا أحدًا بمثل

فضوله. يأتى دائمًا ليرى ما أزرعه. كما أنه يعرف كل الأشياء التى لا يشغل السيد كراقن بها باله. إنه رئيس البستانيين". تقافز الطائر هنا وهناك منشغلاً بنقر التربة، ومن حين لآخر يتوقف لينظر إليهم قليلاً. ظنت مارى أن عين الطائر التى تشبه قطرة ندى سوداء تحدق فيها بفضول كبير. بدا حقًّا وكأنه يريد أن يكتشف كل شىء عنها. ازداد الشعور الغريب فى قلبها.

سألته مارى: "إلى أين طار بقية الصغار؟".

فأجاب البستانى: "لا أحد يعرف. إن الطيور الأكبر سنًّا أجبرتها على ترك العش وممارسة الطيران، وقد تفرقت قبل أن تتعرفى عليها. أما هذا الطائر فإنه ذكى ويعرف أنها تركته وحيدًا".

خطت الآنسة مارى خطوة لتقترب من طائر أبى الحناء، وسددت إليه نظرة قوية جدًّا وفاحصة. ثم قالت: "إننى وحيدة".

ولم تعرف من قبل أن هذا هو أحد الأشياء التى جعلتها تشعر بالحزن والغضب. ويبدو أنها اكتشفت هذا الشعور حينما نظر إليها طائر أبى الحناء، وحينما نظرت إليه. سحب البستانى المسن قبعته للخلف على رأسه الأصلع، وحملق لدقيقة.

سألها البستانى: "هل تشعرين بشىء من الحزن لتركك الهند؟" فأومأت مارى برأسها إيجابًا.

فقال البستانى: "لا عجب عندئذ من شعورك بالوحدة. ولم تكونى لتشعرى بالوحدة من قبل". بدأ العزق ثانيةً، ويضغط على جاروفه فى التربة السوداء الخصبة فى حين أن طائر أبى الحناء يتقافز من هنا لهناك مشغولاً بعمله.

تساءلت مارى: "ما اسمك؟".

توقف ليرد عليها: "بن وذرستاف" ثم أضاف بفظاظة غريبة: "أنا نفسى وحيد فيما عدا الوقت الذى يكون معى فيه". ولوح بإبهامه تجاه أبى الحناء، ثم: "إنه صديقى الوحيد".

قالت مارى: "ليس لى أى أصدقاء. لم يكن لى قط أصدقاء. مربيتى لم تكن تحبنى ولم ألعب مع أحد".

كانت من عادات يوركشاير أن تقول ما يدور بخلدك بوضوح متبلد، وكان بن وذرستاف المسن واحدًا من رجال برارى يوركشاير.

قال لها: "نحن- الاثنين متشابهان. لقد نُسجنا من القماش نفسه. فليس منا من يبدو حسن المظهر، وكلانا كريه كما يبدو. لنا نفس المزاج السيئ، كلانا. أراهن على ذلك".

كان هذا الكلام بسيطًا وواضحًا، ولم تسمع مارى من قبل الحقيقة عن نفسها طوال حياتها. كان الخدم المحليون دائمًا ينحنون، ويستسلمون لها مهما فعلت بهم. لم تفكر كثيرًا فيما قد تبدو عليه، ولكنها تعجبت لو أنها غير جذابة مثل بن وذرستاف، كما تعجبت لو أنها تبدو قبيحة مثلما كان يبدو

قبل أن يأتى طائر أبى الحناء. وبدأت تتساءل متعجبةً كما هو أنها سيئة المزاج. وشعرت بعدم ارتياح.

وفجأة صدر صوت ضعيف رقراق وواضح بجوارها فالتفتت حولها. كانت تقف على بعد قدم من شجرة تفاح صغيرة، أما أبو الحنّاء فقد طار ووقفِ على أحد أفرعها، وبدأ يغنى مقطوعةً من أغنيته. فانطلق بن وذرستاف فى ضحكه فى الحال.

تساءلت مارى: "ماذا فعل من أجل هذا؟".

فرد عليها: "لقد اختار أن يكوّن صداقة معكِ" ثم أضاف: "فلتثكلنى أمى لو أنه لم يربط نفسه بكِ".

قالت مارى: "بى؟" واتجهت نحو الشجرة الصغيرة بهدوء، ونظرت لأعلى.

قالت لطائر أبى الحناء: "هل تسمح لى بأن نكون أصدقاء؟". تكلمت معه كما لو أنها تتكلم مع شخص "هل ستسمح بصداقتنا؟" ولم تقل تلك الكلمات بصوت عالٍ، أو أجش، أو بصوتها الآمر كما كانت فى الهند، ولكن بصوتٍ رقيق، تواق، لطيف حتى إن بن وذرستاف كان مدهوشًا كما كانت مدهوشة حين سمعته يُصفِّر.

فصاح فيها البستانى: "لمَ قلتِ هذا كما لو كنت إنسانة لطيفة كطفلة حقيقية بدلاً من صوتك الآمر كامرأةٍ عجوز. لقد قلتها كما يتحدث ديكون مع كائناته البرية فى البرارى".

فسألته مارى: "هل تعرف ديكون؟" والتفتت إليه سريعًا.

فأجاب: "الكل يعرف ديكون. فهو يتجول فى كل الأنحاء. حتى إن أشجار التوت الأسود ونباتات الخلنج تعرفه. أراهن على أن الثعالب تريه أين تمكث جراؤها، وطيور القبرة لا تُخفى عنه أعشاشها".

أحبت مارى أن تسأل المزيد من الأسئلة. فقد كان عندها حب استطلاع شديد عن ديكون بنفس درجة فضولها بخصوص الحديقة السرية. ولكن فى هذه اللحظة بالضبط قام طائر أبو الحناء - الذى كان قد أنهى أغنيته لتوه - بهز أجنحته قليلاً، ثم فردها وطار مبتعدًا. لقد قام بزيارتهم ولكن مازال أمامه المزيد من الأشياء ليقوم بها.

فصاحت مارى وهى تراقبه: "لقد طار من فوق السور. لقد طار إلى بستان الفاكهة. وطار عبر الحائط الآخر إلى الحديقة التى ليس لها أبواب".

فقال بن المسن: "إنه يعيش هناك. وخرج من البيضة هناك. كما أنه يحاول أن يواعد أنثى شابة من طيور أبى الحناء تعيش فى أشجار الورد القديمة هناك".

قالت مارى: "أشجار الورد .. هل يوجد هناك أشجار ورد؟".

أخذ بن وذرستاف جاروفه ثانية، وبدأ يعزق الأرض. وغمغم قائلاً:

"كان هناك أشجار الورد منذ عشر سنين مضت".

فقالت مارى: "أود رؤيتها. أين الباب الأخضر؟ بالتأكيد هناك باب فى مكان ما".

دفع بن جاروفه عميقًا داخل الأرض، وبدا غير ودود كما رأته أول الأمر. ثم قال:

"كان هناك باب منذ عشر سنين مضت، أما الآن فلا يوجد أبواب".

فصاحت مارى: "لا يوجد أبواب؟ كيف ذلك؟ بالتأكيد هناك باب".

"لا يوجد أبواب حيث لا يمكن لأى أحد أن يجد بابًا، كما أن هذا الأمر لا يخص أى فرد. لا تكونى مصدرًا للمتاعب، ولا تتدخلى فيما لا يعنيك. والآن، يجب علىّ أن أُنهى عملى. عليك باللعب بعيدًا عنى الآن، فلم يعد عندى وقت لأضيعه معك".

وبالفعل توقف عن العزق، ووضع جاروفه على كتفه، ثم مشى بعيدًا، دون أن يلتفت إليها، ودون أن يودعها بـ "إلى اللقاء".

الفصل الخامس

بكاء في الممر

فى البداية، كان كل يوم يمر على مارى لينوكس شبيهًا بالأيام التى سبقته. كانت تستيقظ فى الصباح فى حجرتها ذات الجدران المكسوة بنسيج عليه رسوم، وتجد مارثا راكعة على ركبتيها لتصلح نيران المدفأة؛ فى كل صباح كانت تتناول طعام إفطارها فى حجرة الحضانة المخصصة لها، والتى ليس بها ما يُسلى. وبعد كل طعام إفطار كانت تحدق بعيدًا من نافذة الحجرة فى البرارى البعيدة والتى كانت تبدو وكأنها منتشرة فى كل الأرجاء، وتصعد إلى السماء، وبعد أن تحملق لفترة قصيرة، كانت تدرك أنها إن لم تخرج من البيت، فسوف تجلس دون أن تفعل أى شىء – وبهذا كانت تخرج. لم تكن تعرف أن هذا كان أفضل الأشياء التى يمكنها فعلها، ولم تكن تعرف أنها حين بدأت تمشى بسرعة أو حتى تجرى بطول الممرات، وعبر الطريق المشجر، كانت تنشط دورتها الدموية، وكانت تقوى من بدنها، حيث كانت تتصارع مع الريح التى تهب عليها من البرارى. كانت تجرى لتدفئ نفسها، وكانت تكره الرياح التى تندفع إلى وجهها، وتزأر، وتمسك

بها من الخلف كما لو كانت عملاقًا لا تستطيع رؤيته. ولكن نسمات الهواء المنعش الكبيرة التى كانت تهب عليها محملة برائحة زهور الخلنج، كانت تملأ رئتيها بشىء كان مفيدًا لبدنها النحيف، وكان يرسم لونًا أحمر خفيفًا على وجنتيها، ويجعل عينيها الباردتين مشرقتين، فى حين أنها لا تعرف شيئًا من هذا.

ولكن بعد عدة أيام قضتها كليةً خارج البيت، استيقظت ذات صباح وهى تشعر بالجوع، وعندما جلست إلى طعام فطورها، لم تنظر إلى العصيدة بازدراء وتنحها جانبًا، بل أخذت ملعقتها، وبدأت فى الأكل، واستمرت فى أكل العصيدة إلى أن أصبح وعاء الطعام خاليًا تمامًا.

فقالت مارثا: "أنت تشعرين بتحسن هذا الصباح بما يكفى، أليس كذلك؟".

فقالت مارى، وهى تشعر بالدهشة: "للعصيدة مذاق حلو اليوم".

فقالت مارثا: "إنما هو هواء البرارى الذى منحك معدة تريد الطعام. ولكم أنت محظوظة أن يكون لديك ما تقتاتين به جنبًا إلى جنب مع شهيتك. فقد كان فى بيتنا الريفى اثنتا عشرة معدةً، ولكن لا يوجد طعام لنزودهم به. عليك باللعب كل يوم خارج المنزل، وستكتسى عظامك باللحم، ولن يكون جلدك شاحبًا بعد ذلك أبدًا".

فقالت مارى: "ولكننى لا ألعب. ليس معى شىء لألعب به".

فاندهشت مارثا: "لا يوجد ما تلعبين به!" ثمّ أضافت: "إن الأطفال هنا يلعبون بالعصى والأحجار. كل ما يفعلونه هو الجرى هنا وهناك والصياح والنظر إلى الأشياء".

لم تكن مارى تبكى، ولكنها كانت تنظر إلى الأشياء. ولم يكن هناك شىء آخر لتقوم به. كانت تتجول فى الحدائق والبساتين، وتتمشى فى ممرات المنتزه. كانت تبحث عن بن وذرستاف فى بعض الأحيان، وبالرغم من أنها رأته فى مرات عديدة مشغولاً جدًا فى العمل لدرجة أنه ليس لديه وقت لينظر إليها، أو يكون فظا جدًّا معها.

وذات مرة حينما كانت تمشى ذاهبة إليه، حمل جاروفه ومشى مبتعدًا، كما لو كان قد فعل ذلك عمدًا.

كانت تذهب إلى مكان بعينه أكثر من أى مكان آخر. كانت تمشى فى الممر الطويل خارج الحدائق التى تحوطها الأسوار. كانت هناك مروج خالية من الأزهار على كلا الجانبين، وأمام الجدران نما اللبلاب بغزارة. وكان هناك جزء من الجدار تنمو عليه الأوراق الخضراء الداكنة بكثرة عن أى مكان آخر. وبدا وكأن هذا الجزء قد تم إهماله لفترة طويلة. أما الباقى فكان مشذبًا ويبدو منمقًا، ولكن فى هذا الجزء المنخفض من الممشى، لم يشذب على الإطلاق.

بعد أيام قليلة من حديث مارى مع بن وذرستاف، توقفت مارى عن ملاحظة هذا الشىء وتعجبت لمَ هى كذلك. كانت تتوقف فقط وتنظر لأعلى إلى أزهار اللبلاب الطويلة التى تؤرجحها الرياح حين رأت ومضة قرمزية،

وسمعت سقسقة رائعة، وهناك، فى الأعلى على قمة السور كان يجلس طائر أبى الحناء ذو الصدر الأحمر، ويميل للأمام لينظر إليها برأسه الصغير.

فصاحت مارى: "أوه .. أهذا أنت؟ .. أهذا أنت؟"ولم تشعر بغرابة على الإطلاق حين تحدثت إليه، كما لو أنها متأكدة من أنه يفهمها بل وسيرد عليها.

وقد رد عليها. بدأ يغرد، ويسقسق، ويتقافز على السور، كما لو أنه يخبرها بكل الأشياء التى يمكن إخبارها بها. وأحست الآنسة مارى أنها فهمته أيضًا، برغم أنه لم ينطق بكلمة. كانت أفعاله وكأنه يقول:

"صباح الخير! أليست الرياح لطيفة؟ أليست الشمس لطيفة؟ أليس كل شىء رائعًا؟ هيا بنا نحن- الاثنين- لنرقص، ونغنى، ونتقافز. هيا بنا! هيا بنا!".

بدأت مارى فى الضحك، ولأنه كان يتقافز، ويقوم بجولات طيران صغيرة فوق السور، وحيث إن مارى كانت تجرى خلفه، فقد بدت هذه الطفلة النحيلة البائسة الشاحبة القبيحة وكأنها جميلة جدًا للحظة.

صاحت بأعلى صوتها: "إنى أحبك .. إنى أحبك". وهى تعدو هابطة الممشى، وكانت تسقسق وحاولت أن تصفر، ولكنها لم تكن تدرى كيف يمكنها الصفير، ولكن أبا الحناء بدا عليه الرضا، وبدأ يسقسق ويصفر ردًا عليها. وفى النهاية فرد جناحيه، وطار برشاقة إلى أعلى الشجرة؛ حيث جلس ثم بدأ الغناء بصوت مرتفع.

كل هذا ذكَّر مارى بأول مرة رأته فيها. كان يتنقل من مكان إلى آخر على قمة الشجرة حينما كانت واقفة فى بستان الفاكهة. والآن هى تقف على الجانب الآخر من بستان الفاكهة، وتقف فى ممر خارج السور – ينخفض لأسفل كثيرًا – وكانت نفس الشجرة تبدو من داخل الأسوار.

فقالت لنفسها: "إن هذه الشجرة بداخل الحديقة، ولا يمكن لأحد أن يدخلها". ثم أردفت: "إنها الحديقة التى بلا أبواب. يعيش بداخلها. كيف يمكننى أن أرى كيف تبدو من الداخل!".

هرعت صاعدة المشى المؤدى إلى الباب الأخضر الذى دلفت منه فى أول صباح لها هناك. ثم جرت هابطة الممر عبر الباب الآخر ثم إلى البستان، وحين توقفت ونظرت لأعلى كانت الشجرة هناك على الجانب الآخر من السور، وكان أبو الحناء هناك قد أنهى أغنيته لتوه، وبدأ فى تسوية ريشه بمنقاره.

فقالت لنفسها: "إنها الحديقة. أنا متأكدة، إنها هى".

تجولت متفحصة هذا الجزء من سور البستان جيدًا، ولكنها لم تجد غير ما وجدته من قبل – إنه لا توجد أبواب فى هذا السور تؤدى إلى الحديقة. ثم جرت ثانيةً عبر حدائق الخضروات خارجة إلى المشى خارج السور الذى تغطيه أشجار اللبلاب الطويلة، ومشت إلى نهاية السور ثم نظرت إليه، ولكن لم يكن هناك أى أبواب. بعدئذٍ ذهبت إلى الجانب الآخر، متفحصةً ثانيةً، ولكن لم يكن هناك أى أبواب.

فقالت: "يا له من شيء غريب. لقد قال بن وذرستاف بأنه لا توجد أبواب، ولا توجد بالفعل أبواب. ولكن بكل تأكيد كان هناك باب من عشر سنين مضت، لأن السيد كرافن دفن المفتاح".

كان هذا الأمر يشغل كل تفكيرها، لدرجة أنها كانت تشعر بالإثارة، ولم تعد تأسف أنها أتت لتعيش فى ضيعة مسيلثويت. كانت فى الهند تشعر دائمًا بالحرارة وبالفتور الشديدين لدرجة أنها لم تكن تهتم كثيرًا بأى شيء. لكن الحقيقة أن رياح البرارى المنعشة بدأت تهب لتطرد خيوط الوهن من عقلها الصغير لتستيقظ قليلاً. كانت تمكث خارج البيت طوال اليوم تقريبًا، وحين كانت تجلس إلى وجبة العشاء فى المساء كانت تشعر بالجوع، وبالنعاس، وبالراحة. ولم تكن تشعر بالغضب حين تسمع ثرثرة مارثا. بل أحست أنها تحب الإنصات لها، وفى النهاية أحست بأنها ستسألها سؤالاً. سألتها السؤال بعد أن تناولت وجبة العشاء، وبعد أن جلست على سجادة المدفأة أمام النار. فسألتها:

"لماذا يكره السيد كرافن الحديقة؟".

لقد جعلت مارثا تبقى معها، ولم تمانع مارثا على الإطلاق. لقد كانت مارثا صغيرة جدًا، وكانت معتادة على العيش فى بيت ريفى مزدحم بالإخوة والأخوات، ووجدت الحياة كئيبة فى رواق الخدم بالطابق السفلى؛ حيث يتهكم الخادم ورئيسة الخدم على لهجة حديثها اليوركشايرية، وكانوا ينظرون إليها على أنها شيء صغير عادىّ، وقد كانوا يجلسون ويتهامسون عليها. كانت مارثا تحب التحدث، وقد كانت الطفلة الغريبة التى عاشت فى الهند بين الزنوج شيئًا جديدًا بدرجة تكفى لتجذب انتباهها.

جلست على السجادة أمام المدفأة دون أن تنتظر أن يُطلب منها ذلك. سألتها: "أما زلت تفكرين فى الحديقة حتى الآن؟ أعرف أنك ما زلت تفكرين فيها، فقد حدث معى الشىء نفسه حين ذُكرت لى لأول مرة".

فسألتها مارى بمثابرة: "لماذا يكرهها؟".

زمّت مارثا قدميها أسفل منها، وأراحت نفسها قليلاً، ثم قالت:

"أنصتى لزئير الرياح خارج المنزل". ثم أضافت: "لا يمكنك الوقوف فى البرارى إذا خرجتِ فى الليل".

لم تفهم مارى ماذا تقصد بكلمة "زئير" حتى أنصتت، وبعدها فهمت. من المؤكد أنها تعنى ذلك الصوت الأجوف المرعب الذى يتدافع حول المنزل من كل مكان، كما لو أن العملاق الذى لا يمكن لأحد أن يراه يستعملها فى قرع الجدران والنوافذ ليحاول اقتحام البيت. ولكنها تعرف أنه لن يمكنه الدخول، وبطريقة ما كان هذا يُشعرها بالأمان، والدفء داخل حجرة بها نيران حمراء منبعثة من مدفأة الفحم.

بعد أن أنصتت مارى، سألتها ثانية: "ولكن لم يكرهها إلى هذا الحد؟". وكانت تصر على معرفة إن كانت مارثا تعرف السبب. وهنا توقفت مارثا عن سرد أى معلومة إضافية، قائلة:

"عذرًا. لقد قالت السيدة ميدلوك إن هذا الموضوع لا يجب أن يتحدث فيه أحد. هناك الكثير من الأشياء فى هذا المنزل التى لا يمكن للمرء أن يتحدث فيها. هذه هى أوامر السيد كرافن. حيث يقول دائمًا إن متاعبه

لا دخل للخدم فيها. وبدون الحديقة لم يكن ليصير على ما هو عليه الآن. فهذه الحديقة كانت حديقة السيدة كرافن التى زرعتها بنفسها فى بداية زواجهما، وقد أحبتها كثيرًا، وقد اعتادا أن يعتنيا بالأزهار فيها بأنفسهما. ولم يُسمح لأحد من البستانيين قط بأن يدخلها، فقد اعتادا أن يدخلا الحديقة معًا، وأن يُغلقا عليهما الباب لساعات وساعات، يقرآن ويتحدثان. وكانت السيدة كرافن مازالت شابة صغيرة، وكانت هناك شجرة كبيرة مُعمّرة، ولها أحد الأفرع على شكل مقعد، وقد جعلت الأزهار تنمو على هذا الفرع، وكانت تحب الجلوس عليه. ولكن ذات يوم كانت تجلس على الفرع فانكسر، وسقطت على الأرض، وأصيبت بشدة لدرجة أنها ماتت فى اليوم التالى. اعتقد الأطباء حينها أنه سيفقد عقله، بل وسيموت أيضًا. ولذا فهو يكره تلك الحديقة، ولم يدخلها أحد قط منذ ذلك اليوم، ولن يسمح لأحد بالخوض فى حديث يتعلق بها".

لم تسأل مارى مزيدًا من الأسئلة. بل نظرت إلى النيران الحمراء واستمعت لزئير الرياح. ويبدو أنها تزأر أكثر من ذى قبل.

وفى تلك اللحظة، كان هناك شىء جيد يحدث لها. فى الواقع حدث أربعة أشياء حسنة لها منذ أن أتت إلى ضيعة مسيلثويت. فقد شعرت كأنها تستطيع فهم طائر أبى الحناء، وأنه يمكنه فهمها. وقد جرت فى الرياح حتى شعرت بدمها يملؤه الدفء. وقد بدأت تشعر بالجوع الصحى لأول مرة فى حياتها. واكتشفت معنى الإحساس بأن تشعر بالأسى من أجل شخص ما. وقد استطاعت التأقلم والعيش هناك.

ولكن فى أثناء استماعها للرياح، بدأت تصغى لصوت آخر. لم تكن تعرف ما هو؛ لأنه فى البداية كان يختلط بصوت الرياح، وكان من الصعب تمييزه. كان صوتًا يثير الفضول– كان مثل صوت طفل يبكى فى مكان ما. فى بعض الأحيان يكون صوت الرياح كصوت طفل يبكى. ولكن فى هذه اللحظة شعرت مارى بكل يقين أن هذا الصوت من داخل المنزل، وليس من الخارج. لقد كان الصوت بعيدًا، ولكنه من داخل المنزل. التفتت ونظرت إلى مارثا.

سألتها: "هل تسمعين أحدًا يبكى؟".

ارتبكت مارثا فجأة. ثم قالت: "لا. إنها الريح. فى بعض الأحيان تبدو وكأنها شخص تاه فى البرارى وينتحب. إن بالريح كل أنواع الأصوات".

فقالت مارى: "ولكن أنصتى جيدًا. إن هذا الصوت من داخل المنزل – فى الأسفل، فى واحد من تلك الردهات".

وفى هذه اللحظة بالضبط، من المؤكد أنه فُتح باب فى مكان ما بالطابق السفلى، حيث كان هناك شىء يسحب بسرعة فى الأسفل بطول الممر، حتى إن باب الغرفة التى كانتا تجلسان فيها انفتح وأحدث صوت ارتطام، وحين هبتا من الذعر انطفأ نور الغرفة، وبدا الصوت الباكى يُجر إلى الرواق البعيد، حتى إن الصوت كان يُسمع بوضوح أكبر من ذى قبل.

قالت مارى: "هناك. لقد أخبرتك بهذا! هناك شخص يبكى – وهذا الشخص ليس شخصًا بالغًا".

أسرعت مارثا لإغلاق الباب، وأدارت المفتاح، ولكن قبل أن تفعل هذا، كانتا قد سمعتا صوت باب فى الرواق البعيد يُغلق بعنف، وبعدها صار كل شىء هادئًا، لدرجة أن الرياح خففت من زئيرها للحظات قليلة.

فقالت مارثا بعناد: "لقد كان صوت الرياح. وإن لم يكن الصوت صوت الرياح، فبتأكيد صوت بيتى بتروورث الصغيرة، خادمة غسل الأطباق. فقد كان عندها ألم بالأسنان طوال اليوم".

ولكن شيئًا ما أربكها وحيرها فى أسلوبها لدرجة جعلت الآنسة مارى تحدق إليها كثيرًا. ولم تصدق أن مارثا كانت تقول الحقيقة.

الفصل السادس

هناك من يبكى .. هناك من يبكى ..

فى اليوم التالى، انهمرت الأمطار كالسيول، وعندما نظرت مارى من النافذة، كانت الغابة تقريبًا مختفية خلف الضباب والسحب الرمادية. ويبدو أنه لن يستطيع أحد الخروج من منزله ذلك اليوم.

سألت مارِى: "ماذا تفعلون فى كوخكم عندما تمطر هكذا؟".

أجابت مارثا: "نختبئ تحت بعضنا فى معظم الأحوال، ياه! نشعر بكثرتنا ساعتها. أمى تستطيع التحكم فى انفعالاتها، ولكنها تبتئس قليلاً. يذهب الكبار إلى سقيفة الأبقار ويلعبون هناك. ولا يكترث ديكون بالبلل. يخرج وكأن الجو صحو. يقول إنه يرى الأشياء مختلفة تحت المطر عنها فى الطقس المعتدل. وجد مرة ثعلبًا صغيرًا شبه مختبئ بجحره فأحضره إلى البيت فى صدر قميصه ليبقيه دافئًا. كانت أم الثعلب قد ماتت قبلها والجحر

مغمور بالمياه وبقية إخوة الثعلب كانوا قد ماتوا. إنه معه الآن فى البيت. فى مرة أخرى وجد غرابًا نصف مبلل فأحضره إلى البيت أيضًا وروضه. سمى سوت لأنه كان حالك السواد، وهو يحجل ويطير معه فى كل مكان.

مر الوقت ولم تجد مارى استياءها من حديث مارثا المعتاد. بل إنها بدأت تشعر بأن حديثها شائق وتحزن عندما تتوقف عن الحكى أو عندما تذهب. ما كانت تحكيه لها مربيتها فى الهند يختلف تمامًا عما تحكيه مارثا عن حياة البرارى والكوخ الذى يسكنه أربعة عشر شخصًا فى أربع غرف صغيرة ولم يجدوا القوت الكافى يومًا. يلعب الأطفال هنا وهناك ويسلون أنفسهم مثلما يفعل صغار الكلاب الأسكتلندية البرية. انجذبت مارى كثيرًا للحديث عن الأم وديكون. عندما كانت مارثا تحكى عما تقوله أو تفعله أمها كانت مارى دائمًا تشعر بارتياح.

قالت مارى: "لو كان عندى غراب أو ثعلب صغير لكنت لعبت معه، لكن ليس عندى شىء".

بدا الارتباك على مارى.

سألتها : "هل تستطيعين الربط؟".

قالت مارى: "لا".

"هل تستطيعين الخياطة؟".

"لا"

"هل تستطيعين القراءة؟".

"نعم".

"إذن لماذا لا تقرئين شيئًا، أو تتعلمين الهجاء بعض الشىء؟ أنتِ كبيرة بقدر كافٍ وتستطيعين التعلم بشكل جيد الآن".

قالت مارى: "ليس عندى كتب، ما كان عندى تركته فى الهند".

قالت مارثا: "ياللأسف، إن سمحت لك السيدة ميدلوك بالذهاب إلى المكتبة، فهناك الآلاف من الكتب".

لم تسأل مارى عن مكان المكتبة، لأنها واتتها فجأة بفكرة جديدة. فعزمت أمرها أن تذهب وتجد المكان بنفسها. لم تكن منزعجة بشأن السيدة ميدلوك. لأنها كانت دائمًا فى غرفة الجلوس المريحة الخاصة بمديرة المنزل بالطابق السفلى. فى هذا المكان الغريب نادرًا ما ترى أحدًا على الإطلاق. فى الحقيقة لا ترى أحدًا إلا الخدم، وحينما يكون سيدهم فى سفر يعيشون حياة فاخرة تحت الدرج، حيث مطبخ كبير واسع ملىء بالنحاس والأوانى القصديرية اللامعة، مع قاعة واسعة للخدم يؤكل بها أربع أو خمس وجبات وفيرة يوميًا، وحيث المرح الكبير الذى يستمر حينما تغيب السيدة ميدلوك.

كانت وجبات مارى تقدم بانتظام، وكانت مارثا تقوم على خدمتها، لكن لم يشغل أحد نفسه بها على أقل تقدير. كانت تأتى السيدة ميدلوك وتتفقدها كل يوم أو يومين إلا أنه لم يسألها أحد ماذا فعلت أو ماذا عليها أن تفعل. ظنت مارى أنه ربما تلك هى طريقة الإنجليز فى معاملة الأطفال. أما

فى الهند فكانت تلازمها دائمًا مربيتها التى تتبعها دائما وتخدمها على قدم وساق. وكانت فى أغلب الأحيان متعبة من صحبتها، أما الآن فلا يتبعها أحد وقد تعلمت أن ترتدى ملابسها بنفسها، وكان يبدو أن مارثا تراها سخيفة وغبية عندما تريد مارى من أحد أن يحضر إليها شيئًا أو يلبسها شيئًا. قالت لها مارثا ذات مرة: "أليس عندك تفكير سليم؟"، حيث إن مارى ظلت منتظرة كى تلبسها مارثا القفازات.

ظلت مارى عابسة بعدها بساعة، لكن ذلك جعلها تفكر فى أشياء متعددة جديدة تمامًا. وقفت أمام النافذة لعشر دقائق ذاك الصباح بعدما كنست مارثا المدفأة للمرة الأخيرة ونزلت إلى الطابق السفلى. كانت تفكر فى تلك الفكرة الجديدة التى راودتها حين سمعت بأمر المكتبة. لم تهتم كثيرًا بأمر المكتبة ذاتها؛ لأنها قد قرأت عددًا قليلاً من الكتب؛ لكن بمجرد السماع عن المكتبة استرجعت فى ذهنها المئة حجرة ذوات الأبواب المغلقة. وتعجبت هل كلها مغلقة بالفعل وماذا ستجد إن أمكنها أن تدخل أيًا منها. وهل هى مئة بالفعل؟، لماذا لا تذهب وترى كم بابًا ستستطيع أن تعد؟، ربما يكون ذلك شيئًا يمكن فعله هذا الصباح بما أنها لا تستطيع الخروج. لم تتعلم قط أن تطلب إذنًا للقيام بشىء، ولا تعرف شيئًا مطلقًا عن معنى السلطة، فلم تر أنه من الضرورى أن تسأل السيدة ميدلوك إن كان مسموحًا لها أن تتمشى فى أرجاء المنزل، حتى لو كانت رأتها.

فتحت باب غرفتها ومشت بالردهة، وبدأت بالتجول. كانت الردهة طويلة جدًا يتفرع منها ردهات أخرى قادتها إلى مجموعة قصيرة من

الممرات أدت إلى بعضها مرة أخرى. كان هناك أبواب وأبواب وكان هناك لوحات على الجدران. أحيانا كانت صورًا لمناظر طبيعية مظلمة تثير الفضول، لكن كان كثير منها صورًا لرجال ونساء فى أزياء كبيرة شاذة مصنوعة من الحرير والقطيفة. وجدت نفسها فى معرض طويل حيطانه مغطاة بهذه الصور. لم تتخيل قط أن توجد صور كثيرة فى منزل كهذه الصور. مشت ببطء فى هذا المكان وهى تحدق فى الوجوه التى تبدو كأنها تحدق بها هى الأخرى. شعرت وكأنهم يتعجبون ماذا تفعل فتاة صغيرة آتية من الهند فى بيتهم. كان بعضها صورًا لأطفال - فتيات صغيرات فى فساتين حريرية سميكة وصلت إلى أقدامهن وبرزت عنها، وأولاد يرتدون أكمامًا منتفخة، وياقات برباط، ولهم شعر طويل أو يرتدون أطواقًا كبيرة حول رقابهم. توقفت تنظر إلى الأطفال طويلاً، وتتساءل: ترى ما هى أسماؤهم؟ وأين ذهبوا؟ ولِمَ يرتدون مثل هذه الملابس الغريبة؟ كانت هناك صورة لفتاة صغيرة جادة تشبهها. ترتدى فستانًا أخضر مطرزًا وتحمل ببغاء أخضر اللون على إصبعها.

عيناها ذات نظرة فضولية حادة. قالت لها مارى بصوت مرتفع: "أين تسكنين الآن؟ أتمنى لو أنك كنت هنا".

بالتأكيد لم تقض أى فتاة أخرى مثل هذا الصباح الغريب قط. بدا وكأنه لم يوجد أحد بهذا البيت المشتت إلا تلك الصغيرة وحدها، تتجول فى أعلى الدرجات وأسفلها، خلال ممرات ضيقة وأخرى واسعة، حتى بدا لها أنه لم يمش أحد بهذا المكان قط غيرها. بما أن تلك الحجرات العديدة بنيت، فلابد وأن أناسًا قد عاشوا فيها، إلا أنها تبدو فارغة تمامًا لدرجة أنها

لا تؤمن أنها حقيقية. لم يستمر ذلك حتى قفزت للطابق الثانى وفكرت أن تدير مقبض باب. كل الأبواب كانت مغلقة كما قالت السيدة ميدلوك، لكن فى النهاية وضعت يدها على مقبض وأدارته. شعرت بالخوف للحظة لما استدار المقبض دون أى صعوبة وعندما دفعت الباب فتح ببطء وبثقل. كان بابًا هائلاً يفتح على حجرة نوم كبيرة.

كانت هناك ستائر مطرزة على الحائط، وأثاثات مرصعة كالتى رأتها فى الهند تلف الحجرة. نافذة عريضة بألواح الزجاج المرصصة تطل على البرارى؛ وعلى رف الموقد كانت هناك صورة أخرى للفتاة الصغيرة الجادة التى تحدق بها بفضول أكثر من أى وقت مضى.

قالت مارى: "ربما نامت هنا مرة، إنها تحدق بى حتى إنها تجعلنى أبدو شاذة". بعد ذلك فتحت الكثير والكثير من الأبواب. رأت العديد من الغرف حتى تعبت تمامًا وبدأت تفكر أنهم مئة رغم أنها لم تعدهم. فى كل منها توجد صور قديمة وأقمشة نسيج قديمة شغلت بمناظر غريبة. كانت هناك قطع أثاث غريبة وحلى غريبة فى كل الغرف تقريبًا. وفى إحدى الغرف، التى تشبه حجرة جلوس سيدة، كانت الستائر كلها من القطيفة مطرزة وفى الخزانة يوجد حوالى مئة فيل صغير مصنع من العاج. من مختلف الأحجام بعضها له سائق الفيلة أو المحفات على ظهورها. بعضها كان أكبر من الآخرين وبعضها ضئيل جدًا كأنهم أطفال رضع.

رأت مارى العاج المنحوت بالهند وعرفت كل شىء عن الفيلة. فتحت باب الخزانة ووقفت على مقعد مسند للقدمين وظلت تلعب بها لفترة طويلة

جدًا. وحين تعبت رتبت الفيلة وأغلقت باب الخزانة. فى كل ذلك التجوال عبر الممرات الطويلة والحجرات الفارغة لم تر شيئًا على قيد الحياة؛ لكن فى هذه الغرفة رأت شيئًا. بمجرد أن أغلقت الخزانة سمعت صوت حفيف دقيق. فقفزت ونظرت حولها إلى الكنبة قرب الموقد، حيث يأتى الصوت. وفى ركن الكنبة كانت هناك وسادة، والقطيفة التى غطتها كان بها فتحة، يبرز من هذه الفتحة رأس صغير بعينين مخيفتين.

زحفت مارى عبر الحجرة لتنظر العينين البراقتين كانت عينى فأرة رمادية صغيرة، وقد أكلت فتحة فى الوسادة وصنعت عشًا مريحا هناك. وهناك ستة من الفئران الرضيعة التى تعانقها نائمة بجوارها. إذا لم يوجد أحد على قيد الحياة فى تلك الحجرات المئة فهناك سبعة فئران لا تبدو وحيدة أبدًا. قالت مارى: "إن لم يخافوا لأخذتهم معى".

تجولت لفترة طويلة كافية لتشعرها بالتعب فلم تستطع التجول أكثر من ذلك وعادت. ضلت طريقها مرتين أو ثلاث مرات؛ لأنها انعطفت فى الممر الخاطئ واضطرت أن تتجول أعلى وأسفل حتى وجدت الممر الصحيح؛ وفى النهاية وصلت الطابق الخاص بها ثانية، بالرغم من أنها كانت على مسافة من غرفتها ولم تعرف أين كانت بالضبط.

فقالت : "أعتقد أننى اتخذت منعطفًا خاطئًا مرة ثانية" ظلت واقفة بلا حراك فى مكان يبدو أنه نهاية ممر قصير وقماش النسيج معلق على الحائط. وقالت: "لست أدرى أى طريق أسلك. يا لسكون كل شىء!" وعلى حين هى فى مكانها وبعدما قالت هذا مباشرة كسر ذلك السكون من قبل صوت ما.

صرخة أخرى، لكن ليست كالتى سمعتها الليلة الماضية؛ فقد كانت صرخة قصيرة، صوت أنين طفولة مضطرب كتمه عبوره خلال الجدران. فقالت مارى: "إنه أقرب مما كان وإنه يبكى". وأصبحت ضربات قلبها أسرع. وضعت يدها صدفة على لوحة النسيج المرسوم القريبة، ثم قفزت راجعة وهى تشعر بالذعر.

كانت لوحة النسيج غطاء لباب فلما سقطت أظهر لها جزءًا آخر من الممر خلف هذا الباب، ورأت السيدة ميدلوك قادمة وفى يدها حلقة من المفاتيح ونظرة غضب حادة على وجهها. قالت لها: "ماذا تفعلين هنا؟" وأخذت مارى من ذراعها وسحبتها بعيدًا وقالت: "بماذا أخبرتك؟"

فشرحت لها مارى وقالت: "لقد انعطفت بالممر الخاطئ، لم أكن أدرى أى طريق أسلكه وسمعت بكاء شخص ما".

كانت مارى تكره السيدة ميدلوك تمامًا فى تلك اللحظة، وكرهتها أكثر فى اللحظة التالية.

قالت ربة المنزل: "أنت لم تسمعى شيئًا من هذا القبيل".

"عودى الآن إلى حجرتك وإلا صفعت أذنيك".

أمسكت بذراعها وكانت تدفعها وتسحبها من ممر إلى آخر حتى دفعتها عند باب حجرتها الخاصة.

ثم قالت: "والآن، ابقى حيث قيل لك وإلا فستجدين نفسك محبوسة.

من الأفضل أن يحضر لك السيد معلمة كما قال إنه سيفعل. فأنت تحتاجين عناية قاسية. وأنا قد عملت ما فيه الكفاية". ثم خرجت من الغرفة وأغلقت الباب بعنف خلفها، ذهبت مارى وجلست على بساط الموقد وهى شاحبة ومغتاظة. لم تبكِ لكنها عضت على أسنانها.

وقالت لنفسها: "كان هناك أحد يبكى كان هناك .. كان هناك! "لقد سمعت ذلك مرتين وفى وقت ما ستكشف الأمر. فلقد اكتشفت صفقة عظيمة هذا الصباح. شعرت وكأنها عائدة من رحلة طويلة، وعلى أى حال هى الآن لديها شىء يسليها دائمًا، ولقد لعبت بالفيلة العاجية ورأت الفأرة الرمادية وصغارها فى عشهم فى الوسادة القطيفة.

الفصل السابع

مفتاح الحديقة

مر يومان بعد ذلك، عندما استيقظت ماري قعدت منتصبة على سريرها في الحال، واستدعت مارثا.

"انظري إلى الغابة! انظري إلى الغابة!".

كانت العاصفة الممطرة قد انتهت والضباب والسحب الرمادية أزاحتهما الرياح في الليل. كانت الرياح نفسها قد انتهت وجاءت سماء زرقاء براقة وأظلت أرض الغابة. لم تحلم ماري بسماء زرقاء مطلقًا. السماوات في الهند كانت حارة وملتهبة؛ أما هذه فكانت زرقتها رائقة وصافية وبدت كأنها تتلألأ مثل مياه بحيرة جميلة عميقة. وهناك في الأعلى تناثر في عمق هذه الزرقة سحب صغيرة من الثلج الأبيض. وعالم الغابة المرئي من بعيد بدا نفسه أزرق صافيًا بدلاً من الأرجواني الأسود الكئيب و الرمادي الموحش المخيف.

قالت مارثا بابتسامة فرح: "نعم، العاصفة انتهت لفترة. تكون كذلك فى ذلك الوقت من العام. تختفى فى الليل وتبدو وكأنها لم تأت من قبل ولا تبدو أنها سترجع ثانية. وذلك لأن الربيع فى طريقه إلينا. يتبقى عليه وقت طويل ولكنه فى الطريق".

قالت مارى: "ظننت أن إنجلترا دائمًا ممطرة ومظلمة".

قالت مارثا وهى تجلس على كعبيها وسط فرشها الأسود: "لا، ليس بهذا الشكل".

سألت مارى بجدية: "وماذا يعنى ذلك؟".

فى الهند يتحدث أهلها بلهجة مختلفة لا يفهمها إلا القليل، لذلك لم تندهش عندما استخدمت مارى كلمات لا تعرفها.

ضحكت مارثا كما ضحكت فى الصباح.

قالت: "الآن إذن، تحدثت بلهجة يوركشاير مرة أخرى، وقد نهتنى السيدة ميدلوك عن ذلك. إنها تعنى "لا شىء من هذا القبيل" قالتها ببطء وبعناية، ولكنها استغرقت فى ذلك وقتًا طويلاً.

"تعد يوركشاير أكثر مكان مشمس على الأرض عندما تكون مشمسة. قلت لك إنك ستحبين الغابة بعد حين. فقط انتظرى حتى ترى زهور الجولق الذهبية اللون وزهور الوزال، والخلنج وهو يزهر، وكل الأجراس الأرجوانية، ومئات من الفراشات ترفرف والنحل يدندن وطيور القبرة تحلق وتغرد. سوف تتمنين أن تخرجى إليها عند شروق الشمس وتظلين هناك طوال اليوم مثلما يفعل ديكون".

"هل ذهبت إلى هناك من قبل؟".

قالتها مارى بشغف، وهى تنظر من النافذة للأزرق البعيد. كان منظرًا جديدًا وشاسعًا وكان رائعًا هذا اللون السماوى.

أجابت مارثا: "لا أدرى، يبدو لى وكأنك لم تستخدمى أرجلك منذ ولدتِ. ولم تستطيعى أن تسيرى لخمسة أميال. إن كوخنا يبعد خمسة أميال".

"أحب أن أرى كوخكم".

حدقت فيها مارثا للحظات بفضول قبل أن تلتقط فرشاة التلميع وبدأت تمسح القضبان مرة أخرى. كانت تفكر فى هذا الوجه الصغير الذى لم يكن فظًا وقتها كما كان فى أول صباح رأته فيه. بدا فقط كوجه سوزان آن الصغيرة عندما كانت تريد شيئًا بشدة.

قالت: "سأسأل أمى فى ذلك، إنها من الناس الذين لهم لكل شىء طريق. اليوم إجازتى وسأذهب إلى البيت. إيه! أنا سعيدة. تفكر السيدة ميدلوك كثيرًا فى أمى. ربما ستتحدث إليها".

قالت مارى: "أنا أحب أمك".

فقالت مارثا موافقة وهى تلمع: "أظنك هكذا".

قالت مارى: "لم أرها من قبل".

أجابت مارثا: "لا لم تريها".

وجلست على كعبيها ثانية ومسحت نهاية أنفها بالأسود الذى على يدها وكأنها تحيرت للحظات. ولكنها أنهت بشكل جيد.

"حسنًا، إنها تلك المرأة الحساسة، المجدة فى عملها، النظيفة، ذات الطبيعة الطيبة التى لا يجدها أحد إلا أن يحبها؛ رآها أم لم يرها. عندما أكون فى طريقى للبيت فى يوم إجازتى أقفز فرحًا وأنا أمر عبر الغابة".

أضافت مارى: "أحب ديكون، ولم أره قط".

فقالت مارثا بقوة: "حسنًا، لقد قلت لك إن الطيور تحبه والأرانب والأغنام البرية والخيول القزمة حتى الثعالب أنفسها. أنا أتعجب،" وهى تحدق فيها متأملة، "ماذا سيظن فيك ديكون؟".

قالت مارى بطريقتها الجامدة الباردة: "لن يحبنى. لا أحد يحبنى"

بدت مارثا متأملة ثانية، وتساءلت: "كيف ترين نفسك؟"، تساءلت والفضول جلىٌّ عليها وتود أن تعرف، هنا ترددت مارى للحظة وفكرت بالأمر. ثم أجابت: "ليس تمامًا - حقًّا. لكننى لم أفكر فى هذا من قبل".

ابتسمت مارثا ابتسامتها العريضة قليلاً كأنها فى حالة حنين للوطن وقالت: "ذات مرة قالت لى أمى ذلك، كانت أمى عند حوض الغسيل وأنا كنت فى حالة مزاجية سيئة وكنت أتكلم منتقدة القوم، فاستدارت إلىّ وقالت: "أنت أيتها المشاكسة(*) الصغيرة، يا من يتوقف ويقول لا أحب هذا ولا أحب ذاك، كيف ترين نفسك؟ جعلنى ذلك أضحك وأعادنى إلى رشدى فى لحظة".

(*) young vixen: أنثى الثعلب، وتستخدم أيضًا للدلالة على المرأة المشاكسة أو الضارة.

ذهبت فى نشوة بعد أن أعطت مارى إفطارها. كانت تنتوى السير خمسة أميال عبر الغابة لتصل إلى الكوخ، تساعد أمها فى الغسل وتصنع خبز الأسبوع وتستمتع بوقتها تمامًا.

شعرت مارى بالوحدة أكثر عندما علمت أنها ما عادت فى المنزل. خرجت إلى الحديقة بأقصى سرعة، وكان أول ما فعلت أن تدور وتدور حول النافورة عشر مرات. كانت تعد المرات بعناية، وعندما أتمت العشر شعرت بأن مزاجها تحسن. جعل سطوع الشمس المكان كله مختلفًا. أظلت السماء العالية البالغة الزرقة ميسيلثويت كما كانت تظلل الغابة، ظلت رافعة وجهها عاليًا وناظرة إليها وهى تحاول التخيل ماذا سيكون الأمر لو نامت على سحابة ثلجية بيضاء وطافت. ذهبت إلى حديقة المطبخ الأولى ووجدت بن وذرستاف يعمل هناك ومعه بستانيان آخران. كان يبدو أن تغير الطقس جعله أفضل. وتحدث إليها على سجيته.

قال: "موسم الربيع فى الطريق إلينا، ألا تشمين رائحته؟".

تحسست مارى بأنفها وظنت أنها استطاعت أن تشعر به.

قالت: "أشم شيئًا جميلاً ومنعشًا ورطبًا".

أجابها وهو يعمل: "إنها التربة الخصبة الجيدة، إنها فى حالة منتعشة تستعد لإنماء النباتات. إنها تسعد بمجىء موسم الزراعة. وهى تكتئب فى الشتاء عندما لا تجد ما تفعله.

فى حدائق الأزهار بالخارج سوف تنشط أشياء وتثور تحت الأرض فى الظلام. والشمس تدفئهم. سوف ترين بقعًا خضراء تخرج من الأرض السوداء بعد فترة قصيرة".

فسألت مارى: "وماذا ستكون؟".

"زعفران وأزهار الثلج و النرجس(*). ألم تريها قط؟".

"لا. كل شىء حار ومبلل وأخضر فى الهند بعد المطر، وأظن الأشياء تنمو فى غضون ليلة".

قال وذرستاف: "أما هذه فلن تنمو فى غضون ليلة، عليك أن تنتظريها. سوف تبرز قليلاً للأعلى هنا، وتخرج سنابل أكثر هناك، وتنبت ورقة اليوم وأخرى بعد ذلك. ولاحظيها".

أجابت مارى: "سأفعل".

بعد ذلك بقليل سمعت رفرفة الأجنحة الرقيقة وعرفت فى الحال أن أبا الحناء عاد مرة أخرى. كان نشيطًا ومفعمًا بالحيوية، وظل يرفرف قريبًا من قدميها، أدار رأسه ونظر إليها بمكر فسألت بن وذرستاف:

"هل تعتقد أنه يتذكرنى؟"

(*) draffydowndlllys: أنواع من النرجس، نبات بصلى الشكل، ينمو بأزهاره البيضاء أو الصفراء.

فقال وذرستاف بسخط: "يتذكرك! إنه يعرف كل نبتة تظهر فى الحدائق، فما بالك بالناس؟ إنه لم ير فتاة صغيرة هنا من قبل، ويتوق لمعرفة كل شىء عنكِ. ولا حاجة لإخفاء أى شىء عنه".

تساءلت مارى: "وهل تثور الأشياء تحت الأرض فى الظلام فى هذه الحديقة التى يعيش فيها؟"

فعبس وذرستاف ثانية: "أى حديقة؟".

ولم تستطع أن تمنع نفسها من السؤال لأنها كانت تريد معرفة الكثير: "الحديقة ذات الأشجار المزهرة القديمة، هل كل زهورها ميتة؟ أم ينبت بعضها ثانية فى الصيف؟ وهل هناك أى زهور؟".

فقال وذرستاف، وهو يوجه أكتافه تجاه الطائر: "اسأليه، إنه الوحيد الذى يعرف. لم ينظر أحد داخلها منذ عشر سنين".

كانت تعتقد مارى أن عشر سنين وقت طويل، فقد ولدت منذ عشر سنين.

سارت مبتعدة ببطء وهى تفكر. إنها بدأت تحب الحديقة، تمامًا مثلما بدأت تحب الطائر وديكون وأمه. إنها بدأت تحب مارثا أيضًا. وهؤلاء المحبوبون كثيرون عندما لا تكون معتادًا على حب الناس. كانت تشعر بالطائر وكأنه أحد الناس. ذهبت لتتمشى خارج السور الطويل المغطى باللبلاب وحيث ترى من خلفه قمم الأشجار. وكانت المرة الثانية التى تمشى فيها خلال الشىء الأكثر تشويقًا وإثارة لها، وكل ذلك من خلال طائر بن وذرستاف.

كانت تسمع تغريدًا وسقسقة، وعندما نظرت إلى حوض الزهور العارى على يسارها كان الطائر يحوم حولها وكأنه يبحث عن شيء فى الأرض سيلتقطه لكى يقنعها أنه لم يكن يتبعها. ولكنها كانت تعلم أنه يتبعها وقد غمرتها المفاجأة بالسرور حتى إنها ارتعدت قليلاً.

صاحت: "أنت حقًا تتذكرنى! حقًا! إنك أجمل من أى شىء آخر فى العالم".

تحدثت إليه ولاطفته وسقسقت معه، وهو رفرف وهز ذيله وغرد. وكان كأنه يتحدث. كان ريش صدره الأحمر مثل الحرير، وقد نفخ صدره الصغير وكان غاية فى الرقة والجمال والعظمة، حتى إنه حقًا بدا وكأنه يريها كم يستطيع أبو الحناء أن يشابه الإنسان. نسيت الآنسة مارى أنها كانت طوال حياتها عكس الجميع عندما سمح لها أن تقترب وتقترب منه، وأن تجثو وتتحدث وتحاول أن تصدر صوتًا مثل صوته.

ياه! كم هو إحساسها عندما يسمح لها بالاقتراب منه بهذا القدر! فهو يعلم أنه لا شىء فى الوجود سيجعلها تخرج يدها ناحيته أو أنها ستروعه ولو بأبسط الطرق. يعلم ذلك لأنه إنسان حقيقى – إنه فقط أجمل من أى إنسان فى الوجود. كانت مسرورة حتى إنها لم تستطع التقاط أنفاسها.

لم يكن حوض الزهور عاريًا تمامًا. كان خاليًا من الزهور؛ لأن النباتات المعمرة كانت قد قطعت فى فترة راحتها الشتوية، ولكن كان هناك شجيرات طويلة وقصيرة نبتت مع بعضها فى خلفية الحوض، وفى أثناء تواثب

الطائر تحت هذه الأشجار رأته يحجل فوق كومة صغيرة من التربة المقلبة حديثًا. وقف عليها ليبحث عن دودة. كانت هذه القطعة من الأرض مثارة لأن كلبًا كان يحاول أن يحفر بحثًا عن حيوان الخلد ولكن الحفرة تعمقت.

نظرت مارى إليها، ولم تعرف حقيقة سبب تلك الحفرة، وهى تنظر رأت وكأن شيئًا دفن فى هذه التربة المقلبة حديثًا. كان شيئًا كخاتم أو حديد أو نحاس صدئ. وعندما طار أبو الحناء إلى شجرة قريبة مدت يدها وأخرجت الخاتم. إنه أكبر من خاتم، إنه مفتاح قديم وكان يبدو أنه مدفون منذ زمن بعيد.

وقفت الآنسة مارى ونظرت إليه ووجهها شبه خائف وهو يتدلى من إصبعها.

قالت هامسة: "ربما كان قد دفن منذ عشر سنين، ربما يكون مفتاح الحديقة".

الفصل الثامن

أبو الحناء الذى عرّفها الطريق

نظرت مارى إلى المفتاح طويلاً. وظلت تقلبه وتفكر فيه. فكما قلت من قبل إنها طفلة لم تتعلم طلب الإذن واستشارة من يكبرها فى الأمور. كل ما فكرت فيه بشأن المفتاح هو إذا كان هذا مفتاح الحديقة المغلقة، وأمكنها أن تكتشف مكان الباب، فربما سيمكنها فتحه وتنظر ماذا وراء تلك الجدران، وماذا حدث للأشجار المزهرة القديمة. ولأنها أغلقت طويلاً كانت تريد أن تراها. فلابد وأنها مختلفة عن الأماكن الأخرى وأن شيئًا غريبًا قد حدث لها طيلة عشر سنوات.

وإضافة إلى ذلك، إذا أعجبها المكان فيمكنها أن تذهب إليه كل يوم وتغلق الباب خلفها، ويمكنها أن تصطنع لعبة من نفسها وتلعبها وحدها تمامًا، فلن يعرف أحد أبدًا أين تكون، لكن سيظنون أن الباب ما زال موصدًا وأن المفتاح مدفون فى الأرض. أسعدها التفكير فى ذلك كثيرًا. العيش كما كان وحدها تمامًا فى منزل به مئة غرفة مغلقة غامضة وليس لديها شىء أيًّا

كان لتسلى نفسها، قد حفز دماغها الخامل أن يعمل وأيقظ بالفعل خيالها. ما من شك أن الهواء القوى الصافى الجديد الآتى من البرارى كان له وقع عظيم عليها. وكما أعطاها شهية، والمقاتلة مع الريح حركت دماءها، نفس الأشياء حركت رأسها. أما فى الهند فكانت دائمًا تشعر بالحر والوهن حتى إنها لا تأبه كثيرًا بالأشياء حولها، لكن فى هذا المكان بدأت تهتم وتفعل أشياء جديدة.

بالفعل تناقص شعورها بأنها شاذة، مع أنها لم تعرف السبب. وضعت المفتاح فى جيبها وسارت عبر ممشاها. لا أحد سواها قد أتى هنالك، لذا أمكنها أن تمشى ببطء وتنظر على الحائط، أو، بالأحرى، على ستائر اللبلاب النامية عليها. كان اللبلاب هو الشىء المربك. ومع أنها كانت تنظر بحرص فإنها لم تجد سوى الأوراق النامية السميكة شديدة الخضرة. شعرت بخيبة أمل كبيرة. عاد إليها شىء من التناقضية لما تقدمت سيرًا فى الممشى وتفحصته من خلال قمم الأشجار التى بالداخل. قالت لنفسها إنه سخيف جدًا أن تكون قريبة منه ولا تستطيع الدخول. أخذت المفتاح فى جيبها عندما عادت إلى المنزل، وعزمت أمرها أن تحمله معها دائمًا حينما تخرج، حتى تكون مستعدة وقتما تجد الباب الخفى.

كانت السيدة ميدلوك قد صرحت لمارثا أن تبيت الليل كله فى الكوخ، ولكنها عادت لعملها فى الصباح بخدود أكثر احمرارًا وفى أفضل معنوياتها. وقالت: "لقد استيقظت فى الساعة الرابعة ، إيه ! كان الجو جميلاً فى البرارى مع استيقاظ الطيور وعدو الأرانب وبزوغ الشمس. لم أمش الطريق كله. فقد أوصلنى رجل فى عربته واستمتعت بوقتى".

كانت مليئة بحكايات سارة عن يومها الذى قضته بالخارج. كانت أمها مسرورة لرؤيتها وقد قاموا بالخبز والغسل على غير العادة. وقد عملت لكل من الأطفال عجينة الكعكة بقليل من السكر البنى فيها.

"كانت كلها ساخنة عندما جاؤوا من اللعب فى البرارى. وانتشر فى الكوخ رائحة الخبز النظيف الساخن، وكانت النار حامية ، وكانوا يصيحون فقط من المرح. قال ديكون إن كوخنا يروق للملك أن يعيش فيه".

وفى المساء جلسوا جميعًا حول النيران، ومارثا وأمها يحيكان الرقع على الملابس الممزقة ويصلحان الجوارب وأخبرتهم مارثا عن الفتاة الصغيرة التى أتت من الهند والتى قد قضت طيلة حياتها فيما أسمته مارثا "السود" حتى إنها لم تتعلم كيف تلبس جواربها. قالت مارثا: "إيه، كانوا معجبين بالسماع عنك، وكانوا يريدون أن يعرفوا كل شىء عن "السود" وعن السفينة التى قدمت فيها. لم أستطع إخبارهم القدر الكافى". فكرت مارى قليلاً وقالت لها: "سأحكى لك قدرًا كبيرًا قبل يوم إجازتك القادم، وسوف يكون لديك الكثير لتتحدثى عنه. أجزم أنهم سيحبون السماع عن الركوب على الفيلة والجِمال وعن الضباط الذين يخرجون لصيد النمور".

صاحت مارثا مبتهجة: "يا إلهى! سيجعلهم هذا ينعشون رؤوسهم. هل ستفعلين هذا حقًا، سيدتى؟ سيكون هذا مثل وحش برى سمعنا ذات مرة أنه كان عندهم فى يورك".

كان لتسلى نفسها، قد حفز دماغها الخامل أن يعمل وأيقظ بالفعل خيالها. ما من شك أن الهواء القوى الصافى الجديد الآتى من البرارى كان له وقع عظيم عليها. وكما أعطاها شهية، والمقاتلة مع الريح حركت دماءها، نفس الأشياء حركت رأسها. أما فى الهند فكانت دائمًا تشعر بالحر والوهن حتى إنها لا تأبه كثيرًا بالأشياء حولها، لكن فى هذا المكان بدأت تهتم وتفعل أشياء جديدة.

بالفعل تناقص شعورها بأنها شاذة، مع أنها لم تعرف السبب. وضعت المفتاح فى جيبها وسارت عبر ممشاها. لا أحد سواها قد أتى هنالك، لذا أمكنها أن تمشى ببطء وتنظر على الحائط، أو، بالأحرى، على ستائر اللبلاب النامية عليها. كان اللبلاب هو الشىء المربك. ومع أنها كانت تنظر بحرص فإنها لم تجد سوى الأوراق النامية السميكة شديدة الخضرة. شعرت بخيبة أمل كبيرة. عاد إليها شىء من التناقضية لما تقدمت سيرًا فى الممشى وتفحصته من خلال قمم الأشجار التى بالداخل. قالت لنفسها إنه سخيف جدًّا أن تكون قريبة منه ولا تستطيع الدخول. أخذت المفتاح فى جيبها عندما عادت إلى المنزل، وعزمت أمرها أن تحمله معها دائمًا حينما تخرج، حتى تكون مستعدة وقتما تجد الباب الخفى.

كانت السيدة ميدلوك قد صرحت لمارثا أن تبيت الليل كله فى الكوخ، ولكنها عادت لعملها فى الصباح بخدود أكثر احمرارًا وفى أفضل معنوياتها. وقالت: "لقد استيقظت فى الساعة الرابعة ، إيه ! كان الجو جميلاً فى البرارى مع استيقاظ الطيور وعدو الأرانب وبزوغ الشمس. لم أمش الطريق كله. فقد أوصلنى رجل فى عربته واستمتعت بوقتى".

كانت مليئة بحكايات سارة عن يومها الذى قضته بالخارج. كانت أمها مسرورة لرؤيتها وقد قاموا بالخبز والغسل على غير العادة. وقد عملت لكل من الأطفال عجينة الكعكة بقليل من السكر البنى فيها.

"كانت كلها ساخنة عندما جاؤوا من اللعب فى البرارى. وانتشر فى الكوخ رائحة الخبز النظيف الساخن، وكانت النار حامية ، وكانوا يصيحون فقط من المرح. قال ديكون إن كوخنا يروق لملك أن يعيش فيه".

وفى المساء جلسوا جميعًا حول النيران، ومارثا وأمها يحيكان الرقع على الملابس الممزقة ويصلحان الجوارب وأخبرتهم مارثا عن الفتاة الصغيرة التى أتت من الهند والتى قد قضت طيلة حياتها فيما أسمته مارثا "السود" حتى إنها لم تتعلم كيف تلبس جواربها. قالت مارثا: "إيه، كانوا معجبين بالسماع عنك، وكانوا يريدون أن يعرفوا كل شىء عن "السود" وعن السفينة التى قدمت فيها. لم أستطع إخبارهم القدر الكافى". فكرت مارى قليلاً وقالت لها: "سأحكى لك قدرًا كبيرًا قبل يوم إجازتك القادم، وسوف يكون لديك الكثير لتتحدثى عنه. أجزم أنهم سيحبون السماع عن الركوب على الفيلة والجِمال وعن الضباط الذين يخرجون لصيد النمور".

صاحت مارثا مبتهجة: "يا إلهى! سيجعلهم هذا ينعشون رؤوسهم. هل ستفعلين هذا حقًا، سيدتى؟ سيكون هذا مثل وحش برى سمعنا ذات مرة أنه كان عندهم فى يورك".

قالت مارى ببطء: "الهند مختلفة تمامًا عن يوركشاير" وعلى حين هى تفكر فى المسألة قالت: "لم أفكر قط فى ذلك. هل ديكون وأمك يحبان سماعك وأنت تتحدثين عنى؟".

قالت مارثا: "لماذا، كادت عينا ديكون تخرجان من رأسه وبدتا مستديرتين، لكن أمى كانت منشغلة كيف تكونين وأنت تعيشين دائمًا وحدك. قالت لى: "ألم يحضر السيد كرافن مربية لها، ولا ممرضة؟ فقلت لها: "لا لم يحضر، رغم أن السيدة ميدلوك قالت إنه سيفعل ذلك عندما يفكر فى الأمر، لكنها قالت ربما لا يفكر فى الأمر لعامين أو ثلاثة".

قالت مارى بحدة: "أنا لا أريد مربية".

"أمى تقول إنه يجب أن تتلقى العلم فى هذا التوقيت ويجب أن تكون هناك سيدة ترعاك"، وتقول: "الآن، يا مارثا، فكرى كيف ستشعرين وأنت فى مكان كبير مثل هذا تتجولين فيه وحدك، وليس لديك أم. ابذلى ما فى وسعك كى تبهجيها،" وقلت لها: "سأفعل". نظرت لها نظرة طويلة ثابتة.

قالت: "هل ستبهجيننى، أحب سماعك وأنت تتحدثين".

خرجت مارثا من الحجرة ساعتها وعادت وهى تحمل شيئًا فى يديها تحت مئزرها.

قالت فى ابتسامة مرح: "ما هذا فى رأيك؟ لقد أحضرت لك هدية".

تعجبت الآنسة مارى وقالت: "هدية!"

كيف لكوخ مليء بأربعة عشر فردًا من الجياع أن يقدموا لأحد هدية!

وضحت لها مارثا وقالت: "كان يمر رجل عبر البرارى ببضاعته، وأوقف عربته عند بابنا . كان معه أوانٍ ومقلايات وأشياء غريبة وبقايا بضائع لكن أمى لم يكن لديها مال لتشترى أى شيء. وعلى حين كان ماشيًا نادت ابنتنا إليزابيث إيلين : "يا أم، إن لديه أحبال قفز ذات مقابض حمراء وزرقاء". فصاحت أمى فجأة: "توقف سيدى! كم ثمنها". فقال: "بنسان" فبدأت أمى تتحسس فى جيبها وتقول لى،: "مارثا، لقد أعطيتنى أجرك كالفتيات الطيبات، ولدى أربعة أماكن لأضع كل بنس فيها، لكننى سآخذ بنسين منهم لأشترى حبل قفز لهذه الطفلة، واشترت واحدًا وها هو".

أخرجته من تحت إزارها وعرضته فى افتخار. كان حبلاً قويًا رفيعا ذا مقبضين مخططين أحمر وأزرق فى نهاية كل طرف، لكن مارى لينوكس لم ترَ حبلاً للقفز من قبل. فحدقت فيه وعلى وجهها علامات الحيرة.

سألت بفضول: "لأى شيء هذا؟" صاحت مارثا: "لأى شيء! هل تعنين أنه لم يكن لديك حبل قفز فى الهند، لكل ما عندهم من الفيلة والجمال والنمور! لا عجب فأكثرهم السود. هذا ما يستخدم لأجله؛ فقط راقبينى". وذهبت عند منتصف الحجرة وأمسكت مقبضًا فى كل يد، وبدأت تثب وتثب على حين استدارت مارى بمقعدها لتحدق فيها، والوجوه الغريبة التى بالصور تبدو محدقة فيها أيضًا، وتتعجب ماذا لدى فتاة الكوخ من العامة من الوقاحة لتلعب أمام أعينهم. لكن مارثا حتى لم ترهم. أبهجها الاهتمام والفضول فى وجه الآنسة مارى، واستمرت فى الوثب وعدّت ما وثبته حتى وصلت المئة.

قالت حينما توقفت : "أستطيع الوثب أكثر من ذلك، لقد وثبت كثيرًا مثل خمسمئة وثبة حين كنت اثنى عشر عامًا، لكننى لم أكن بدينة مثل ما أنا عليه الآن، وكنت أتمرن".

نهضت مارى من كرسيها وبدت عليها الإثارة.

قالت: "تبدو جميلة، أمك امرأة عطوفة. هل تعتقدين أننى سيمكننى الوثب مثل ذلك؟".

فقالت مارثا معارضة وهى تعطيها حبل القفز : "فقط جربيها، لن تستطيعى القفز مئة مرة فى البداية، ولكن كلما مارست فسيزداد قفزك. هذا ما قالته أمى. تقول: لن يحسنها شىء أكثر من حبل القفز. إنها أفضل لعبة يمكن أن يقتنيها طفل. دعيها تلعب به فى الهواء الطلق وسوف يشد ذراعيها وساقيها ويقويها".

كان واضحًا أن مارى لم يكن لديها قوة كافية فى ذراعيها وساقيها عندما بدأت فى القفز. لم تكن ماهرة فى هذه اللعبة، لكنها أحبتها كثيرًا حتى إنها لم تكن تريد التوقف.

قالت مارثا: "ارتدى ملابسك واخرجى واقفزى فى الخارج. بقدر ما تستطيعين، حتى إن أمطرت قليلاً، تشعرين بالدفء".

ارتدت مارى معطفها وقبعتها وأخذت حبل قفزها على ذراعها. فتحت الباب لتخرج، ولكنها فجأة فكرت فى شىء ورجعت ببطء.

قالت: "مارثا، كانت أجرتك. كان البنسان خاصتك فعلاً. أشكرك".

قالتها بجفاف لأنها لم تكن معتادة على شكر الناس أو ملاحظة أنهم فعلوا شيئًا من أجلها.

قالت: "أشكرك"، ورفعت يدها، لأنها لم تكن تعلم ماذا تفعل غير ذلك.

صافحتها مارثا بشكل جاف قليلاً، وكأنها لم تكن معتادة على هذا النوع من التعامل. ثم ضحكت.

قالت: "إيه! لأنك مخلوق نسائى عجيب. لو كنت إليزابيث إلين لكنت أعطيتنى قبلة".

"هل تريديننى أن أقبلك؟".

ضحكت مارثا ثانية. وأجابت: "لا، ليس أنا، لو كنت مختلفة، ربما كنت ستريدينها لنفسك. لكنك لست كذلك. هرولى إلى الخارج والعبى بحبلك".

شعرت مارى بالارتباك بعض الشىء وهى تخرج من الغرفة. كان أهل يوركشاير يبدون غرباء، وكانت مارثا دائمًا لغزًا بالنسبة لها. فى البداية كانت تكرهها كثيرًا، أما الآن فلا.

كان حبل القفز شيئًا رائعًا. كانت تعد وتقفز، وتقفز وتعد، حتى احمر خداها، وكانت متشوقة أكثر من أى يوم منذ ولدت. كانت الشمس ساطعة، والريح البسيطة تهب- ليست الريح القوية، لكن الرياح كانت تهب ومعها شحنات السرور والرائحة المنعشة لتربة مقلبة حديثًا. تقافزت حول حديقة النافورة، فى ممشى وفى آخر. تقافزت أخيرًا فى حديقة المطبخ ورأت بن

وذرستاف وهو يحفر ويتحدث مع طائره الذى كان يحجل من حوله. تقافزت فى المشى متجهة إليه ورفع رأسه ونظر إليها نظرة فضولية. تساءلت إن كان قد انتبه لها. وقد أرادت أن يراها وهى تقفز.

قال متعجبًا: "حسنًا، على حد قولى، ربما تكونين طفلة صغيرة، وربما يجرى فى وريدك دم طفل بدلاً من مخيض مر. لقد احمر خداك بشكل مؤكد كما أن اسمى بن وذرستاف. لم أكن أصدق أنك ستستطيعين فعل ذلك".

قالت مارى: "لم أتقافز قط، أنا فقط فى البداية، وقد وصلت فقط عشرين مرة".

قال بن: "استمرى، يبدو ذلك جيدًا لطفلة كانت تعيش مع الهمج. فقط انظرى كيف يراقبك" وأومأ برأسه تجاه الطائر. "كان قد تبعك أمس، وسوف يفعلها اليوم. سوف يصمم على معرفة ما هو حبل القفز. فلم يره من قبل. نعم!".

وأدار رأسه للطائر، "طموحك سيقودك لموتك يومًا ما إن لم يكن جادًا".

تقافزت مارى حول كل الحدائق وحول بستان الفاكهة، وكانت تستريح كل بضع دقائق. بعد فترة وصلت إلى ممشاها الخاص، وصممت على أن تصل إلى نهايته. كان قفزها لمسافة طويلة، وقد بدأت ببطء، ولكن عندما وصلت منتصف الطريق تقريبًا شعرت بالحر ولم تستطع التنفس فاضطرت للتوقف. لم تكترث كثيرًا، لأنها كانت بالفعل وصلت إلى الثلاثين قفزة. توقفت وضحكت قليلاً من السعادة، وهناك، كان الطائر يترنح على فرع لبلاب طويل. كان قد تبعها وحياها بتغريدة. على حين كانت تقفز

ناحيته شعرت بشيء ثقيل فى جيبها يضربها مع كل قفزة، وعندما رأت الطائر ضحكت ثانية.

قالت: "لقد قدتنى إلى مكان المفتاح أمس، يجب أن تقودنى إلى الباب اليوم. لكننى لا أعتقد أنك تعرفه".

طار أبو الحناء من على فرع اللبلاب المتمايل واتجه عاليًا إلى أعلى السور وفتح منقاره وغرد بصوت مرتفع، تغريدة جميلة، فقط للاستعراض. ما من شيء فى العالم جماله يثير الإعجاب مثل أبى الحناء عندما يستعرض– وهو دائمًا يفعل ذلك. كانت مارى قد سمعت قدرًا كبيرًا عن السحر فى قصص مربيتها، وقالت إن ما حدث فى هذه اللحظة كان سحرًا. هبت إحدى هبات الرياح الجميلة على الممشى، وكانت أقوى من الأخريات. كانت قوية بحيث أمالت الفروع عن الشجر، وكانت أكثر قوة بحيث أزاحت الفروع المتشابكة لشجر لبلاب غير مشذب يتدلى على السور. خطت مارى على مقربة من الطائر، وفجأة أزاحت هبة الريح بعض فروع اللبلاب المتعانقة بغير إحكام، وزاد من المفاجأة أنها قفزت تجاهه وأمسكت به. فعلت ذلك لأنها رأت شيئًا تحته – مقبض مزخرف مستدير مغطى بالأوراق المتدلية فوقه. كان مقبض باب.

وضعت يديها تحت أوراق الشجر وبدأت تسحبها وتدفعها جانبًا. كان اللبلاب المعلق سميكًا، كأنه ستائر حرة متأرجحة، رغم أن بعضها زحف على الأخشاب والحديد. بدأ قلب مارى يضرب ضربات مكتومة ويداها تهتزان قليلاً من بهجتها وحماسها. استمر أبو الحناء فى الغناء والزقزقة وهو يميل (كان مقبض باب) برأسه جانبًا، كما لو أنه كان متحمسًا مثلها.

ما هذا الشيء؟ تحت يديها شيء مربع مصنوع من الحديد وجدت أصابعها أن به فتحة؟ كان ذلك قفل الباب الذى أغلق لعشر سنوات. فوضعت يدها فى جيبها، وسحبت المفتاح ووجدته ملائمًا لثقب القفل. أدخلت المفتاح فيه وأدارته. احتاج ذلك ليدين تعملان به لكنها أدارته. حينها التقطت نفسًا عميقًا ونظرت خلفها نحو الممشى الطويل لترى إذا كان هناك أحد قادم. لم يكن أحد قادمًا. لم يأت أحد مطلقًا، كما يبدو، فالتقطت نفسًا آخر عميقًا لأنها لا تستطيع أن تتمالك أنفاسها، وأرجعت ستائر اللبلاب وعادت تكافح الباب الذى فتح ببطء ـ ببطء. ثم انزلقت عبره، وأغلقته خلفها وأسندت ظهرها إليه، ناظرة حولها وأنفاسها تتلاحق سريعًا فى حماسة وتعجب وابتهاج. إنها تقف بداخل الحديقة السرية.

الفصل التاسع

أغرب منزل عاش فيه إنسان

كان المكان الأجمل والأكثر غموضًا فيما يمكن أن يراه أحد. كانت الأبواب المؤدية إليه مغطاة بالزهور المتسلقة ذات السوق غير المورقة وكانت سميكة بحيث جدلت مع بعضها. كانت مارى لينوكس تعرف أنها زهور لأنها رأت العديد والعديد من الزهور فى الهند. كانت الأرض مغطاة بحشائش شتوية بنية من بينها نمت مجموعات من شجيرات بالتأكيد كانت ستصبح شجيرات ورد لو بقيت حية. انتشرت فروع لعدد من بتلات الورد التى كونت شجيرات صغيرة. كانت هناك أشجار أخرى فى الحديقة، ومما جعل الحديقة تبدو الأغرب والأجمل هذه الزهور المتسلقة التى غطت تلك الأشجار وتدلت فى شكل لولبى جعل من الأضواء ستائر متراقصة، وتشابكت فى بعضها هنا وهناك متعلقة بين الفروع المتباعدة صانعة من أنفسها جسورًا.

لا يوجد بها الآن أوراق ولا زهور، ولم تعلم مارى إن كانت حية أو ميتة، لكن فروعها الرفيعة الرمادية أو البنية جعلت منها غطاءً ضبابيًا على

كل شيء؛ الحوائط والأشجار وحتى الحشائش البنية والتى وقعت عليها من أماكنها وانتشرت على الأرض. ما جعلها تبدو غامضة بهذا الشكل تلك الكتل المتشابكة الكثيفة الممتدة من شجرة إلى أخرى. اعتقدت مارى أنها مختلفة عن بقية الحدائق التى تركت لحالها لوقت طويل؛ وفى الحقيقة كانت مختلفة عن أى مكان آخر رأته مارى فى حياتها.

قالت هامسة: "ما أعجب سكونها! ما أعجبه!".

انتظرت للحظة وأنصتت إلى السكون. كان طائر أبى الحناء، الواقف على قمة شجرته، ساكنًا ككل شيء. إنه حتى لم يرفرف بجناحيه، جلس بلا حراك ونظر إليها.

همست ثانية: "لا عجب من سكونها، فأنا أول من يتحدث فيها لعشرة أعوام".

انتقلت مبتعدة عن الباب، وهى تخطو بهدوء وكأنها تخشى أن توقظ أحدًا. أسعدها وجود الحشائش تحت أقدامها حتى لا تصدر خطواتها أى صوت. سارت بين الأشجار تحت أحد الجسور المتشابكة وكأنها جان ونظرت إلى الأغصان والفروع اللولبية التى كونتها.

قالت: "ماذا لو كانوا جميعهم أمواتًا، هل كل الحديقة ميتة تمامًا؟ أتمنى ألا تكون كذلك". لو أنها وذرستاف لكانت ستعرف الخشب الحى بمجرد النظر إليه، لكنها استطاعت فقط أن ترى ما كان موجودًا من الأغصان والفروع الرمادية أو البنية ... ولا توجد أى إشارة لبرعم ورقة صغيرة فى

أى مكان. لكنها كانت داخل الحديقة الرائعة وأمكنها المجىء فى أى وقت عبر الباب الذى يغطيه اللبلاب وشعرت وكأنما وجدت عالمًا بأكمله ملكها.

كانت الشمس ساطعة داخل الجدران الأربعة وقوس كبير من السماء الزرقاء يعلو هذه المنطقة بعينها من ميسيلثويت التى تبدو أكثر بريقًا ونعومة أكثر مما كانت عند البرارى. هبط أبو الحناء من قمة شجرته وقفز أو حلق من شجيرة إلى أخرى. ظل يزقزق بشكل جعل الجو مشحونًا، وكأنه يريها أشياء. كان كل شىء غريبًا وصامتًا وأحست أنها تبعد مئات الأميال عن أى أحد. ولكنها -بشكل ما- لم تشعر بالوحدة إطلاقًا. كل ما كان يقلقها هو أن تعرف إن كانت الزهور حية أم ميتة، أو ربما بعضها حى ويمكن أن يزهر عندما يكون الجو أكثر دفئًا. لم ترد لها أن تكون حديقة ميتة. إن كان بها بعض حياة، كم ستكون رائعة، وكم آلاف من الزهور سوف تنمو فى كل جانب.

كان حبل القفز معلقًا بيدها على حين دخلت وسارت لبرهة، ففكرت فى أنها يمكنها القفز حول الحديقة كلها، وتقف كلما أرادت أن تتأمل شيئًا. انتشر ما يشبه الممرات من الحشائش هنا وهناك. فى جانب أو جانبين كان هناك المظلات دائمة الخضرة وبها مقاعد صخرية وأوعية زهور طويلة مغطاة بالطحالب.

توقفت عن القفز عندما وصلت المظلة الثانية. فوجئت بشتلة ورد بداخلها، ورأت شيئًا يبزغ من الأرض السوداء وكأنه بعض النقاط الخضراء الشاحبة الصغيرة. تذكرت حينها ما قاله بن وذرستاف ونزلت على ركبتيها لتنظر إليها.

همست: "نعم، إنها أشياء نامية ضئيلة وربما تكون نباتات زعفران أو زهور اللبن الثلجية أو نرجسا بريا".

انحنت قريبًا جدًّا منها واستنشقت الرائحة المنعشة المنبعثة من الأرض الرطبة. لقد أعجبتها كثيرًا.

قالت: "ربما هناك نباتات أخرى نامية فى أماكن أخرى. سأتجول فى جميع أنحاء الحديقة وأبحث".

سارت ولم تتقافز. سارت ببطء ولم ترفع عينيها من على الأرض. نظرت فى زهريات الورد القديمة فى الجوانب كما نظرت بين الحشائش. بعد أن أكملت دورتها محاولة عدم تخطى شىء، وجدت الكثير من النقاط التى رأتها وثارت مشاعرها مرة أخرى.

خرجت منها صرخة بسيطة وقالت: "ليست حديقة ميتة تمامًا، حتى لو كانت الزهور ميتة، هناك أشياء أخرى حية".

لم تكن تعرف أى شىء عن البستنة، لكنها لاحظت أن الحشائش كانت كثيفة جدًّا فى الأماكن التى كانت النقاط الخضراء تشق طريقها خلالها ووجدت أنها تحتاج مساحة كافية لتنمو. بحثت حولها حتى وجدت قطعة خشبية حادة بعض الشىء، ثم نزلت على ركبتيها وحفرت وأزالت الأعشاب والحشائش الضارة حتى صنعت مجالاً نظيفًا جميلاً حولها.

قالت بعد أن أنهت المنطقة الأولى: "الآن أرى هذه الزهور تستطيع التنفس، سأفعل المثل فى الكثير منها. سأنظف كل ما يمكننى رؤيته. لو لم أجد الوقت اليوم فسآتى غدًا".

انتقلت من مكان لآخر، حفرت وأزالت الأعشاب الضارة، وكانت مستمتعة جدًا حتى إنها كانت تتنقل من مزهرية لأخرى بين الحشائش وتحت الأشجار. هذا المجهود جعلها تشعر بالدفء فخلعت معطفها أولاً ثم قبعتها ولا إراديًا كانت تبتسم للحشائش والبقع الخضراء طوال الوقت. كان أبو الحناء مشغولاً بشكل ملحوظ. كان مسرورًا لرؤية دولته بدأت تشملها هذه الرعاية. كان دائمًا يعجب من بن وذرستاف. حيث تجعل البستنة كل ما هو جيد للأكل فى تفاعل مع التربة. الآن أتى شخص لا يتعدى نصف حجم بن، ولكنه كان لديه الدافع ليدخل حديقته ويبدأ فى الحال.

ظلت الآنسة مارى تعمل فى حديقتها حتى جاء موعد غدائها. فى الحقيقة، كانت قد تأخرت عندما تذكرت، وعندما ارتدت معطفها وقبعتها وأخذت حبل التقافز لم تصدق أنها كانت تعمل لساعتين أو ثلاث. كانت حقًا سعيدة طوال الوقت، والعشرات والعشرات من البقع الخضراء تمكنت من الحياة فى أماكن نظيفة، وبدت وكأنها مسرورة ضعف ما كانت عليه عندما كانت الحشائش والأعشاب الضارة تخنقها.

"سأعود بعد الظهر،" قالتها وهى تنظر حولها فى مملكتها الجديدة، تحدث الأشجار وشجيرات الزهور وكأنها تسمعها.

ثم جرت بخفة عبر الحشائش، دفعت الباب القديم البطئ لتفتحه، وانزلقت من تحت اللبلاب. احمر خداها وبرقت عيناها وأكلت جيدًا؛ مما جعل مارثا مسرورة بها.

قالت: "قطعتان من اللحم وحصتان من سجق الأرز".

"ها! سوف تسعد أمى عندما أخبرها بما فعله حبل التقافز بكِ".

بالنسبة لعملها فى الحديقة، كانت الآنسة مارى قد وجدت نفسها تحفر حول جذر أبيض يشبه جذر البصل إلى حد كبير. وضعته فى مكانه وأزاحت عليه التربة بعناية، والآن تتساءل لو يمكن لمارثا أن تخبرها ما هو هذا النبات.

قالت: "مارثا، ما هذه الجذور البيضاء التى تشبه البصل؟".

أجابت مارثا: "إنها بصلات النبات، كثير من زهور الربيع تنبت منها. الصغير منها هو زهر اللبن الثلجى والزعفران، والكبير لزهور النرجس".

سألت مارى، وقد واتتها فكرة جديدة: "هل يعلم ديكون كل شىء عنها؟".

"ديكون يستطيع أن ينبت الزهور من الصخر. تقول أمى إنه فقط يهمس للأرض فتنبت النباتات".

سألت مارى بشغف: "هل تعيش البصلات لفترة طويلة؟ هل تعيش لسنين إن لم يهتم بها أحد؟"

قالت مارثا: "إنها أشياء تساعد نفسها. وهذا ما يجعل الفقراء يستطيعون اقتناءها. إذا لم تؤذها يعيش معظمها تحت الأرض لأزمنة طويلة وتخرج منتشرة بأزهارها. يوجد مكان هناك فى أشجار الغابة يزخر

بالآلاف من أزهار اللبن الثلجية. إنها من أجمل الأماكن منظرًا فى يوركشاير عندما يأتى الربيع. ولا يعرف أحد متى بدأت زراعتها " .

قالت مارى: "أتمنى لو جاءنا الربيع الآن، أريد أن أرى كل ما ينمو فى إنجلترا" .

أنهت طعامها وذهبت إلى مجلسها المفضل على بساط المدفأة.

قالت: "أتمنى – أتمنى لو كان عندى مجراف صغير"

فسألتها مارثا ضاحكة: "وماذا تريدين فعله بمجراف؟ هل تنتوين العمل به؟ سأخبر أمى بذلك أيضًا" .

نظرت مارى إلى النار وتأملت قليلاً. يجب أن تأخذ حذرها إن أرادت أن تحتفظ بمملكتها السرية. لن يصيبها أذى، ولكن لو اكتشف السيد جرافن الباب الذى فتح فسيكون غاضبًا جدًا وسوف يغلق الباب بمفتاح جديد إلى الأبد مرة ثانية. إنها حقًا لا تتحمل ذلك.

قالت ببطء، وكأنها تقلب أفكارًا فى عقلها: "إنه مكان كبير وحيد، المنزل وحيد، والغابة وحيدة، والحدائق وحيدة. كثير من الأماكن تبدو دائمًا مغلقة. لم أفعل أشياء كثيرة فى الهند من قبل، ولكن أرى أناسًا أكثر – أهالى وجنود يمرون – وأحيانًا فرقًا موسيقية تعزف، ومربيتى كانت تحكى لى القصص. لا أحد أحدثه هنا غيرك أنت وبن وذرستاف. وأنت عليك أعباؤك، وبن وذرستاف لا يتكلم معى فى أغلب الأوقات. أعتقد لو كان عندى مجراف صغير، لكنت سأحفر فى مكان ما كما يفعل، وربما أصنع حديقة صغيرة إن أعطانى بعض البذور" .

تهلل وجه مارثا، وتعجبت:

"الآن! لو لم يكن ذلك مما قالته أمى. تقول: يوجد أماكن كثيرة فارغة فى هذا المكان الواسع، لماذا لا يعطونها مساحة منه لنفسها، وحتى ولو لم تزرع إلا المقدونس والفجل؟ كانت ستحفر وتنقب بها وتكون سعيدة بها. هذا ما قالته بالضبط".

قالت مارى: "حقًّا؟ كم تعرف، ألا يوجد ما لا تعرفه؟".

قالت مارثا: "نعم، إنها كما تقول: امرأة تربى اثنى عشر طفلاً تتعلم شيئًا بجوار أطفالها الصغار وكأنه علم الحساب الذى يجعلك تستنتجين الأشياء".

سألت مارى: "كم يتكلف مجراف صغير؟".

فأجابت مارثا :"حسنًا، هناك محل أو ما شابه ذلك فى قرية ثويت، رأيت فيه مجموعة من أدوات الحديقة وهى مجراف وأداة تنقيب وشوكة مربوطين معًا كلها بشلنين. وكانت أدوات قوية بما يكفى لتعملى بها أيضًا".

قالت مارى: "لدى أكثر من ذلك فى حافظة نقودى. أعطتنى السيدة موريسون خمسة شلنات وأعطتنى السيدة ميدلوك بعض النقود من السيد كرافن".

تعجبت مارثا: "هل يتذكرك إلى هذا الحد؟".

"قالت السيدة ميدلوك إن لى شلنًا كل أسبوع لأصرفه. تعطينى واحدًا كل سبت. ولم أعرف فيم أصرفه؟".

قالت مارثا: "يا إلهى! إنها ثروة، تستطيعين أن تشترى أى شىء تريدينه فى العالم. إن إيجار كوخنا فقط شلن وثلاثة بنسات وبالكاد نحصل عليها. الآن واتتنى فكرة"، ووضعت يديها على فمها.

قالت مارى بشغف: "ماذا؟"

"فى دكان ثويت، يبيعون حزمًا من بذور الزهور الواحدة ببنس، وديكون أخى يعرف أيها أفضل وكيف يزرعها ويرعاها. إنه يتمشى كل يوم لمرات عديدة إلى ثويت فقط للمتعة. هل تعرفين كيف تطبعين الحروف؟".

أجابت مارى: "أستطيع الكتابة"،

هزت مارثا رأسها.

"ديكون يستطيع فقط أن يقرأ الحروف المطبوعة. لو تستطيعين الطباعة، فسنكتب له خطابًا نقول له أن يشترى أدوات البستنة والبذور فى نفس الوقت".

صاحت مارى: "أُوه! يالك من فتاة طيبة! أنت فعلاً كذلك! لم أكن أعرف أنك طيبة هكذا. أعرف أننى أستطيع الطباعة إذا حاولت. لنطلب من السيدة ميدلوك قلمًا وحبرًا وبعض الأوراق".

قالت مارثا: "لدى منها. لقد اشتريتها حتى أستطيع طباعة رسالة صغيرة إلى أمى يوم الأحد. سأذهب وأحضرها".

هرولت إلى خارج الغرفة، ووقفت مارى بجوار المدفأة ولفت ذراعيها الرفيعين على بعضهما فى سعادة غامرة.

قالت هامسة: "لو معى مجراف، لاستطعت أن أجعل التربة جميلة ونظيفة وأغرس البذور. لو عندى بذور وتمكنت من زراعة الزهور، فلن تكون الحديقة ميتة مطلقًا. سوف تدب فيها الحياة".

لم تخرج ثانية بعد الظهر، فبعد أن عادت مارثا ومعها قلم وحبر وورق كانت مضطرة لإخلاء المنضدة ونقل الأطباق للطابق السفلى، وعندما دخلت المطبخ كانت السيدة ميدلوك هناك وطلبت منها أن تفعل شيئًا ما، لذلك انتظرت مارى وقتًا بدا لها طويلاً حتى عادت. ثم انشغلت فى عمل جاد لتكتب إلى ديكون. لم تحصل مارى إلا على قدر قليل من العلم لأن مربياتها كن يكرهنها ويكرهن الوجود معها. لم تكن تستطيع التهجى جيدًا ولكنها وجدت أنها استطاعت الطباعة عندما حاولت. وهذا هو الخطاب الذى أملته مارثا عليها.

"عزيزى ديكون،

أرسل إليك وأتمنى أن تكون بصحة جيدة. الآنسة مارى لديها مال وفير ونريدك أن تذهب إلى ثويت وتشترى لها بعض بذور الزهور ومجموعة أدوات الحديقة لكى تصنع حوض زهور. أريدك أن تختار الزهور الأجمل

والأسهل فى الزراعة؛ لأنها لم تقم بذلك من قبل وكانت تعيش فى الهند وهى مختلفة عن هنا. بلغ حبى لأمى ولكل منكم. سوف تحكى لى الآنسة مارى أكثر وفى زيارتى المقبلة سوف تسمع الكثير عن الأفيال والجمال والرجال الذين يذهبون لصيد الأسود والنمور.

أختك المحبة

مارثا فيوبى سوربى".

قالت مارثا: "سنضع النقود فى الظرف وسأجعل مساعد الجزار يأخذها معه فى عربته. إنه صديق حميم لديكون".

"كيف سأحصل على الأشياء عندما يشتريها ديكون؟".

"سوف يحضرها إليك بنفسه. سوف يعجبه السير فى هذا الطريق".

تساءلت مارى: "أوه! متى سأراه! لم أظن أننى كنت لأرى ديكون".

سألت مارثا فجأة: "هل تريدين أن تريه؟" لأن السعادة ظهرت على مارى.

"نعم. لم أر قط صبيًا يحبه الثعالب والغربان. أريد أن أراه بشدة".

بدأت مارثا موضوعًا جديدًا وكأنها تذكرت شيئًا.

قالت بسرعة: "الآن أظننى نسيت ما كان يجب أن أخبرك به فى الصباح. لقد طلبت من أمى، و قالت إنها ستطلب من السيدة ميدلوك بنفسها".

قالت ماري بلهفة: "هل تعنين – "

"ما قلت هو الثلاثاء. اطلبي منها إن كان يمكن أن يقلوك إلى كوخنا يومًا ما وتتناولي بعضًا من كيك أمي الساخن بالشوفان مع الزبد وكوب من اللبن".

بدا ذلك وكأن كل ما كانت تحبه ماري اجتمع في يوم واحد. أن تفكر في الذهاب إلى البراري في وضح النهار عندما تكون السماء زرقاء! أن تفكر في الذهاب إلى الكوخ الذي يأوي اثنى عشر طفلاً!.

سألت في تلهف تام: "هل تعتقد أمك أن السيدة ميدلوك ستوافق على ذلك؟".

"نعم، تظن ذلك. إنها تعلم كم أمي امرأة منظمة وكيف أنها تحافظ على نظافة الكوخ".

قالت ماري وهي تفكر في الأمر مستحسنة الفكرة: "إن ذهبت، يجب أن أرى أمك فضلاً عن ديكون، لا تبدو مثل الأمهات في الهند".

عملها في الحديقة وحماسها في الظهيرة جعلاها تشعر بالهدوء والتفكر. ظلت معها مارثا حتى وقت تناول الشاي، لكنهما جلستا في استرخاء ولم يتحدثا كثيرًا. ولكن قبيل نزول مارثا إحضار صينية الشاي، سألتها ماري سؤالاً.

قالت: "مارثا، هل تألمت غاسلة الأطباق من أسنانها ثانيةً اليوم؟".

فتنبهت مارثا وقالت: "ماذا يجعلك تقولين ذلك؟".

"لأنى عندما انتظرتك طويلاً قبل أن تعودى، فتحت الباب ومشيت فى الردهة لأرى إن كنت قادمة. وسمعت هذا البكاء البعيد مرة ثانية. تمامًا مثل الذى سمعناه فى الليلة السابقة. لا يوجد رياح اليوم، لذلك فلا يمكن أن يكون صوت الرياح".

قالت مارثا بدون ارتياح: "إيه! ما كان يجدر بك أن تمشى عبر الردهات وتتنصتى. ذلك يغضب السيد كرافن ولا يعلم أحد ماذا يمكن أن يفعل".

قالت مارى: "لم أكن أتنصت، كنت فقط أنتظرك وسمعته. وحدث ذلك ثلاث مرات".

"يا إلهى! هاهو جرس السيدة ميدلوك"، قالتها مارثا وهرولت خارج الغرفة.

قالت مارى والنعاس يغلبها: "إنه أغرب منزل عاش فيه إنسان".

على حين ألقت برأسها على المقعد المزود بوسادة قريبة من كرسيها. أنهكها المكوث فى الهواء النقى والحفر وحبل التقافز، فغرقت فى النوم.

الفصل العاشر

ديكون

غابت الشمس عن الحديقة السرية لمدة أسبوع. هكذا كانت تسميها مارى عندما كانت تفكر فيها. إنها أحبت الاسم، كما أحبت حتى الإحساس عندما تحبسها أسوار الحديقة القديمة الجميلة. تكاد تكون وكأنها أُخرِجت من العالم إلى مكان يستوطنه الجن. كانت الكتب القليلة التى قرأتها تحكى عن قصص الجن، وقد قرأت عن الحدائق الغامضة فى بعض القصص. أحيانًا كان أناس ينامون فى هذه الحدائق لمئة عام، ما وصفته بالغباء. لم تكن تنتوى النوم ، حقيقة كانت لتظل متيقظة فى كل يوم يمر فى ميسلثويت. كانت قد بدأت فى حب الخروج من المنزل، ولم تعد تكره الرياح، بل استمتعت بها. استطاعت أن تجرى أسرع ولمسافة أكبر، واستطاعت أن تثب لمئة مرة. لابد أن مصابيح الحديقة أصابها الذهول. مثل هذه الأماكن الجميلة الرائقة التى أحاطت بهذه المصابيح، حيث إنها أخذت كل ما تريد من محيط التنفس، وحقيقة لو كانت السيدة مارى تعرف ذلك، إن هذه الأماكن بدأت تبتهج تحت الأرض المظلمة وتعمل بشكل مروع.

تمكنت الشمس من أن تصل إلى هذه الأماكن وتغمرها بالدفء، وعندما هطل المطر غمرها فى الحال، ومن هنا بدأت تشعر بالحيوية أكثر.

كانت مارى شخصية صغيرة منعزلة مصممة، والآن وجدت الشىء الذى تهتم به وتنتهى إليه، فلكم كانت منهمكة من قبل. كم عملت وحفرت والتقطت الأعشاب فى مثابرة من أمرها. لكنها تشعر بالسعادة مع كل ساعة تمر عليها فى العمل ناهيك عن شعورها بالتعب. كان يبدو لها ذلك الأمر بمثابة مسرحية ممتعة. وكانت قد وجدت الكثير من البراعم الشاحبة ذات النقاط الخضراء بشكل أكبر مما كانت تتمنى أن تجد. ويبدو أنهم قد استهلوا فى ذلك الأمر فى كل مكان وفى كل يوم فقد كانت واثقة أنها وجدت أشكالاً أخرى جديدة وصغيرة، وبعضها دقيق جدًا لاحت بشق الأنفس فوق الأرض. كان يوجد الكثير، الشىء الذى ذكرها بما قالته مارثا عن "زهرات اللبن الثلجية نحو الآلاف" ونباتات أخرى بصلية الشكل انتشرت وكونت أنواعًا جديدة.

وهؤلاء قد تركوا لأنفسهم لعشرات السنين وربما قد انتشروا فى آلاف ، مثل زهرات اللبن الثلجية. ثم تعجبت كم من الوقت يستغرقها قبل أن تصير زهرات. وكانت تتوقف عن العزق فى بعض الأحيان لتنظر إلى الحديقة، وتحاول أن تتخيل كيف ستبدو الحديقة حينما تغطى بآلاف من الأشياء المزهرة الجميلة.

خلال هذا الأسبوع المشمس، كانت مارى أكثر حميمية مع "بن وذرستاف". كانت تفاجئه مرات عديدة بالظهور بجانبه كما لو أنها انبثقت

من الأرض. فى الحقيقة إنها كانت تخاف أن يأخذ معداته ويذهب لو رآها آتية من بعيد لذلك كانت تتسلل نحوه بصوت خافت قدر الإمكان. لكن فى الحقيقة لم يعترض على فعلها هذا كما كان يفعل فى بادئ الأمر. ربما كان مفتونًا بداخله من انبهارها بشركته التى أكل عليها الزمان وشرب. ثم إنها أيضًا كانت أكثر تمدنًا من ذى قبل. لم يكن يعلم أنها عندما رأته للمرة الأولى كانت تحدثه وكأنها تحدث رجلاً من قومها، ولم يكن يعرف أن رجلاً قويًا من "يوركشاير" يألف تحية أسياده، وأنه فقط يتلقى منهم الأوامر لفعل أشياء.

قال لها ذات صباح عندما رفع رأسه ووجدها واقفة أمامه: "أنت مثل طائر أبى الحناء، لا أعرف مطلقًا متى يمكن أن أراك ومن أى جهة ستأتين".

قالت مارى: "إنه صديقى الآن"

فقال بن وذرستاف بحدة وبسرعة: "هكذا هو، يتجمل للنساء فقط للزهو والخيلاء. لم يكن ليفعل شيئًا إلا للتباهى. يملؤه الغرور مثلما يملأ اللحم البيضة".

نادرًا ما كان يتحدث كثيرًا، وفى بعض الأحيان لم يكن حتى يجيب أسئلة مارى إلا بإيماءة، لكن هذا الصباح تحدث معها أكثر مما هو معتاد. وقف وأسند أحد حذاءيه الطويلين المزود بمسامير، فوق مجرافه وهو يتفحصها. هزها بعنف وقال: "منذ متى وأنتِ هنا؟". فأجابت: "أعتقد منذ حوالى شهر".

فقال: "أنت الآن تفسدين سمعة "ميسلثويت"، لقد أصبحت أسمن مما كنت عليه فى البداية ولم تشتكى. حينما أتيت إلى هذه الحديقة كنت تشبهين بقرة صغيرة مهترئة. أفكر بينى وبين نفسى إننى أبدًا لن أضع عينى على وجه أقبح ولا أفسد من ذلك".

لم تكن مارى تافهة، وكما أنها لم تفكر كثيرًا فى شكلها، فإنها لم تتأثر كثيرًا بكلامه. قالت: "أعرف أننى الآن أسمن، جواربى تضيق علىّ. اعتدت فيها على النتوءات. ها هو طائر أبى الحناء يا بن وذرستاف".

بالفعل ظهر طائر أبو الحناء، وكانت تعتقد أنه سيبدو أفضل من ذى قبل. كانت صدريته الحمراء ناعمة كالحرير، كان يحرك جناحيه وذيله ويمايل رأسه، وكان يتبختر بكل ما يملك من مزايا. بدا عليه إصراره على كسب إعجاب بن وذرستاف. لكن بن كان ساخرًا.

قال: "نعم، هذا هو أنت، أحيانًا يمكنك أن تتحملنى عندما لا تجد أفضل منى. لا تنفك تحمر صدريتك وتلمع ريشك فى هذين الأسبوعين. أعرف ما صرت إليه. أغريت سيدة صغيرة وقحة فى مكان ما، ناشرًا لها أكاذيبك حول كونك أفضل ذكور أبى الحناء فى "ميسيل مور" ومستعد لمصارعة كل الذكور الباقين".

هتفت ميرى: "أوه، انظر إليه!".

كان من الواضح على الطائر مزاجه الساحر والجرىء. وثب ليقترب أكثر وأكثر ونظر إلى بن وذرستاف بشكل فاتن أكثر وأكثر. طار إلى أقرب شجيرة عنب ومال برأسه وأخذ يغنى أغنية رقيقة له.

قال بن مكشرًا وجهه بطريقة جعلت مارى تشعر أنه كان يحاول ألا يبدو سعيدًا: "تعتقد أنك ستتغلب عليّ بفعل ذلك، تعتقد أن لا أحد يستطيع مضاهاتك، هذا ما تظنه".

فرد أبو الحناء جناحيه، لم تكن مارى تصدق عينيها. طار عاليًا إلى مقبض مجراف بن وذرستاف وهبط على قمته. ثم تكشر وجه الرجل العجوز ببطء ليصنع تعبيرًا جديدًا. وقف ساكنًا وكأن على رأسه الطير، كأنه ما كان يجب أن يخرج إلى الدنيا خشية أن يظهر أبو حنائه. قال بصوت خافت: "حسنًا، أعترف بخسارتى!"، قالها وكأنه كان يقول شيئًا آخر.

"أنت تعرف كيف تصل إلى ما تريد؛ نعم تعرف! عندك عدالة السماء، وتعرف الكثير".

وقف بدون حراك، لم يتنفس تقريبًا، حتى ضرب أبو الحناء بجناحيه ضربة أخرى وطار بعيدًا. ثم توقف نظره على مقبض المجراف وكأن به شيئًا من السحر، ثم عاود العزق ولم يقل شيئًا لدقائق عدة. لكن لأنه كسر تكشيرته المعتادة من وقتها فصاعدًا، لم تخف مارى أن تتكلم إليه.

قالت: "هل لديك حديقة خاصة؟".

"لا. أنا مزارع وأسكن مع مارتن عند البوابة".

"لو لديك حديقة، ماذا كنت ستزرع فيها؟".

"كرنب و .... وبصل".

"ولكن ماذا لو أردت أن تزرع حديقة زهور، ماذا كنت ستزرع ؟ ".

"بصلات النباتات، ونباتات ذات رائحة جميلة – فى الغالب زهور".

تهلل وجه مارى وقالت: "هل تحب الزهور؟ ".

اجتث بن وذرستاف عشبة ضارة ورماها جانبًا ثم أجاب:

"حسنًا، نعم أحب الزهور. تعلمت ذلك من سيدة صغيرة كنت أعمل لديها بستانيًا. كان لديها كثير من الزهور فى مكان تعشقه، وأحبت هذه الزهور كما لو كانت أطفالاً – أو طيور أبى الحناء. رأيتها تنحنى وتقبلها".

وانتزع عشبة أخرى ونظر إليها شزرًا "كان ذلك منذ ما يقرب من عشر سنين".

قالت مارى بشغف أكبر: "أين هى الآن؟ "

أجاب وهو يقود مجرافه إلى داخل الحقل: "فى السماء، تسمع إلى أحاديث الكاهن".

فسألته مارى باهتمام أكبر وأكبر: "ماذا حدث للزهور؟ ".

"تركت لحالها ".

بلغت الإثارة بمارى ما بلغت، ثم غامرت وسألت:

"هل ماتت الزهور تمامًا؟ هل تموت الزهور بالمرة لو تركت لحالها؟ ".

اعترف بن وذرستاف على مضض: "حسنًا، لقد أحببت الزهور، وأحببت السيدة، وهى أحبت الزهور. لقد ذهبت لمرة أو مرتين فى عام لأعتنى بها قليلاً – أهذبها وأنظف التربة حولها. لقد ذبلت، لكنها كانت فى تربة خصبة، فعاش كثير منها".

استفسرت مارى: "عندما تصبح الزهور بلا أوراق ويتحول لونها إلى الرمادى والبنى وتجف، كيف تحكم إذا كانت حية أو ميتة؟".

"انتظرى حتى يأتى الربيع عليها – انتظرى حتى تشرق الشمس على قطرات المطر وينهمر المطر على أشعة الشمس، ومن هنا ستعرفين".

صاحت مارى: "كيف ... كيف؟" ولم تدارى اهتمامها.

"تفحصى الغصون والفروع، ولو رأيت ورمًا ينتشر هنا وهناك، لاحظيها بعد المطر الدافئ وانظرى ماذا يحدث".

توقف فجأة ونظر إلى وجهها الشغوف بفضول وسألها: "لماذا كل هذا الاهتمام منك بالزهور وهذه الأشياء، كل ذلك فجأة؟".

أحست الآنسة مارى بحمرة تعلو وجهها، وكان يبدو أنها تخشى أن تجيب.

تلعثمت وقالت: "أنا – أنا أريد أن أقول – إن لى حديقة خاصة، أنا – ليس هناك شىء أفعله. ليس لدى شىء – وليس لدى أحد".

فقال بن وذرستاف ببطء وهو ينظر إليها: "حسنًا، هذا صحيح. ليس لديك".

قال ذلك بطريقة غريبة جعلت مارى تشك إن كان بالفعل تعاطف معها. لم تتعاطف هى مع نفسها قط؛ كانت فقط تحس بالتعب والمحنة، لأنها كانت تكره الناس والأشياء كثيرًا. لكن العالم الآن يبدو أنه يتغير ويتحول للأحسن. لو لم يكتشف أحد الحديقة الغامضة فإنها ستستمتع بوقتها دائمًا.

ظلت معه لعشر دقائق أكثر أو خمس عشرة دقيقة سألته خلالها كل ما إجترأت أن تسأله. أجابها على كل هذه الأسئلة بطريقته المريبة المتجشمة، ولم يبد عليه الحنق ولم يأخذ مجرافه ويتركها. قال شيئًا عن الزهور عند مغادرتها فتذكرت الزهيرات التى قال إنه مولع بها.

سألته: "هل تذهب الآن وترى هذه الزهور؟".

"هذا العام لم أذهب. آلام المفاصل جعلت مفاصلى متصلبة".

قالها بصوته المتمتم، ثم فجأة بدا عليه الغضب منها، ولم تعرف لماذا.

قال بحدة: "الآن انظرى هنا، لا تسألى أسئلة كثيرة كهذه. أنت أسوأ فتاة تسأل قابلتها. اذهبى والعبى بعيدًا. كان عملى اليوم هو الكلام". قال ذلك بحنق جعلها تتأكد أن لا فائدة من البقاء معه ولو لدقيقة واحدة أخرى. ذهبت وهى تثب ببطء فى الممشى الخارجى، منشغلة به وقائلة لنفسها، شىء غريب، هنا شخص آخر أحببته على الرغم من سرعة غضبه. لقد أحببت بن وذرستاف الكهل. نعم، أحبته. كانت دائمًا تحاول أن تجعله يتحدث معها. بدأت أيضًا تعتقد أنه أكثر الناس معرفة بالزهور فى العالم.

كان هناك ممشى مسيج بغار يلف الحديقة وينتهى إلى بوابة تفتح إلى أشجار كثيفة فى الغابة. فكرت أن تقفز على الممشى حول الحديقة الغامضة وتنظر فى الغابة لترى لو كان هناك أىَ أرانب تتقافز. استمتعت بالقفز كثيرًا وعندما وصلت إلى البوابة الصغيرة فتحتها ودخلت لأنها سمعت صفيرًا خافتًا وغريبًا وأرادت أن تستبينه.

لقد كان بالفعل شيئًا غريبًا. التقطت أنفاسها بشدة حين توقفت لتنظر إليه. رأت صبيًا يجلس تحت شجرة، مسندا ظهره إليها، وهو يلهو بأنبوب خشبى خشن. كان صبيًّا مريبًا فى عمر الثانية عشرة، أنيق المظهر ذا أنف أحدب وخد أحمر كالخشخاش، ولم تر السيدة مارى من قبل عينى طفل فى مثل تلك الاستدارة وتلك الزرقة. وعلى جذع تلك الشجرة التى يستند عليها رأت سنجابًا بنى اللون متشبثًا بالشجرة يرقب الصبى ورأت طائر دُرجة عند شجيرة قريبة يشد رقبته برقة ليرى، ورأت أرنبين يجلسان منتصبين بالقرب منه ويتنشقان بأنفيهما المرتجفة، ويبدو جليًّا أن جميعها التفت حوله لترقبه وتنصت لذاك النداء الخافت الغريب الذى يتراءى من أنبوبه.

عندما رأى مارى رفع يده عاليًا وتحدث إليها بصوت لا يقل ضعفًا عن صوت أنبوبه

"لا تتحركى، سأجعلها ترحل". ظلت مارى ساكنة. توقف غن عزفه وبدأ ينهض من على الأرض. تحرك ببطء شديد وكأنه واقف مكانه، ولكن فى النهاية وقف على قدميه وإذا بالسنجاب يفر راجعًا إلى فروع شجرته، وطائر الدرجة سحب رأسه والأرنبان نزلا على الأقدام الأربعة وبدآ يقفزان بعيدًا ولم يظهر عليهما الخوف بالمرة.

"أنا ديكون، أعرف أنك الآنسة مارى". فأدركت مارى أنها بشكل ما عرفت أنه ديكون منذ الوهلة الأولى. من غيره كان يمكن أن يسحر الأرانب وطيور الدرجة مثلما يفعل الهنود مع الثعابين؟ كان له فم واسع أحمر منحنٍ وكانت ابتسامته تتوزع على وجهه كله.

قال موضحًا: "لقد نهضت ببطء لأنى لو صدر منى أى حركة سريعة لكنت روعتها. يجب على المرء أن يتحرك بلطف ويتكلم بصوت منخفض فى حضرة الكائنات البرية".

لم يتحدث إليها، وكأنهما لا يعرفان بعضهما من قبل،

ولكن كما لو أنه يعرفها جيدًا. لم تكن مارى تعرف شيئًا عن الصبيان، وقد تحدثت إليه بشىء من الصرامة لأنها شعرت بخجل شديد.

سألته: "هل وصلك خطاب مارثا؟".

أومأ برأسه المجعد صدئ اللون "لهذا أتيت".

انحنى ليلتقط شيئًا كان ملقى على الأرض بجانبه أثناء عزفه.

"لقد أتيت بأدوات الحديقة. هنا مجراف صغير وأداة لتقليب التربة وشوكة وعازقة: إنها أشياء جيدة. يوجد فأس (أداة يسوى بها الطين) أيضًا. وقد وضعت سيدة المحل نبتة خشخاش أبيض ونبتة مزهرة زرقاء عندما اشتريت البذور الأخرى".

قالت مارى: "هل سترينني البذور؟".

كانت تتمنى لو أنها تستطيع التحدث مثله. كان يتحدث بسرعة وسهولة. كان يبدو أنه استحسنها مع عدم خوفه من أنها لا تستحسنه، بالرغم من أنه مجرد صبى بربرى عادى بملابس مرقعة ووجه مضحك ورأس مجعد يكسوه لون الصدأ الأحمر. عندما اقتربت منه لاحظت رائحة رائقة منعشة لنباتات وحشائش وأوراق تحيط به. أحبت تلك الرائحة كثيرًا وعندما نظرت فى وجهه المضحك بخديه الأحمرين وعينيه الدائريتين الزرقاوين، نسيت إحساسها بالخجل.

قالت : "دعنا نجلس على هذا الزند ونراهم".

جلسا، وأخرج من جيب معطفه حزمة ورق بنية خرقاء صغيرة. فك الرباط وبالداخل كان يوجد الكثير من الحزم أصغر وأكثر نعومة كل واحدة منها عليها صورة لزهرة.

قَالَ: "هناك الكثير من نباتات المينونيت(*) الفواحة والخشخاش، ويعتبر هذا النبات الفواح الأجمل رائحة حينما ينمو، وهو ينمو فى أى مكان تضعينه فيه، وهكذا الحال مع الخشخاش. ستنمو وتزدهر عندما فقط تصفرين لها. إنها الأجمل".

توقف وأدار رأسه بسرعة، تهلل وجهه ذو الخد الخشخاشى.

قال: "أين هذا الطائر الذى يدعونا؟" جاء صوت سقسقته من شجيرة كثيفة شائكة الأطراف، تلمع بها ثمار قرمزية، ظنت مارى أنها تعرف صاحبها.

سألت: "هل هو حقًا يدعونا؟".

"نعم،" قالها ديكون وكأن ذلك أكثر شيء طبيعى فى العالم، "إنه يدعو صديقًا له. تمامًا كما تقولين ها أنذا. انظرى إليّ. أريد طائر الأبلق. إنه هناك فى الشجيرة. من صاحبه"؟.

أجابت مارى: "صاحبه هو بن وذرستاف، ولكن أعتقد أنه يعرفنى قليلاً".

(*) mignonette: نبات بزهر أخضر صغير، ورائحة حلوة، ذات قيمة عالية فى صناعة العطور لزيوتها الضرورية.

قال ديكون بصوته الخافت مرة أخرى: "نعم، هو يعرفك، وهو يحبك. لقد واجهكِ. وسيقول لى كل شىء عنك فى دقيقة".

تحرك ليقترب كثيرًا من الشجيرة بحركته البطيئة التى لاحظتها مارى من قبل، ثم أصدر صوتًا تمامًا مثل صوت طائر أبى الحناء. أنصت الطائر لبضع ثوانٍ، وبتركيز، ثم رد بصوته وكأنه يجيب عن سؤال.

ضحك ديكون وقال: "نعم، إنه صديقكِ".

فصاحت مارى بشغف: "أتظن أنه صديقى؟" وأرادت أن تعرف : "هل تعتقد أنه حقًا يحبنى؟".

فأجاب ديكون: "لو لم يحبك ما جاء قريبًا منكِ، الطيور نادرًا ما تختار أصدقاء. وطائر أبى الحناء يمكن أن يهين شخصًا أكثر مما يفعله الإنسان. انظرى، إنه يتجمل لك الآن إنه يقول: ألا تستطيعين أن ترين فتى؟".

يبدو الأمر وكأنه حقيقى. ولذلك مشى الطائر جانبًا وأخذ يزقزق ويتمايل على حين كان يثب على شجيرته. فسألت مارى: "هل تفهم كل ما تنطق به الطيور؟". اتسعت ابتسامة ديكون حتى بدا كل فمه الأحمر المقوس العريض، وفرك رأسه المجعد.

قال: "أعتقد ذلك، وهى تعتقد أننى أستطيع .فقد عشت معها طويلاً فى البرارى.فقد شاهدتها تشق البيض وتخرج وشاهدتها حين نبت ريشها وحين تعلمت الطيران وابتدأت الغناء، حتى أظن أننى واحد منها. أحيانا أعتقد أننى طائر،أو ثعلب أو أرنب أو سنجاب أو حتى خنفساء ولا أدرى".

ثم ضحك بعد ذلك وعاد للكتلة الخشبية مرة أخرى وبدأ يستكمل الحديث عن بذور الأزهار.وأخبرها كيف تبدو حين تصير أزهارًا، وكيف تزرعها وتتابعها تغذيها وتسقيها.

ثم فاجأها قائلاً: "انظرى هنا" مستديرًا لينظر إليها وقال "سأزرعها بنفسى من أجلك. أين تلك الحديقة؟" أمسكت يديها الرقيقتين معًا فوق صدرها. لم تدرى ماذا تقول وظلت صامتة لدقيقة كاملة، فلم تفكر فى ذلك مطلقًا. شعرت باليأس وبالاحمرار ثم الشحوب . فقال ديكون: "لديك حديقة صغيرة، أليس كذلك؟".

كان حقيقيًا أن احمرت ثم أصبحت شاحبة. رآها ديكون على هذه الحال. تحير لأنها لم تقل شيئًا، ثم سألها: "ألم يعطوك حديقة صغيرة؟ أليس لديكِ واحدة الآن؟".

أحكمت يديها أكثر وحولت عينيها نحوه وقالت فى بطء: "لا أعرف شيئًا عن الصبية، فهل تحفظ لى سرًا إن أخبرتك إياه ؟ إنه سر خطير ولا أدرى ماذا أفعل لو اكتشفه أحد. أظننى سأموت".

قالت تلك الجملة الأخيرة فى خوف. بدا ديكون أكثر حيرة من ذى قبل وبدأ يفرك يده فى رأسه المجعد ثانية. لكنه أجاب بشكل لطيف جدًا.

وقال: "إننى أحتفظ بأسرار طيلة الوقت، لو أننى لم أحتفظ بأسرار الفتيان الآخرين وأشبال الثعالب وأعشاش الطيور وثغور الكائنات البرية، كان سينعدم الأمان فى هذه البرارى. نعم، أستطيع حفظ الأسرار".

لم تقصد الآنسة مارى أن تخرج يديها وتتشبث بقميصه لكنها فعلت ذلك. وقالت بسرعة: "لقد سرقت حديقة. إنها ليست ملكى وليست ملكًا لأحد. فلا أحد يريدها ولا أحد يهتم بها، حتى إنها لم يدخلها أحد وربما قد مات كل شيء فيها؛ لست أدرى".

بدأت تشعر بالحرِّ على عكس ما كانت تشعر فى سابق حياتها. وقالت "أنا لا أهتم، أنا لا أهتم! وليس لأحد الحق أن يأخذها منى؛ فأنا وحدى التى أرعاها على حين لم يرعوها هم. هم يسلمونها للموت".

أنهت كلماتها فى أسى وهى تقول: "هم أغلقوها على نفسها". ألقت ذراعيها على وجهها ثم انفجرت فى البكاء __ مسكينة يا مارى.

بدأت عينا ديكون الزرقاوان الفضوليتان تستدير وتستدير وقال: "إيه إيه" ليخرج من حالة التعجب ببطء وبشكل يوحى بتعجبه وتعاطفه فى آن واحد.

قالت مارى: "لا أستطيع فعل شيء . فلا أملك شيئًا. وجدتها بنفسى ودخلتها وحدى. كنت فقط أشبه أبا الحناء ولم يكن أحد ليأخذها من أبى الحناء".

سألها ديكون بصوت منكسر: "أين تقع تلك الحديقة؟"

نهضت الآنسة مارى فى الحال من الكتلة الخشبية، وعرفت أن لديها الآن شعورًا بالتضاد وبالعند، ولم تهتم على الإطلاق، فكانت الهندية المتجبرة والدافئة الحزينة فى نفس الوقت.

قالت مارى "تعال معى أنا سأريك".

قادته مارى حول طريق الغار إلى الممشى حيث نما اللبلاب بشكل كثيف. تبعها ديكون على نحو مريب والشفقة تعلو وجهه. وأحس أنها تقوده ليرى عش طائر غريب؛ لذا فعليه أن يتحرك ببطء. عندما خطت إلى الحائط رفعت اللبلاب المعلق أمامه، كان هناك باب، دفعته مارى ببطء ففتح وعبرا منه معًا، حينها وقفت مارى ولوحت بيدها فى تحدٍّ وجرأة.

ثم قالت: "هذه هى". إنها الحديقة السرية، أنا الوحيدة فى هذا العالم التى تريد لها أن تحيا".

ظل ديكون يتلفت حوله ويتلفت ثانية وثانية.

همس: "آه، إنه مكان جميل غريب! وكأنى فى حلم".

الفصل الحادى عشر

عش طائر السمنة

ظل ديكون ينظر حوله لدقيقتين أو ثلاث، ومارى ترقبه، ثم بدأ يتمشى فيها بعذوبة، وبخفة تفوق مارى لما مشت المرة الأولى، وجدت نفسها بين الجدران الأربعة. كانت عيناه مأخوذة بكل شىء، الأشجار الرمادية والزواحف الرمادية تتسلقها وتتدلى من أغصانها، الكتل المتشابكة على الجدران وبين الأعشاب. الفجوات الدائمة الخضرة بين المقاعد الحجرية وجرار الأزهار الطويلة الواقفة عليها.

وآخر الأمر قال ديكون هامسًا: "لم أكن أتوقع أن سأرى هذا المكان".

فسألته مارى وكان صوتها مرتفعًا: "هل كان لك علم بها من قبل؟"، فأشار لها بإشارة وقال: "لابد أن نخفض أصواتنا وإلا سيسمعنا أحد وينتبه إلى وجودنا هنا بالداخل".

قالت له فى خوف وهى تضع يدها على فمها: "آه! لقد نسيت، هل تعرف بأمر تلك الحديقة؟".

كررت عليه السؤال بعدما استعادت نفَسها.

فأومأ ديكون برأسه وقال "أخبرتنى مارثا أن هناك حديقة لم يدخلها أحد من قبل"

وأجاب أيضًا: "ولطالما كنا نتساءل ما هو شكلها؟"

ثم توقف ونظر على الكتل الرمادية المتشابكة الرائعة من حوله، وعيناه المستديرتان سعيدتان سعادة مفرطة.

وأضاف قائلاً: "سوف تأتى الأعشاش فى فصل الربيع، ستكون الأعشاش الأكثر أمنا فى إنجلترا. فلن يقترب أحد من هذه الأشجار والورود المتشابكة ليبنى فيها. وإننى أتعجب كيف أن طيور البرارى لا تبنى الأعشاش هنا".

وضعت مارى يدها على زراعه للمرة الثانية دون أن تدرك ذلك. ثم همست له: "هل تكون هنا ورود؟ هل يمكنك إخبارى؟ فقد ظننت أن كلها ماتت".

أجاب ديكون: "لا، ليست هى، ليس جميعها، فلتنظرى هنا!" ثم خطا نحو أقرب شجرة عجوز، شجرة قديمة يغطى نبات الأشنة كل لحائها لكنه يدعم ستارة من الفروع المزهرة والأغصان المتشابكة ثم أخرج سكينًا سميكًا من جيبه وشق إحدى أوراقها.

ثم قال": هنا كثير من الأخشاب الميتة ولابد من قطعها، وكثير من الأخشاب القديمة لكنها خلقت بعض الأخشاب الجديدة فى العام الماضى"، لمس ديكون قطعة تبدو خضراء نكناء بدلاً من القطع الصلبة الجافة الرمادية وقال:"هذه قطعة جديدة"، لمستها مارى بنفسها وكلها توق به وقار وقالت"أهذه واحدة؟ أهذه حية__ حية؟"هنا قوس ديكون فمه الواسع الباسم.

وقال:"إنها فتيلة مثلك أو مثلى". هنا تذكرت مارى أن مارثا قد أخبرتها بأن كلمة فتيلة تعنى "حيوية"أو "حيًا".

فصرخت فى همس:"أنا مسرورة لأنها حية. أريد إحياءها جميعًا". لهثت باشتياق وقالت:"تعال ندور بأنحاء الحديقة ونعد القطع الحية".كان ديكون متلهفًا مثلها.تنقلا من شجرة إلى شجرة ومن شجيرة إلى أخرى وديكون يحمل سكينه فى يده وبين لها أشياءَ رأتها رائعة.

وقال:"لقد أصبحت الأشجار بريّة ، لكن الأجزاء القوية لا زالت مزدهرة، أما الضعيفة الحساسة منها فقد انقرضت، والباقى انتشر حتى صار أعجوبة، فانظرى هنا!"وجذب لها غصنًا سميكًا رماديًا يبدو جافًا. ثم أضاف قائلاً:"يظن الإنسان أن هذا كان خشبًا ميتا، لكننى لا أعتقد ذلك. سأقطع عند مستوى منخفض ناحية الجذور لأرى".

جثا على ركبتيه وأخذ يقطع بسكينه الأغصان التى تبدو دون حياة على مستوى لا يبعد عن الأرض. قال ديكون بابتهاج:"هنا، أخبرتك أنه هنا،

يوجد اخضرار فى الأخشاب إلى الآن، انظرى إلى ذلك. قبل أن يتحدث نزلت مارى على ركبتيها محدقة بكل كيانها. بدأ يشرح لها وقال: "عندما تجدينها مخضرة قليلاً وبها عصارة مثل هذه فاعلمى أنها حية مثل تلك التى فصلتها. وإن رأيتِ بها جفافًا ووجدتها سهلة الكسر مثل التى قطعتها هناك، فإنها ميتة. وهنا جذر كبير وكأن كل ما حوله خرج منه، فإذا قطعت كل الأخشاب القديمة وحفرنا حولها وواليناها بالرعاية الكافية فسوف— توقف ديكون ورفع رأسه لأعلى ناظرًا لكل الغصون المزهرة المتسلقة والمعلقة أعلى منه — تكون هنا نافورة من الورد بحلول هذا الصيف".

تنقلا من شجيرة إلى أخرى ومن شجرة إلى الثانية. وأنبأ ديكون عن براعته فلقد كان قويًا ماهرًا بسكينه، وعلم جيدًا كيف يستبعد الأجزاء الجافة الميتة، واستطاع أن يعرف إذا ما كان الغصن غير مرجوٍّ له النجاح أو مازالت تدب فيه الحياة الخضراء. فى تلك الدورة التى استغرقت نصف الساعة ظنت مارى أنها تستطيع فعل ذلك أيضًا، كادت مارى تطلق بين أنفاسها صرخة من البهجة والسعادة حين قطع غصنًا ليس به حياة وأمسكت تحته ظلاً أخضر رطبًا. كان المجراف والعازقة والشوكة مفيدين جدًا. وضح لها كيف تستخدم الشوكة على حين كان يحفر حول الجذور بالمجراف ليثير التربة ويخللها بالهواء.

ظلاً يعملان ويكدحان حول واحدة من كبرى الزهور، كانت قياسية من نوعها وكان إذا رأى شيئًا ملفتًا يطلق صرخات التعجب والمفاجأة. فهنا

صرخ وهو يشير إلى العشب الذى يبعد خطوات قليلة وقال: "لماذا؟ من فعل ذلك؟" حين رأى أحد أدوات مارى الخاصة الصغيرة حول النقاط الخضراء الشاحبة. قالت مارى "أنا فعلت ذلك".

فتعجب قائلاً: "لماذا فقد ظننتك لا تعرفين شيئًا عن البستنة".

قالت مارى: "أنا فعلاً لا أعرف، لكنها كانت ضعيفة جدًا والعشب كان سميكًا وقويًا، لم يكن لديها مجال للتنفس. لذلك وفرت لها مساحة كافية، أنا حتى لا أعرف ما هى".

ذهب ديكون وجثا قريبًا منها بابتسامته العريضة. قال: "أنت محقة، ما كان البستانى ليفعل أفضل مما فعلتِ، ستنمو الآن مثل قصبة الفاصوليا المتسلقة. هذه شجيرات زعفران وأزهار الثلج، وهذه شجيرات النرجس،" ثم التفت إلى منطقة أخرى وقال: "وزهور النرجس هذه سيكون منظرها جميلاً".

تنقل من رقعة أرض إلى أخرى، قال وهو ينظر إليها: "لقد أتممت أعمالاً تصعب على فتاة مثلك".

قالت مارى: "إن جسمى يزداد حجمًا وقوة، اعتدت دائمًا أن أكون متعبة، والحفر لا يمثل تعبًا لى بالمرة. وتروق لى رائحة التربة وأنا أقلبها".

أومأ ديكون برأسه فى تعقل وقال: "هذا من أفضل الأشياء لك. فلا يوجد أجمل من رائحة التربة النقية، إلا رائحة البراعم عند سقوط المطر. فى يوم المطر أخرج إلى البرارى، أتكئ تحت شجيرة وأنصت إلى حفيف المطر

المتناغم على النبات ولا أفعل إلا أن أستنشق وأستنشق حتى تقول أمى إن مقدمة أنفى تهتز مثل أنف الأرنب".

تساءلت مارى وهى تحدق فيه: "ألم تصب بالبرد قط؟". فهى لم تقابل ولدًا مسليًا وظريفًا مثله.

قال وهو يبتسم: "ليس أنا، منذ أن ولدت لم أصب بالبرد قط. كنت أتجول فى البرارى فى جميع الأحوال الجوية كما تفعل الأرانب. قالت أمى إننى استنشقت هواءً نقيًا جدًا لمدة اثنى عشر عامًا مما جعلنى لا أصاب بالبرد. فأنا قوى مثل النبوت.

كان ديكون يعمل فى أثناء الحديث وكانت مارى تتبعه وتساعده بشوكتها.

قال فجأة وهو ينظر حوله بابتهاج: "لدينا الكثير من العمل هنا".

قالت مارى فى توسل: "هل ستأتى ثانية لتساعدنى فى العمل؟ أنا واثقة من أننى أيضًا أستطيع المساهمة. فأنا أقدر على العزق وسحب الأعشاب الضارة وسأفعل كل ما تطلبه منى مهما كان. آهٍ يا ديكون فلتأتِ إذن".

أجابها بقوة: "سأجيء كل يوم إن أردتنى فى الصحوِ كان أو فى المطر، إنها أجمل متعة أحظى بها فى حياتى- أن أنام وأستيقظ فى الحديقة".

فقالت: "إذا كنت ستأتى، وتساعدنى فى إحيائها فسوف__ لا أعرف ما الذى سأفعله" أنهت كلماتها فى إحساس بالعجز. قالت لنفسها: "ما الذى تستطيعين فعله لفتى كهذا؟".

قال نيكون بابتسامته الفرحة: "سأخبرك ماذا تفعلين، سيزيد وزنك وتصبحين جائعة مثل ثعلب صغير بدأ لتوه فى المشى وستتعلمين كيف تذهبين مثلى إلى طائر أبى الحناء. آه! سنستمتع كثيرًا" .

وأخذ يتجول بين الأشجار وتحت الأسوار والشجيرات وذهنه مشغول.

قال : "لا أريد أن أجعلها كحديقة يرعاها بستانى، كل ما فيها مطوق ومختصر، أليس كذلك؟ من الأفضل أن يكون بها أشجار طبيعية وبرية تتدلى وتتشابك ببعضها" .

قالت مارى بشغف: "لا تجعلها تبدو منسقة، فهى لن تكون سرية إذا كانت منسقة".

وقف نيكون وهو يحك رأسه المجعد الأحمر وعليه نظرة حيرى. قال: "إنها بالتأكيد حديقة سرية، ولكن يبدو أن أحدًا بجواره أبو الحناء كان لابد أن يهتم بها منذ أغلقت من عشر سنين" .

قالت مارى: "ولكن كيف كنت لأفعل ذلك؟ ".

كان يختبر فرع زهرة جميلة وهز رأسه.

تمتم قائلاً: "نعم، كيف؟ والباب موصد والمفتاح مدفون " .

كانت الآنسة مارى تشعر دائمًا أنها مهما مر من عمرها فإنها يجب ألا تنسى أول صبح بدأت فيه حديقتها تنمو. بالطبع، بدا لها وكأن الحديقة

بدأت تنمو فى هذا الصباح. عندما بدأ ديكون ينظف المكان لكى يغرس البذور، تذكرت ما غناه بيسيل لها عندما أراد أن يضايقها.

تساءلت: "هل هناك أية زهور تشبه الأجراس؟ "

أجاب وهو يحفر بالفأس :"زهور السوسن بالوادى، وهناك زهور الكانتربارى وأبراج الأجراس".

قالت مارى:"لنزرع بعضًا منها".

"يوجد بالفعل زهور سوسن هنا فى الوادى؛ لقد رأيتها. عندما تنمو ستكون قريبة جدًا من بعضها وسنضطر لإبعادها عن بعضها، ولكن هناك الكثير. الأنواع الأخرى تأخذ سنتين لتزهر من البذرة، ولكن يمكننى أن أحضر إليكِ بعض أوانى النباتات من حديقتنا الصغيرة. لماذا تريدين هذه الزهور؟ ".

فحكت له مارى عن بيسيل وإخوته وأخواته فى الهند وكيف كانت تكرههم وكيف كانوا يسمونها "الآنسة مارى، متناقضة للغاية".

الآنسة مارى، متناقضة للغاية،

كيف تنمو حديقتك،

بها أجراس فضية، ومحارات رخوية،

ونبات القطيفة فى صفوف،

"تذكرتها للتو، وتعجبت لو كان هناك زهور مثل الأجراس الفضية".

عبست مارى قليلاً، وغرست فأسها فى الأرض بغلٍّ.

قالت: "لم أكن متناقضة مثلهم".

لكن ديكون ضحك. وعلى حين كان يثير التربة السوداء الخصبة رأته يستنشق رائحة، قال: "إيه! لا أظن أن هناك أحدًا يمكن أن يكون متناقضًا ومثل هذه الزهور موجودة، ومعها مثل هذه الأشياء البرية الودودة وهى تصنع لنفسها أوطانًا، أو تبنى أعشاشًا وتغنى وتصفر، أليس كذلك؟".

نظرت مارى إليه وهى جاثية تحمل البذور وأزاحت عن وجهها العبوس.

قالت: "ديكون، أنت طيب فعلاً مثلما قالت مارثا. أنت تعجبنى. لقد أتممت الخمسة. لم أكن أظن أننى سأحب خمسة أشخاص".

جلس ديكون على كعبيه مثلما كانت تفعل مارثا وهى تلمع الموقد. رأته مارى مسليا ومبهجًا بعينيه الدائرتين وخده الأحمر وأنفه السامق السعيد.

قال: "فقط خمسة تحبينهم؟ من هم الأربعة الباقون؟".

أشارت بأصابعها وقالت: "أمك ومارثا وطائر أبى الحناء وبن وذرستاف".

ضحك ديكون لدرجة أنه اضطر أن يكتم صوت ضحكه بيده.

قال: "أعلم أنك تعتقدين أننى الفتى الشاذ، لكننى أعتقد أنك أكثر فتاة شاذة رأيتها".

ثم فعلت مارى شيئًا غريبًا. مالت للأمام وسألته سؤالاً لم تكن تحلم أن تسأله أحدًا. حاولت أن تسأله بلغة يوركشاير لأنها كانت لغته، والمواطن الهندى يسعد لو كلمته بلغته.

قالت: "هل أعجبك؟".

قال بصدق: "نعم ، أحبك أيتها الرائعة، وكذلك يحبك أبو الحناء. أنا موقن من ذلك".

قالت مارى: "أنتما اثنان، اثنان لى".

ثم بدأ فى العمل بجد أكثر وفرح أكبر. فزعت مارى وأسفت عندما سمعت صوت ساعة الفناء الكبيرة تشير إلى موعد وجبة منتصف النهار.

قالت بحزن: "علىّ أن أذهب، وعليك أن تذهب أيضًا، أليس كذلك؟".

تبسم ديكون وقال: "طعامى دائمًا أحمله بسهولة معى. تدعنى أمى دائمًا أضع معى بعض الطعام فى جيبى".

أخذ معطفه من على الحشائش وأخرج من جيبه حزمة صغيرة مكدسة مربوطة بمنديل نظيف به بعض الخشونة ولونه أبيض وأزرق. كان بها قطعتان سميكتان من الخبز بينهما شريحة ما.

قال: "إنه شيء قليل، لكنه خبز ، ولكنني أحضرت معه اليوم قطعة من لحم خنزير سمين مقدد".

رأت ماري أنها وجبة رديئة، لكن بدا مستعدًا للاستمتاع بها.

قال: "اذهبي بسرعة وتناولي غداءك. سأنهي طعامي أولاً. لدي بعض العمل الإضافي قبل عودتي إلى البيت".

جلس مستندًا إلى شجرة. قال: "سأستدعي أبا الحناء وأعطيه قشرة اللحم لينقر فيها. إنه يحب الدهون كثيرًا".

لم تحتمل ماري أن تغادره. فجأة أحست أنه نوع من جن الغابات ولن تراه ثانية عندما تعود إلى الحديقة. كان أطيب من أن يكون إنسيًّا. مشت ببطء حتى وصلت منتصف الطريق المؤدي إلى البوابة، ثم توقفت ورجعت قائلة: "مهما حدث، فلن تخبر أحدًا؟.

انتفخ خداه خشخاشيًا اللون عند أول قضمة من الخبز واللحم، لكنه استطاع أن يبتسم على نحو مشجع.

قال: "لو كنت طائر سمنة(*) وأريتني مكان عشك، هل تعتقدين أنني سأخبر أحدًا؟ ليس أنا. أنت في أمان مثل طائر السمنة".

وكانت متأكدة أنها كذلك.

(*) missel thrush : طائر بني منقط، معروف بصوته العذب وحياته؛ يأكل التوت الهدال، وهذا يساعد في نشر النبات.

الفصل الثانى عشر

هل يمكن أن آخذ قطعة من الأرض؟

ركضت مارى بسرعة حتى كادت تنقطع أنفاسها حال وصولها لغرفتها. انفرد شعرها على جبهتها وأصبح لون خديها ورديًا لامعًا. فى ذلك الوقت كان غداؤها جاهزًا على المائدة ومارثا على مقربة منه.

قالت مارثا: "هذا متأخر قليلاً، أين كنت؟".

ثم قالت بتهلل: "لقد رأيت ديكون،".

قالت مارثا: "أعلم أنه قد جاء، كيف ترينه؟".

قالت مارى بصوت صارم: "أرى ــــ أرى أنه جميل!".

نَظرتْ إليها مارثا وهى مندهشة لكنَّها بدتْ مسرورة أيضًا.

ثم قالت: "حسنًا، إنه أفضل فتى ولد، لم نكن نعتقد بأنه كان وسيمًا هكذا، لكن أنفه ممتد للخارج أكثر من اللازم".

قالت مارى: "أحبها ممتدة للخارج".

فقالت مارثا: "وعينه شديدة الاستدارة، ضئيلة ومريبة، مع أن لونه لطيف".

فقالت لها مارى: "أحبها مستديرة، ولونها بالضبط هو لون السماء التى تعلو البرارى".

أشرق وجه مارى فى ارتياح.

"تقول أمه إن ما جعل لونهم هكذا أنه كان دائمًا ينظر للطيور والغيوم. لكن فمه كبير، أليس كذلك؟".

قالت مارى فى عناد: "إننى أحب فمه الكبير. وأتمنى لو أن فمى كان مثله".

ضحكت مارثا فى ابتهاج وقالت: "كان سيبدو قطعة مضحكة وشاذة فى وجهك الصغير، لكننى علمت أن الأمر سيكون بتلك الطريقة حينما ترينه. لكن كيف تبدو البذور وكيف تبدو أدوات الحديقة؟".

"وكيف علمتِ أنه أحضرهم معه؟".

"لم أكن أشك قط أنه سيحضرهم، كان بالتأكيد ليحضرهم إذا كانوا فى يوركشاير. إنه لفتى وفيّ".

هنا خشيت مارى أن تسألها مارثا أسئلة صعبة، لكنها لم تفعل. كانت شغوفة جدًا بالبذور وأدوات البستنة، شعرت لدقيقة بالخوف. كان ذلك حينما بدأت تسألها عن المكان التى ستزرع فيه الزهور.

سألتها: "من الذى طلبت منه مكانًا لتزرعى فيه؟".

قالت مارى فى تردد: "أنا لم أسأل أحدًا إلى الآن".

"حسنًا، أنا لم أكن لأسأل رئيس البستانيين. إنه عجوز جدًا سيد روتش".

قالت مارى: "أنا لم أره قط، لقد رأيت فقط بعض البستانيين وبن وذرستاف".

فنصحتها مارثا قائلةً: "لو كنت مكانك لسألت بن ونرستاف، إنه ليس سيئًا للغاية كما يبدو ولا تصف ما يبدو، لكنه مشاكس مع الكل، ومستر كرافن يدعه يفعل ما يشاء نظرًا لأنه كان هنا فترة حياة مدام كرافن وكانت تحبه؛ لأنه كان يضاحكها دائمًا. فلربما يجد لكِ زاويةً بعيدة فى مكانٍ ما على الطريق".

قالت مارى بتلهفٍ "وإذا كانت فى مكانٍ بعيد إذن فلن يمانع أحد من اقتنائى لها، أليس كذلك؟".

أجابتها مارثا: "لن يكون لهم مانع لفعل ذلك، فلن تسببى أى ضرر".

تناولت مارى غداءها بأسرع ما يمكنها وعندما قامت من على المائدة كانت ستعدو إلى غرفتها لترتدى القبعة ثانيةً لكن مارثا استوقفتها وقالت: "لدى شيءٌ أريد أن أخبرك به. لكننى تركتك لتتناولى العشاء أولاً. لقد عاد مستر كرافن هذا الصباح وأظن أنه يود رؤيتكِ".

فصارت مارى شاحبة تمامًا.

قالت: "يا إلهى، لماذا، لماذا، فلم يكن يريد أن يرانى عند وصولى. سمعت بتشر وهو يقول ذلك".

فسرت لها مارثا وقالت: "حسنًا، تقول السيدة ميدلوك إن ذلك بسبب أمى. كانت فى طريقها إلى قرية ثويت وقابلته، لم تحادثه قط قبل تلك المرة، لكن مستر كرافن جاء إلى كوخنا مرتين أو ثلاث. ثم نسى، لكن أمى لم تنس الأمر. وتجرأت وأوقفته. أنا لا أدرى ماذا قالت له عنكِ، لكنها قالت له شيئًا جعله يصمم أن يراكِ غدًا قبل رحيله". صرخت مارى: "أوه، هل سيرحل غدًا؟ إننى مسرورة جدًّا!".

"إنه سيرحل لفترة طويلة، ربما لن يعود قبل الخريف أو الشتاء. فسوف يسافر لأماكن أجنبية. إنه دائمًا ما يفعل ذلك".

قالت مارى فى امتنان: "أوه، إننى مسرورة__ مسرورة جدًّا!".

إذا لم يأتِ بحلول الشتاء أو الخريف فسيكون هناك وقت لنشهد الحديقة السرية وهى تبعث إلى الحياة. حتى لو اكتشفها وأخذها منها. فستكون على الأقل قد نالت ذلك وشاهدتها.

"متى تعتقدين برأيك أنه سوف يرى __" لم تكمل مارى جملتها لأن الباب قد فتح، ودخلت السيدة ميدلوك، وقد ارتدت أفضل فستان أسود لديها مع القبعة، وقد وضعت بياقتها دبوس زينة عليه صورة وجه رجل.

إنها صورة ملونة للسيد ميدلوك الذى توفى منذ سنوات، ودائمًا ما ترتديها حينما تهندم نفسها. لكنها بدت قلقة وعصبية.

قالت فى سرعة: "شعرك خشنٌ، اذهبى ونظفيه. ساعديها يا مارثا لترتدى أفضلَ فساتينها. لقد أرسلنى السيد كرافن كى أحضرها له فى حجرة مكتبه".

هرب اللون الوردى من خدى مارى. وبدأ قلبها يخفق بصوتٍ مكتوم وشعرت أنها تتحول ثانية إلى الطفلة الصامتة الشاكية المتصلبة، إنها حتى لم تجب السيدة ميدلوك فقط استدارت ثم مشت نحو حجرتها على حين تبعتها مارثا. ولم تقلْ شيئًا عند تغيير فستانها، ولا فى أثناء تنظيف شعرها، وحينما أصبحت جاهزة ذهبت وتبعت السيدة ميدلوك فى صمتٍ إلى أسفل الممرات. ماذا لديها لتقوله؟ فلقد أرغمت على الذهاب لترى السيد كرافن وهو لا يحبها، وحتى هى لا تحبه. فقد علمت ما الذى يظنه بها.

أخذت إلى مكان من البيت لم تدخله من قبل. فى آخر الأمر طرقت السيدة ميدلوك الباب، ودخلا الغرفة معًا حينما صاح أحدهم "ادخل".

كان بالغرفة رجل جالس على كرسى بذراعين مسندًا أمام المدفأة، فقالت له السيدة ميدلوك، "هذه مارى، يا سيدى".

فقال السيد كرافن: "يمكنك أن تذهبى أنتِ وتتركيها هنا. وسأقرع الجرس لكِ عندما أريدك أن تأخذيها".

حين خرجت السيدة وأغلقت الباب، ما استطاعت مارى إلا أن تقف منتظرةً كشيءٍ صغير شاكٍ وهى تثنى يديها الصغيرتين معًا. فقط رأت أن الشخص الذى على الكرسى لم يكن أحدب إنما رجل ذو كتفين عاليتين عوجاوين، ذو شعر أسود تتخلله خطوط بيضاء ثم رفع رأسه عند كتفيه العاليتين وبدأ يتكلم معها وقال: "تعالى هنا" فذهبت إليه.

لم يكن قبيحًا، بل لو لم يخيم البؤس على وجهه لكان وسيمًا. بدا وكأن رؤيتها أغاظته وكأنه لا يعرف أبدًا ماذا يفعل معها. سألها: "هل أنت بخير؟".

فأجابت: "نعم"،

"هل يهتمون بكِ جيدًا؟"

"نعم".

فرك جبينه بقلق وهو يتفحصها.

قال: "أنت نحيفة جدًا".

أجابت مارى بأقصى ما تعرف من الحدة: "إن وزنى فى زيادة".

ما كان أبأس وجهه. كأن عينيه السمراوين لم ترياها، كأنهما يريان شيئًا آخر، بالكاد كان يعيرها انتباهه.

قال: "لقد نسيتك، كيف لى أن أتذكرك؟ كنت أنتوى أن أرسل إليك مربية أو ممرضة أو أى شخص من هذا القبيل، لكنى نسيت".

بدأت مارى تتحدث. قالت: "من فضلك، من فضلك -" لكنها اختنقت من التهاب كان على حلقها.

تساءل: "ماذا تريدين أن تقولى؟".

قالت مارى: "أنا - أنا كبرت جدًا على احتياجى لمرضة، و - من فضلك، لم أعد فى حاجة إلى مربية".

فرك جبينه ثانية وهو يحدق فيها، وتمتم بلا وعى: "هذا ما قالته المرأة المزارعة".

لملمت بعضًا من الشجاعة، وقالت متلعثمة: "هل هى - هل هى والدة مارثا؟".

أجاب: "نعم، أعتقد ذلك".

قالت مارى: "إن لديها خبرة فى تربية الأطفال، فلديها اثنا عشر طفلاً".

بدأ يفيق ذهنه: "ماذا تريدين أن تفعلى؟".

أجابت مارى وهى تتمنى ألا يهتز صوتها: "أريد أن ألعب خارج المنزل، لم أحب ذلك قط فى الهند، هنا يجعلنى أشعر بالجوع، ويزداد وزنى". كان يشاهدها.

قال: "قالت المرأة المزارعة إن ذلك مفيد لكِ. ربما، لقد اعتقدت أنك لابد أن يقوى جسمك قبل أن يكون لك مربية".

قالت مارى فى جدال: "يزداد شعورى بالقوة عندما ألعب والرياح تمر على البرارى".

ثم سألها: "أين تلعبين؟".

قالت بتلهف: "فى كل مكان، أرسلت إلى والدة مارثا حبلاً للقفز. أقفز وأجرى – وأرى إن كان هناك ما ارتفع عن الأرض. لا أفعل أى شىء ضار".

قال بصوت قلق: "لا تخافى لهذا الحد، لا يمكنك أن تضرى نفسك، لا يفعل ذلك طفل مثلك! لك أن تفعلى ما تشائين".

وضعت مارى يدها على حلقها خشية أن يرى الورم الواضح على حلقها أحست أنه يدخل حلقها. تقدمت خطوة منه. وقالت بارتجاف: "هل يمكننى؟". وبدا أن وجهها الصغير المضطرب أقلقه أكثر من ذى قبل.

تعجب وقال: "لا تخافى لهذا الحد، بالطبع يمكنك. أنا الوصى عليك، مع أنى هزيل بالنسبة لطفل. لا أستطيع أن أوفر لك وقتًا ولا اهتمامًا كافيًا. لقد هدّنى المرض، تعس ومتحير؛ لكنى أتمنى لك السعادة والراحة. لا أدرى أى شىء عن الأطفال، لكن السيدة ميدلوك ترى أن لديك كل ما تحتاجين. أرسلت فى طلبك اليوم لأن السيدة سوربى قالت إننى يجب أن أراكِ. كانت ابنتها قد تحدثت عنكِ. قالت إنك تحتاجين هواءً نقيًا وحرية تمرحين خلالهما".

قالت ماري مرة أخرى : "إنها تعرف كل ما يتعلق بالأطفال".

قال السيد كرافن: "يجدر بها ذلك، أظن لديها من الجرأة ما تستطيع به أن توقفني في البراري، لكنها قالت. كانت السيدة كرافن عطوفة عليها". بدا عليه الأسى عندما ذكر اسم زوجته المتوفاة.

"إنها سيدة محترمة. الآن وقد رأيتِك أرى أنها كانت محقة فيما قالت. العبي خارج المنزل كما تشائين. فالمساحة كبيرة، وتستطيعين أن تذهبي حيث تشائين وترفهي عن نفسك كما تحبين. أتريدين أي شيء؟".

قال وكأن فكرة فاجأته : "هل تريدين ألعابًا، كتبًا أو دمى ؟".

ارتعدت ماري وقالت: "هل يمكنني؟ هل يمكن أن آخذ قطعة من الأرض؟ ".

شغفها الزائد جعلها لا تدرك كم بدت كلماتها غريبة وأنها لم يكن يجب أن تعبر بهذه الكلمات.

اندهش السيد كرافن بعض الشيء، وكرر: "الأرض؟ ماذا تقصدين؟ ".

قالت في تلعثم: "أريد أن أغرس فيها بذورًا وأتركها تنمو، أريد أن أرى نباتات على قيد الحياة".

حدق فيها برهة ثم وضع يده على عينيه.

قال بتؤدة: "هل .. تهتمين بالحدائق كثيرًا؟ ".

قالت ماري:"لم أكن أعرف شيئًا عنها فى الهند، كنت دائمًا مريضة ومنهكة، الحدائق دائمًا كانت حارة. كنت أحيانًا أصنع أحواضًا رملية صغيرة وأضع الزهور فيها. لكن الأمر هنا مختلف".

نهض السيد كرافن وبدأ يتمشى فى الغرفة. قال لنفسه:"قطعة من الأرض".

ظنت ماري أنها بطريقة أو بأخرى ذكرته بشيء ما.

توقف ونظر إليها، كانت عيناه حانيتين وعطوفتين.

قال: "لك ما تريدين من الأرض، لقد ذكرتني بشخص آخر كان يحب الأرض وما ينبت منها". ثم بشبه ابتسامة قال:"عندما ترين قطعة أرض تريدينها، خذيها يا طفلتي، واغرسي فيها الحياة".

"هل يمكنني أن آخذها من أى مكان – إن لم يكن يريده أحد؟".

أجاب:"من أى مكان، اذهبي الآن ، فأنا متعب".

دق الجرس ليدعو السيدة ميدلوك. وقال:"إلى اللقاء، سأكون بعيدًا طوال الصيف".

جاءت السيدة ميدلوك بأسرع مما ظنت ماري، مؤكد أنها كانت تنتظر فى الردهة.

قال السيد كرافن:"السيدة ميدلوك، الآن وقد رأيت الطفلة أدركت ماذا كانت تعني السيدة سوربي يجب أن تكون أقل رقة قبل أن تبدأ دروسها.

أعطيها طعامًا بسيطًا وصحيًا. دعيها تجرى بحرية فى الحديقة. لا تثقلى عليها بالعناية. إنها تحتاج حرية وهواءً نقيًا تمرح فيهما. يجب أن تأتى السيدة سوربى وتراها الآن ولاحقًا، وربما تذهب أحيانًا إلى الكوخ".

بدا السرور على السيدة ميدلوك. أحست بالراحة لأنها لن تضطر بعد الآن للعناية الشاقة بمارى. كانت مهمة متعبة ومملة عليها، ولم تكن تجرؤ أن تظهر إلا القليل مما تعرف. بالإضافة إلى أنها كانت مغرمة بوالدة مارثا.

قالت: "شكرًا سيدى، كنت أنا وسوزان سوربى نذهب معًا إلى المدرسة، وكانت حساسة وطيبة القلب. أنا لم أرزق بأطفال، وهى رزقت باثنى عشر طفلاً ما كان هناك أنظف ولا أكثر صحة منهم. عن نفسى، سوف آخذ دائمًا بنصيحة سوزان سوربى فيما يخص الأطفال. يمكن أن تنعتها بـ "راجحة العقل"— أتفهم ما أعنى؟.

أجاب السيد كرافن: "نعم أفهم، خذى الآنسة مارى الآن وأرسلى إلىّ بتشر".

عندما أخذتها السيدة ميدلوك إلى ردهتها، هرولت مارى إلى غرفتها، حيث وجدت مارثا فى انتظارها. فى الحقيقة رجعت مارثا مسرعة بعدما أخذت أوانى الطعام.

صاحت مارى: "سيكون لى حديقتى الخاصة! فى أى مكان أحب! لن يبقى معى مربية طويلاً! ستأتى أمك لترانى ويمكننى أن أذهب إلى الكوخ! قال إن فتاة صغيرة مثلى لا تتسبب لنفسها بضرر ويمكننى أن أفعل ما أشاء — أينما أشاء".

قالت مارثا بفرح: "إيه ! هذا شيء طيب جدًا منه، أليس كذلك؟".

قالت مارى بوقار: "مارثا، إنه فعلاً رجل طيب، لكنه فقط بائس الوجه دائمًا ومقطب الجبين".

هرولت بأقصى سرعة إلى الحديقة. ابتعدت أكثر مما كان يجب عليها. كانت تعرف أن ديكون لابد وأن يكون خرج مبكرًا إلى ممشاه الذى يبلغ خمسة أميال.

عبرت الباب تحت شجر اللبلاب، لم تجد ديكون يعمل فى المكان الذى تركته فيه. كانت معدات البستنة موضوعة تحت شجرة. جرت نحو المعدات، نظرت فى كل مكان حولها، ولم تر ديكون. ذهب بعيدًا وترك الحديقة الغامضة خاوية إلا من طائر أبى الحناء، وقد حلق فوق السور وهبط على شجيرة ورد ينظر إليها.

قالت فى حزن: "لقد ذهب، هل كان — هل — هل كان مجرد جن الغابات؟"

جذب انتباهها شيء أبيض كان ملصقًا بشجيرة الورد. كانت قطعة من الورق، فى الحقيقة، كان قطعة من خطابها الذى طبعته لمارثا لكى تعطيه إلى ديكون. كان مثبتًا على الشجيرة بشوكة كبيرة، وفى دقيقة عرفت أن ديكون كان قد تركه لها هناك. كان مطبوعًا عليه بعض الحروف الباهتة وشبه صورة. كانت الحروف فى الأسفل وتقول: "سوف أعود".

الفصل الثالث عشر

أنا كولن

أخذت ماري الصورة ورجعت إلى المنزل، عندما ذهبت للعشاء عرضت الصورة على مارثا.

قالت مارثا بفخر كبير: "إيه! لم أكن أعرف مطلقًا أن ديكون الذي أعرفه ذكي هكذا. أن توجد صورة لطائر السمنة على عشه، ضخم وضعف حجمه في الطبيعة".

ثم أدركت ماري أن ديكون قصد من خلال الصورة أن يبعث رسالة. كان يقصد أنها لابد أن تتأكد من أنه سيحفظ سرها. حديقته هي العش وهي مثل طائر السمنة. كيف أحبت هذا الفتى التلقائي الشاذ!

تمنت لو رجع في اليوم التالي، وغرقت في النوم راجية طلوع النهار. لكنها لا تعرف ماذا يفعل الطقس في يوركشاير، وخصوصًا في وقت الربيع. أيقظها في جوف الليل صوت المطر وهو يضرب بقطراته الثقيلة على نافذتها. كان المطر سيولاً تهطل، والرياح كانت تعوي حول أركان

ومداخن البيت الضخم العتيق. قعدت مارى فى سريرها وأحست بالبؤس والغضب.

قالت: "إن المطر دائمًا يسير عكسى تمامًا، إنه يأتى عندما لا أريده".

ألقت بنفسها ثانية على وسادتها ودفنت وجهها فيها. لم تبكِ ، لكنها رقدت كارهة صوت المطر الذى يضرب بقوة، كرهت الرياح وعواءها، لم تستطع أن تعاود النوم. أيقظها الصوت الكئيب وقد شعرت هى نفسها بالكآبة. لو كانت شعرت ببعض سعادة ربما كان ذلك يهدهدها لتنام. كيف عَوَت الرياح وكيف ضربت قطرات المطر الثقيلة على الزجاج!.

قالت: "كأن شخصًا ضل فى البرارى، وظل يتجول ويصرخ هنا وهناك".

ظلت متيقظة تتقلب من جنب إلى آخر لما يقرب من ساعة، وفجأة شىء ما جعلها تهب قاعدة على سريرها تنظر إلى الباب وهى تنصت. ظلت منصتة.

قالت هامسة: "ليس صوت الرياح الآن، ليس الرياح. إنه شىء مختلف. إنه ذاك البكاء الذى سمعته من قبل".

كان الباب غير موصد والصوت قادم من الأسفل عبر الدهليز، صوت بعيد ضعيف من البكاء المتقطع. ظلت منصتة لبضع دقائق وكل دقيقة تمر تجعلها أكثر تأكدًا.

أحست أنه لابد لها من أن تعرف ما هذا الصوت. كان أغرب حتى من الحديقة الغامضة والمفتاح المدفون. ربما مزاجها الثائر جعلها أكثر جرأة. وضعت قدمها على الأرض ووقفت.

قالت: "سأعرف ما هذا. الجميع نائمون ولا أكترث بالسيدة ميدلوك – لا تهمني".

أخذت شمعة كانت بجوار سريرها وسارت في صمت خارجة من غرفتها. ظهر لها الدهليز طويلاً جدًا ومظلمًا، لكن إثارتها منعتها من التفكير في ذلك. ظنت أنها تذكرت الزوايا التي يجب أن تتبعها لتصل إلى الدهليز القصير والباب المزركش الذي دخلت منه السيدة ميدلوك في اليوم الذي فقدت فيه. أصبح الصوت أعلى هذا الممر. لذلك أكملت سيرها ومعها ضوؤها الهزيل الذي بالكاد يهدي طريقها، وقلبها كان يدق حتى إنها تخيلت أنها سمعت دقاته. تحرك صوت البكاء الخافت وتبعته. كانت تتوقف أحيانًا لدقيقة ثم تكمل المسير. توقفت وفكرت هل هذه هي الزاوية التي يجب أن أتبعها؟ نعم، أسفل هذا الممر ثم إلى اليسار، ثم صعودًا درجتين، ثم إلى اليمين مرة أخرى. نعم، كان هناك الباب المزركش.

دفعت الباب بلطف لتفتحه وأغلقته خلفها، وقفت في الدهليز وسمعت البكاء أكثر وضوحًا، رغم أنه لم يكن عاليًا. كان صوت البكاء على الجانب الآخر من الحائط على يسارها وعلى بعد خطوات وجدت بابًا. رأت وميض نور يأتي من تحت الباب. هناك شخص يبكي في هذه الغرفة، إنه صغير السن. سارت نحو الباب وفتحته، ومن ثم وقفت في الغرفة.

كانت غرفة كبيرة ذات أثاث عريق وأنيق. نار ضعيفة تتوهج فى المدفأة، ومصباح ليلى موقد بجانب سرير ذى أربعة أعمدة مشدودة بقماش مطرز، وعلى السرير صبى يرقد ويبكى بكاء متقطعًا. تعجبت مارى، هل هذه حقيقة أم أنها نامت وهى الآن فى حلم ولا تدرى. كان الصبى ذا وجه رقيق وحاد، عاجى اللون، وكان يبدو أن العينين متسعتان جدًّا على هذا الوجه الصغير. كان شعره كثيفًا متهدلاً على جبهته بخصل كبيرة ومصغرًا حجم وجهه أكثر. كان يبدو أنه طفل مريض منذ زمن، لكن بكاءه زاد وكأنه تعب ومل وليس مجرد بكاء من الألم.

وقفت مارى قريبًا من الباب وبيدها شمعتها، وهى تكتم أنفاسها. تسللت عبر الغرفة، وعندما اقتربت من الصبى، انتبه إلى الضوء، أدار رأسه على وسادته والتفت إليها، عيناه الرماديتان اتسعتا بشكل هائل.

قال فى النهاية بصوت هامس شبه خائف: "من أنتِ؟ هل أنت شبح؟".

قالت مارى: "لست شبحًا، هل أنت كذلك؟". وصوتها كان شبه خائف أيضًا.

ظل يحدق ويحدق فيها. لم تحتمل مارى رؤية عينيه الغريبتين. كانتا رماديتين وكانتا تبدوان كبيرتين جدًّا لما يحوطهما من أهداب سوداء.

بعد دقيقة أجاب : "لا، أنا كولن".

قالت متلعثمة: "من كولن؟".

"أنا كولن كرافن، من أنت؟".

"أنا مارى لينوكس. السيد كرافن يكون زوج عمتى".

قال الصبى: "إنه أبى".

قالت مارى متلهفة: "أبوك؟ لم يخبرنى أحد قط أن لديه ابنا! لماذا؟"

قال: "تعالى هنا،" وما زال مسلطًا عينيه عليها فى تعبير مثير.

اقتربت من السرير ثم أخرج يده ولمسها.

قال: "أنت حقيقية، أليس كذلك؟، أحيانًا كثيرة أرى أحلامًا حقيقية كهذه، أنت واحدة منها".

كانت مارى انزلقت على دثار صوفى قبل أن تغادر غرفتها ووضعت قطعة منه بين أصابعه.

قالت: "حك هذه وانظر كيف هى سميكة ودافئة، سأسرق لك بعضًا منها لو تحب، لكى أريك كم أنا حقيقية. منذ دقيقة كنت أظن أنك أيضًا حلم".

سألها: "من أين أتيتِ؟"

"من حجرتى، الرياح كانت تعوى فما استطعت أن أنام وسمعت أحدًا يبكى وأردت أن أعرف من هو. ماذا كان يبكيك؟".

"لأننى لم أستطع النوم أيضًا وأصيب دماغى بالصداع. أخبرينى باسمك ثانية".

"مارى لينوكس. ألم يخبرك أحد أننى جئت لأعيش هنا؟".

كان لا يزال ممسكًا قطعة الصوف، لكنه بدأ ينظر أكثر كأنه تأكد أنها حقيقية.

أجابها: "لا ، لم يجرؤ".

سألته: "لماذا؟".

"لأننى من المفترض أن أخاف لو رأيتنى، لا أدع الناس يروننى أو يتحدثون معى".

سألته مارى ثانية: "لماذا؟" وكل دقيقة يزداد داخلها إحساس بالحيرة.

"لأننى دائمًا بهذا الشكل، مريض ومضطر للرقود. لن يدع أبى الناس يكلموننى أيضًا. وغير مسموح للخدم أن يتحدثوا عنى. فلو عشت ربما أكون أحدب، لكننى لن أعيش. يكره أبى التفكير فى أننى ربما أكون مثله".

قالت مارى: "يا له من بيت غريب. يا له من بيت غريب. كل شىء فيه سر غامض. الحجرات موصدة، والحدائق موصدة وأنت - هل كنت دائمًا موصدًا؟"

"لا، أنا أبقى فى هذه الغرفة لأننى لا أريد أن أخرج منها، فذلك يتعبنى كثيرًا".

قالت مارى: "هل يأتى أبوك ليراك؟".

"أحيانًا. فى العموم حينما أكون نائمًا. هو لا يريد أن يرانى".

لم تمنع مارى نفسها من السؤال ثانية: "لماذا؟".

"أمى ماتت عندما ولدت، وهذا جعله يبتئس من النظر إلىّ. يعتقد أننى لا أعرف ذلك، لكننى سمعت الناس يتحدثون. إنه يكرهنى تقريبًا".

قالت مارى محدثة نفسها إلى حد ما: "إنه يكره الحديقة لأنها ماتت".

سألها: "أى حديقة ؟".

تمتمت مارى: "آه ، مجرد – مجرد حديقة كان يحبها فى الماضى، هل كنت هنا دائمًا ؟ "

"دائمًا تقريبًا، أحيانًا كانوا يأخذوننى إلى مكان قريب من البحر، لكننىَ لا أريد أن أظل هناك لأن الناس يحدقون فيّ. اعتدت أن أرتدى زيًا حديديًا لأحتفظ بظهرى مستقيمًا، لكن عندما جاء طبيب مشهور من لندن ورآنى قال هذا غباء. قال لهم أن يخلعوا ذلك ويتركونى فى الهواء الطلق. أكره الهواء الطلق ولا أريد أن أخرج".

قالت مارى: "كنت لا أحبّ الهواء عندما جئت إلى هنا، لماذا تظل ناظرًا إلى هكذا؟ "

قال بشكل أكثر اضطرابًا: "بسبب الأحلام الحقيقية، أحيانًا عندما أفتح عينى لا أصدق أننى مستيقظ".

قالت مارى: "كلانا مستيقظ ".

ألقت نظرة فى أنحاء الغرفة بسقفها المرتفع وزواياها المبهمة وضوء نارها المعتم.

"إنها تبدو تمامًا كحلم، ونحن فى منتصف الليل، وكل من فى البيت نائمون – كلهم إلا نحن. نحن مستيقظون تمامًا".

قال الصبى بعدم ارتياح: "لا أريد أن يكون حلمًا ".

فكرت مارى فجأة وقالت: "إن كنت لا تحب أن يراك أحد، هل تريدنى أن أذهب؟ ".

لم يزل يمسك بقطعة الصوف وفركها قليلاً.

قال: "لا، لو ذهبت لن أكون متأكدًا إن كنت حلمًا. لو أنك حقيقة، اجلسى على مسند القدمين الكبير هذا وتحدثى. أريد أن أعرف عنك".

وضعت مارى شمعتها على المنضدة القريبة من السرير وجلست على المسند الموسد. لم تكن تريد أن تذهب على الإطلاق. كانت تريد أن تبقى فى الغرفة الغامضة المتخفية وتتحدث مع الصبى الغامض.

قالت: "ماذا تريدنى أن أخبرك به؟ ".

كان يريد أن يعرف كم مضى عليها فى ميسلثويت؛ فى أى الردهات تقع غرفتها؛ ماذا كانت تفعل؛ وما إذا كانت تكره البرارى كما يكرهها، وأين كانت تعيش قبل أن تأتى إلى يوركشاير.

أجابت على كل أسئلته وأكثر منها، وهو متكئ على وسادته منصت إليها. جعلها تخبره بأشياء كثيرة عن الهند وعن رحلتها عبر المحيط. اكتشفت أنه لم يتعلم كثيرًا مما يتعلمه الأطفال لأنه كان معزولاً. علمته إحدى ممرضاته القراءة عندما كان صغيرًا، وكان دائمًا يحافظ على القراءة ومشاهدة الصور فى كتب رائعة.

بالرغم من أن والده نادرًا ما رآه مستيقظًا، فإنه وفر له جميع أنواع الأشياء الجميلة ليسلى نفسه بها. ومع ذلك، لم يظهر عليه أنه يلهو ويمرح. كان يحصل على أى شىء يريده، ولم يجبر على فعل شىء لا يريد أن يفعله.

قال بلامبالاة: "كان كل الناس مضطرين لفعل ما يسرنى، هذا يزيد مرضى وغضبى. لا يصدق أحد أننى سأعيش حتى أكبر".

قالها وكأنه اعتاد أن هذه الفكرة لم تعد تهمه. بدا وكأنه أحب صوت مارى. حينما كانت تتحدث، كان هو يستمع إليها باهتمام مع بعض نعاس. شعرت لمرة أو مرتين أن النعاس يغلبه بالتدريج. لكنه فى النهاية سألها سؤالاً فتح موضوعًا جديدًا.

"كم عمركِ؟"

أجابت مارى، ناسية نفسها للحظة: "عشرة أعوام، وكذلك أنت".

سألها بصوت مندهش: "كيف عرفت ذلك؟".

"لأنك عندما ولدت، أغلق باب الحديقة ودفن المفتاح. وهو مغلق منذ عشرة أعوام".

اعتدل كولن فى شبه جلوس مستديرًا نحوها ومستندًا على رسغه.

تساءل وكأنه فجأة انتبه: "أى باب حديقة موصد؟ من أغلقه؟ وأين دفن المفتاح؟".

"إنها – إنها الحديقة التي يكرهها السيد كرافن، أغلق الباب، ولا أحد – لا أحد يعرف أين دفن المفتاح".

أصر كولن بشغف وقال: "أي نوع من الحدائق تكون؟".

أجابت ماري بحرص: "لم يسمح لأحد بدخولها منذ عشرة أعوام".

لكن فات الأوان على حرصها. وكان هو مثلها تمامًا، هو أيضًا لم يكن يفكر في شيء، وفكرة الحديقة الغامضة جذبت انتباهه مثلها. سألها السؤال بعد السؤال. أين هي؟ ألم تبحث قط عن الباب؟ ألم تسأل البستانيين قط؟

قالت ماري: "لا يريدون التحدث عنها، أظن أنهم أمروا بألا يجيبوا على أي سؤال".

قال كولن: "سأجعلهم يجيبون".

سألت ماري بتلهف: "هل تستطيع؟".

وبدأت تشعر بالخوف، لو جعل الناس يتحدثون، ماذا يمكن أن يحدث؟.

قال: "كلهم مضطرون لإسعادي، قلت لك ذلك، لو قدر لي الحياة، سيؤول هذا المكان إليّ في وقت من الأوقات، كلهم يعرفون ذلك. سأجعلهم يخبرونني".

لم تكن تعلم ماري أنها نفسها كانت تعيش حياة مدللة، لكنها ترى بوضوح أن هذا الصبي المحير كان كذلك. إنه اعتقد أنه يملك العالم كله. كيف كان مميزًا وفي الوقت نفسه يتحدث ببرود عن الموت.

سألته: "هل تظن أنك لن تعيش؟"، من ناحية لأنها كانت فضولية، ومن ناحية أخرى لكى تجعله ينسى أمر الحديقة.

قال باللامبالاة التى تحدث بها من قبل: "لا أظن أنى سأعيش، لطالما كنت أسمع الناس يتحدثون عن ذلك. فى البداية كانوا يعتقدون أنى لا أفهم لصغر سنى، والآن يظنوننى لا أسمع. لكنى أسمعهم. طبيبى ابن عم أبى. إنه فقير تمامًا، وإذا أنا مت فسوف تؤول إليه كل ميسليثويت عندما يموت أبى. لا أظنه يتمنى لى الحياة".

تساءلت مارى: "هل تريد أن تعيش؟".

أجابها بشكل متعب وسائم: "لا، لكننى لا أريد أن أموت. عندما يزيد على المرض أرقد هنا وأفكر فى الموت فأبكى وأبكى".

قالت مارى: "سمعت بكاءك ثلاث مرات، لكن ما كنت أعرف من يبكى. هل كنت تبكى لهذا السبب؟".

لم تزل تحاول أن تنسيه الحديقة.

"للأسف، لنتكلم فى شىء آخر. فلنتحدث عن الحديقة، ألا تريدين أن تريها؟".

قالت بصوت منخفض: "نعم".

استمر على إصراره: "أنا أريد، لا أظن أننى أردت بالفعل رؤية شىء من قبل، لكننى أريد أن أرى تلك الحديقة. أريد أن يخرجوا لى المفتاح. أريد

أن يفتح الباب. سأجعلهم يأخذوننى إلى هناك على كرسيى. سأجد هناك الهواء النقى. سأجعلهم يفتحون الباب.

بلغت به الإثارة مبلغها وعيناه الغريبتان أشرقتا واتسعتا أكثر.

قال: "هم مجبرون على إسعادى، سأجعلهم يأخذوننى هناك وسأدعك تذهبين أيضًا.

تعلقت يدى مارى بعضها ببعض. سيفسد كل شىء– كل شىء! لن يعود ديكون مرة ثانية. لن تشعر ثانية أنها طائر السمنة ولديه عش آمن بعيد عن الأنظار.

صرخت :"لا – لا – لا – لا تفعل ذلك!".

حدق فيها وكأنها أصابها الجنون!.

تساءل مستغربًا: "لماذا؟ قلت إنك تريدين الذهاب إلى هناك".

أجابت بنشيج فى صوتها: "نعم، ولكن لو جعلتهم يفتحون الحديقة ويأخذونك بهذا الشكل، فلن تكون الحديقة سرية بعد ذلك".

اعتدل فى جلسته أكثر وقال: "سرية! ماذا تقصدين؟ أخبرينى".

تلعثمت كلمات مارى وكأنها اختلطت على بعضها.

قالت بتلهف: "أترى – أترى، لو لم يعرف أحد غيرنا – لو وجدنا بابًا مختفيًا فى مكان ما تحت اللبلاب – لو وجدنا – ونحن نستطيع ذلك،

ولو استطعنا أن ندخل من خلاله وأغلقناه خلفنا، ولم يدر أحد أننا بالداخل وأسميناها حديقتنا وتشبهنا بطيور السمنة وأن الحديقة هى عشنا، ولو لعبنا هناك كل يوم وحفرنا وغرسنا البذور ووهبناها الحياة –"،

قاطعها قائلاً: "هل هذا حقيقى؟"،

"سيكون قريبًا إذا لم يفطن أحد لذلك، ستعيش البصيلات لكن الزهور–"،

قاطعها مرة ثانية وكان ثائرًا مثلها. استدرك بسرعة: "ماذا تعنى بصيلات؟".

"النرجس البرى وزهور السوسن و زهرة اللَّبَن الثلجية. إنها تنمو فى الأرض الآن – وتنشر نقاطًا خضراء شاحبة على الأرض لأن الربيع قادم".

قال: "وهل الربيع قادم؟ ما شكله؟ لا ترين الربيع وأنت مريضة فى غرفة مغلقة".

"الربيع هو شروق الشمس على المطر وهطول المطر على أشعة الشمس، وخروج الزهور وانتعاش النباتات فى التربة، عندما تكون الحديقة سرية سندخلها ونلاحظ الزهور وهى تكبر كل يوم، وانظر كم عدد الزهور التى ستنمو، أترى؟ أوه، ألا تدرى كم من الأجمل أن تكون الحديقة سرية؟".

تراجع فى سريره ونام على وسادته وعلى وجهه تعبير مختلف.

قال: "لم يكن لدى سر قبل ذلك، ما عدا معرفتى بأننى لن أعيش طويلاً. لا يعرفون أننى أعرف ذلك، لذلك فهذا نوع من الأسرار. لكنى أحب هذا النوع أكثر".

ناشدته مارى: "إذا لم تدعهم يأخذونك إلى الحديقة، ربما – بل أنا متأكدة أنك ستعرف فى وقت ما كيف تصل إلى هناك. وبعد ذلك، لم يرد الطبيب أن تخرج على مقعدك، ولو استطعت دائمًا أن تفعل ما تريد، ربما – يمكننا أن نجد صبيًا يهتم بدفع مقعدك، ثم نستطيع أن ندخلها وحدنا وتكون دائمًا حديقة سرية ".

قال ببطء وعيناه كأنهما تحلمان: "على أن أحب ذلك، لا أعترض على استمتاعى بالهواء النقى فى حديقة سرية".

استعادت مارى أنفاسها وشعرت بالأمان لأن فكرة السرية أسعدته. أصبحت متأكدة أنها لو حافظت على حوارها معه تستطيع أن تريه الحديقة كما تراها هى، وستروق له الفكرة، لأنه لن يحتمل أن يتسكع فيها كل الناس كما يريدون.

قالت: "سأصف لك شكلها الذى أتوقعه، إذا استطعنا أن ندخلها، كانت مغلقة لأمد بعيد، وربما أن نباتاتها كبرت وتشابكت".

ظل ساكنًا منصتًا إليها وهى تحدثه عن الزهور التى ربما تنقلت من شجرة إلى أخرى وتدلت منها – عن الطيور الكثيرة التى ربما بنت أعشاشًا هناك لأنه مكان آمن. ثم حدثته عن طائر أبى الحناء وعن بن وذرستاف،

كان هناك الكثير لتقوله عن أبى الحناء. قالت الكثير والكثير عن أبى الحناء بسهولة واطمئنان حتى إنها لم تعد تخاف. أسعده ذكر أبى الحناء كثيرًا لدرجة أنه ابتسم حتى بدا وجهه جميلاً، ومنذ البداية ظنت مارى أنه أبسط منها كثيرًا، بعينيه الكبيرتين وخصلات شعره الكثيفة.

قال: "لم أكن أعرف أن الطيور يمكن أن تكون هكذا، لكنك إن أقمت فى غرفة لا ترين الأشياء أبدًا. تعرفين الكثير. أحسست أنك دخلت هذه الحديقة من قبل".

لم تعلم ماذا تقول، لذلك لم تقل شيئًا.

هو أيضًا لم يكن ينتظر إجابة، وبعد ذلك بادرها بمفاجأة.

قال: "سأريك شيئًا، هل ترين هذه الستارة الحريرية وردية اللون المعلقة على الحائط فوق رف المستوقد؟".

لم تلحظها مارى من قبل، لكنها نظرت إلى أعلى ورأتها. كانت ستارة حريرية ناعمة معلقة فوق شىء يبدو كصورة. أجابت: "نعم".

قال كولن: "الستارة مربوطة بحبل، اذهبى وشديه".

نهضت مارى متحيرة. رأت الحبل. عندما شدته تراجعت الستارة على حلقات وظهر من خلفها صورة. كانت صورة فتاة وجهها ضاحك. كان شعرها لامعًا مربوطًا بشريط أزرق، وعيناها المرحتان الرقيقتان كانتا تشبهان تمامًا عينى كولن الحزينتين، كانتا رماديتين وكانتا تبدوان كبيرتين جدًا لما يحوطهما من أهداب سوداء.

قال كولن فى أسف: "إنها أمى، لا أفهم لماذا ماتت، أحيانًا أكرهها لهذه الفعلة".

قالت مارى : "يا للغرابة! "

قال فى تذمر: "لو ظلت على قيد الحياة، لما كنت مريضًا طوال الوقت، بل يجدر بى أن أقول إننى يجب أن أعيش أيضًا. وما كان أبى ليكره أن ينظر إلىّ. أقول كان من المفترض أن يكون ظهرى قويًا. أعيدى الستارة ثانية".

فعلت مارى ما طلبه ورجعت إلى مسند القدمين.

قالت: "إنها أجمل بكثير منك، لكن عينيها مثل عينيك تمامًا – على الأقل لهما نفس الشكل واللون. لماذا تغطيها بالستارة ؟".

تحرك فى تعب.

قال: "أنا أمرتهم بذلك، أحيانًا لا أريد أن أراها وهى تنظر نحوى. إنها تبتسم أكثر من اللازم وأنا مريض وبائس. أيضًا هى ملكى وحدى ولا أريد أن يراها كل الناس".

مر بعض الوقت فى صمت قبل أن تتحدث مارى.

تساءلت: "ماذا ستفعل السيدة ميدلوك لو علمت أننى كنت هنا؟ ".

أجابها: "ستفعل ما أمرتها به، وأنا سأقول لها إننى طلبت منك أن تأتى إلى هنا وتتحدثى معى كل يوم. أنا مسرور أنك أتيتِ".

قالت ماري:"وأنا كذلك، سآتي كثيرًا بقدر المستطاع، ولكن- "ترددت"يجب عليّ أن أبحث كل يوم عن باب الحديقة ".

قال كولن:"نعم، لابد من ذلك، وستخبرينني بعد ذلك".

رقد يفكر لبضع دقائق، كما فعل من قبل، ثم تحدث بعدها.

قال: "أظن أنك يجب أن تكوني سرًا أيضًا، لن أخبرهم حتى يكتشفوا ذلك. سأرسل الممرضة دائمًا خارج الغرفة وسأرى ماذا يمكنني أن أفعل بمفردي. هل تعرفين مارثا؟".

قالت ماري:"نعم، أعرفها جيدًا".

"إنها تقوم على شؤوني". وأشار برأسه تجاه الدهليز الخارجي.

"إنها من ينام في الغرفة الأخرى. ذهبت الممرضة أمس لتقضي الليلة - مع أختها وهي دائمًا تقيم مارثا مكانها كلما أرادت الخروج. ستخبرك مارثا متى تأتين هنا".

ثم أدركت ماري لماذا تضطرب مارثا حينما كانت تسألها عن البكاء.

قالت:"هل كانت مارثا على معرفة بك طوال الوقت؟".

"نعم؛ هي تحضر إليّ دائمًا. تحب الممرضة دائمًا أن تتحرر مني فتأتي مارثا".

قالت ماري: "أنا هنا من وقت طويل، هل لي أن أذهب الآن؟ أرى عينيك ناعستين".

قال بشيء من الخجل: "أتمنى لو استطعت النوم قبل أن تتركيني".

قالت ماري وهي تقترب بمسندها: "أغلق عينيك، وسأفعل ما كانت تفعله ممرضتي في الهند. سأربت على يدك وألاطفها وأغني لك بصوت منخفض".

قال في نعاس: "ربما سأحب ذلك".

كانت تأسف لحالته بشكل ما، ولم ترد أن تتركه متيقظًا، لذلك استندت إلى السرير وبدأت تلاطف يده وتغني أغنية صغيرة باللغة الهندوسية(*).

قال في نعاسه: "هذا جيد"، وظلت هي تلاطف يده وتغني له. عندما رأت أهدابه السوداء نائمة على خديه وعينيه مقفلتين وقد نام سريعًا، نهضت بلطف وأخذت شمعتها وتسللت إلى الخارج في صمت.

(*) Hindustani : لهجة هندية اعتمدها فاتحو هندوستان المسلمون، في شمالي الهند ووسطها .

الفصل الرابع عشر

الأمير الهندى

عندما جاء الصبح، كانت الغابة مكسوة بالضباب، ولم يكن المطر قد توقف عن الهطول. لن يستطيع أحد الخروج من منزله. كانت مارثا مشغولة لدرجة أن مارى لم تجد الفرصة للحديث معها، لكن بعد الظهر طلبت منها أن تأتى وتجلس معها فى حجرتها. جاءت حاملة جوربًا كانت تحيكه فى وقت فراغها.

بمجرد أن جلسا، سألتها: "ما خطبك؟ كأنك تريدين أن تقولى شيئًا".

قالت مارى: "لقد عرفت مصدر صوت البكاء".

أوقعت مارى الجورب على ركبتها وحدقت فيها بعينين شاخصتين.

تعجبت: "ألم تكونى تعلمين؟ قط !".

أكملت مارى: "سمعته فى الليل، ذهبت لأرى من أين يأتى. كان كولن. لقد وجدته".

احمر وجه مارثا خوفًا.

قالت وكأنها ستبكى:"إيه يا آنسة مارى، لم يكن يجدر بك أن تفعلى ذلك – ما كان عليك ذلك! ستضعيننى فى مأزق. لم أقل لك شيئًا عنه قط – لكنك ستضعيننى فى مأزق. سأفقد وظيفتى وماذا ستفعل أمى! ".

قالت مارى:"لن تخسرى وظيفتك، كان مسرورًا لرؤيتى".

صاحت مارثا: "هل كان كذلك؟ متأكدة؟ أنت لا تدرين ما شكله عندما يثور. لقد كبر على الصراخ كطفل رضيع، لكن عندما ينفعل يصرخ بشكل معتدل فقط ليخيفنا. هو يعرف أننا لا نملك أرواحنا".

قالت مارى:"لم يغضب، سألته أن أذهب لكنه طلب منى البقاء معه. سألنى أسئلة وجلست على مسند قدمين وتحدثت إليه عن الهند وعن طائر أبى الحناء وعن الحدائق. لم يكن يريد أن يتركنى أذهب. أطلعنى على صورة أمه. وقبل أن أتركه، غنيت له لكى ينام". ومارى تحدق فيها بدهشة.

أكدت مارثا:"لا أصدق ذلك! هذا كأنك دخلت مباشرة إلى عرين أسد. لو كان مزاجه كما يكون فى معظم الأوقات، لكان ألقى بنفسه فى نوبة غضب من نوباته وأيقظ البيت كله. إنه لا يحب أن ينظر إليه الغرباء ".

قالت مارى:"تركنى أنظر إليه. كنت أنظر إليه وينظر إلىّ. كنا نحدق فى وجوه بعضنا البعض! "

صاحت مارثا بقلق: "لا أعرف ماذا أفعل! لو اكتشفت السيدة ميدلوك ذلك فستقول إننى كسرت الأوامر وأخبرتك وسيطردوننى عائدة إلى أمى".

قالت مارى بحزم: "لن يخبر السيدة ميدلوك بأى شىء الآن. سيكون ذلك سرًّا فى البداية فقط، وهو يقول إن كل فرد هنا مجبر على طاعته".

تنهدت مارثا وقالت: "نعم هذا صحيح- ولد سيئ!" ومسحت جبينها بمئزرها.

"هو يؤكد أنه سيخبر السيدة ميدلوك فيما بعد. سيريدنى أن أذهب وأتحدث معه كل يوم، وأنت من ستخبريننى متى يريدنى".

قالت مارثا: "أنا! سأفقد وظيفتى - سأفقدها بالتأكيد!".

قالت مارى: "لن تفقدى وظيفتك لو فعلت ما يأمرك به، والجميع هنا مأمورون أن يطيعوه".

صاحت مارثا بعينين متسعتين: "هل تقصدين أنه كان لطيفًا معك؟".

أجابت مارى: "أظن أنه تقريبًا أحبنى".

قررت مارى وهى تلتقط نفسًا عميقًا: "من المؤكد أنك سحرته".

تساءلت مارى: "هل تقصدين السحر؟ سمعت عنه فى الهند، لكننى لا أجيده. أنا فقط دخلت غرفته وفوجئت برؤيته".

وقفت وحدقت فيه. ثم استدار وحدق فى وجهى. ظننى شبحًا أو حلمًا وأنا ظننته كذلك. كان غريبًا أن نكون هناك بمفردنا فى منتصف الليل ولا يعرف أحد منا شيئًا عن الآخر. بدأنا نسأل بعضنا. وعندما سألته لو يحب أن أذهب قال لا".

قالت مارثا بتلهف:"يا له من عالم صغير! ".

سألت مارى:"ما خطبه؟ ".

قالت مارثا:"لا أحد يعرف بشكل مؤكد، أصيب السيد كرافن بالجنون عندما ولد. قال الأطباء لا بد أن يودع مستشفى الأمراض العقلية. كان ذلك لأن السيدة كرفن توفيت كما قلت لك. لم يدر بصره إلى الطفل. كان يهذى فقط ويقول سيكون هناك أحدب آخر مثله ومن الأفضل أن يموت".

سألته مارى:"هل كولن أحدب؟ لم يظهر كذلك".

قالت مارثا:"ليس أحدب بعد، لكنه بدأ حياته وكل شىء غير سليم. قالت أمى إن البيت كان به من المشاكل والعنف ما يجعل أى طفل مضطربًا. كانوا دائمًا قلقين على ظهره الضعيف وكان الجميع يعتنون به- بأن يجعلوه ينام دائمًا ولا يدعوه يمشى. فى مرة من المرات ألبسوه دعامة، لكنه اغتاظ ومرض على الفور. ثم أتى طبيب كبير ليراه وأمرهم أن يخلعوا ذلك. تحدث إلى الطبيب الآخر بشكل حاد ومؤدب. قال إنه أخذ أدوية أكثر من اللازم وترك لحاله أكثر من اللازم".

قالت مارى:"أظنه صبيًا فاسدًا جدًا ".

قالت مارثا: "إنه أسوأ صبى فظ رأيته من قبل! ولم يكن أفضل عندما يكون مريضًا. كان يصاب بالسعال ونوبات البرد حتى كادت تقتله مرتين أو ثلاث. فى مرة كان يعانى من حمى روماتزمية وأصيب بالتيفود(*). نعم، كانت السيدة ميدلوك مرعوبة ساعتها. كان غائبًا عن الوعى وكانت هى تتحدث مع الممرضة، وظنت أنه لا يعرف شيئًا، وأكدت أنه سيموت هذه المرة، وهذا هو الأفضل له وللجميع. ثم نظرت إليه فرأته فاتحًا عينيه الكبيرتين ومحدقًا فى وجهها بشفقة كما كانت هى. لم تكن تعلم ماذا سيحدث، لكنه نظر فى عينيها وقال: أحضرى إلىَّ بعض الماء وتوقفى عن الكلام".

سألت مارى: "هل تعتقدين أنه سيموت؟".

"تقول أمى إنه ليس هناك من سبب لأن يعيش، فتى لا يتمتع بهواء نقى ولا يفعل شيئًا إلا أن يقرأ الكتب المصورة ويتناول الأدوية. إنه ضعيف ويكره ما يحدث له من مشاكل عندما يخرجونه خارج المنزل، ثم إنه يصاب بالبرد بسهولة ويقول إنه يصيبه المرض".

جلست مارى ونظرت إلى النار.

قالت ببطء: "إنى أتساءل إن كان خروجه فى الحديقة ورؤيته للنباتات وهى تنمو سيجعله فى تحسن. لقد حدث ذلك معى".

(*) typhoid : حمى التيفويد: مرض معدٍ حاد، بسبب بكتيريا فى الطعام أو الماء، وأعراضها: حرارة مرتفعة، صداع، سعال، نزيف. نزيف فى الأمعاء، بقع وردية اللون على الجلد.

قالت مارثا: "من أسوأ ما فعل، فى مرة أخذوه للخارج عند الزهور والنافورة. كان يقرأ فى جريدة عن إصابة أناس بما يسمى نزلة برد الزهور. ثم بدأ يعطس وقال لقد أصبت بها، ثم مر بستانى جديد لا يعرف الأوامر ونظر إليه فى فضول. استشاط غضبًا وقال إنه كان ينظر إليه لأنه سيكون أحدب. أدخل نفسه فى نوبة حمى وظل طريح الفراش طوال الليل".

قالت مارى: "لو صاح فى غاضبًا مرة، فلن أذهب إليه ثانية أبدًا".

قالت مارثا: "سيحصل عليك إن أرادك، يجب أن تعلمى ذلك من البداية".

ثم بعد ذلك سمعت رنين جرس فلملمت غزلها.

قالت: "لابد أن الممرضة تريدنى أن أجلس معه قليلاً، أرجو أن يكون مزاجه رائقًا".

خرجت من الغرفة لحوالى عشر دقائق ثم رجعت ووجهها محيّر.

قالت: "حسنًا لقد سحرته، لقد جلس على أريكته ومعه كتب مصورة. قال للممرضة أن تظل بعيدة حتى الساعة السادسة. أما أنا فعلىَّ الانتظار فى الغرفة المجاورة. عندما خرجت الممرضة دعانى إليه وقال: أريد أن تأتى مارى لينوكس وتتحدث معى، وتذكرى أنك لا يجب أن تخبرى أحدًا. من الأفضل أن تذهبى بأقصى سرعة".

همت مارى بالذهاب بسرعة. لم تكن تريد رؤية كولن أكثر من ديكون، لكنها كانت تتوق لرؤية كولن.

كانت النار مشتعلة وبراقة فى المدفأة عندما دخلت غرفته، وقد رأت الغرفة جميلة بالفعل فى ضوء النهار. كانت الألوان منتشرة على السجاد والستائر والصور والكتب على الحوائط مما جعل الغرفة متألقة بالرغم من السماء الغائمة والمطر المتساقط. كان يبدو كولن نفسه كلوحة. كان ملفعًا بثوب مخملى ومستندًا إلى وسادة مطرزة كبيرة. على كلا خديه كانت هناك نقطة حمراء.

قال: "تعالى، كنت أفكر فيك طوال الصباح".

أجابت مارى: "كنت أفكر فيك أيضًا، لا تدرى كم مارثا مرعوبة. تقول إن السيدة ميدلوك ستقول إنها أخبرتنى عنك وستطرد من العمل". فعبس وجهه.

قال: "اذهبى وأخبريها أن تأتى، إنها فى الغرفة المجاورة".

ذهبت مارى وجاءت بها. كانت مارثا المسكينة ترتعد فرائسها. لم يزل كولن عابسًا.

سألها: "أليس عليك أن تفعلى ما يسرنى أم العكس؟"

قالت مارثا بتلهف وقد احمر وجهها: "علىَّ أن أفعل ما يسرك سيدى".

"أليس على ميدلوك أن تفعل ما يسرنى؟".

قالت مارثا: "على الجميع سيدى".

"حسنًا إذن، إذا أمرتك أن ترسلى إلىّ الآنسة مارى، كيف ستستطيع مارى أن تطردك؟".

فاستعطفته مارثا قائلة: "من فضلك لا تتركها تفعل ذلك سيدى".

قال السيد كرافن مثل الكبار: "سأطردها إذا فكرت أن تقول كلمة فى هذا الشأن، يمكننى أن أقول إنها لن تحب ذلك".

انحنت باحترام وقالت: "شكرًا سيدى، أريد أن أقوم بواجبى، سيدى".

قال كولن وهو لا يزال مثل الكبار: "ما أريده هو واجبك. وأنا سأهتم بك، اذهبى الآن".

عندما أغلق الباب خلف مارثا، وجد كولن الآنسة مارى تتأمله وكأنه نال إعجابها.

سألها: "لماذا تنظرين إلىّ هكذا؟ فيم تفكرين؟".

"أفكر فى شيئين".

"ما هما؟ اجلسى وأخبرينى".

قالت مارى، وهى تجلس على الكرسى الكبير: "هذا هو أول شىء، فى إحدى المرات فى الهند رأيت صبيًا وكان أميرًا هنديًا(*) مزينًا جسده كله

(*) Rajah : أمير، أو رئيس، أو حاكم هندى.

بالياقوت والزمرد والألماس. كان يتحدث مع قومه تمامًا مثلما كنت تتحدث مع مارثا. كان على الجميع أن يفعلوا كل ما يأمرهم به – فى دقيقة. أعتقد أنهم إن لم يفعلوا ذلك فسيقتلون".

قال :"ستخبريننى عن الأمراء لاحقا، لكن خبرينى ما هو الشىء الثانى".

قالت:"كنت أفكر كم أنت مختلف عن ديكون".

سألها:"من ديكون؟ يا له من اسم غريب! ".

اعتقدت أنها يمكنها التحدث عنه أيضًا. كان يمكنها أن تتحدث عن ديكون دون ذكر الحديقة السرية. كانت تحب أن تسمع مارثا وهى تتحدث عنه. أيضًا، فقد تاقت للحديث عنه. وهذا يجعله أقرب منها.

قالت:"إنه أخو مارثا، يبلغ اثنى عشر عامًا، ليس كأى شخص آخر فى الوجود. يستطيع أن يسحر الثعالب والسناجب والطيور تمامًا مثلما يفعل أهل الهند بالثعابين. يعزف نغمة رقيقة جدًا على مزماره وتأتى إليه هذه الكائنات لتستمع".

كان على المنضدة قريبًا منه بعض الكتب الكبيرة التى سحب أحدها إليه فجأة.

قال :"هنا صورة لرجل من مروضى الثعابين، تعالى وانظرى إليها".

كان كتابًا جميل المنظر وبه رسومات رائعة، أشار إلى أحد الرسومات وسأل بشغف:"هل يستطيع أن يفعل ذلك؟".

فسرت ماري الأمر وقالت: "كان يعزف على مزماره وهم يسمعون، لكنه لم يدع ذلك سحرًا، إنما قال لأنه يعيش فى الغابات كثيرًا فهو يعرف طرق التعامل معهم. يقول إنه يشعر أحيانًا أنه طائر أو أرنب، لأنه يحبهم أيضًا، أظنه كان يسأل أبا الحناء بعض الأسئلة، وكأنهما يتحدثان بسقسقات ناعمة".

اتكأ كولن على أريكته على حين اتسعت عيناه واحمر خداه كأنهما يحترقان.

قال: "حدثيني عنه أكثر".

أكملت ماري: "إنه يعرف كل شيء عن الأعشاش والبيض، كما يعرف مواطن الثعالب وحيوانات الغرير وكلاب الماء. ومع ذلك يحفظ أسرارها حتى لا يعثر الأولاد على جحورها ويؤذوها. إنه يعرف كل ما هو حي فى البراري".

قال كولن: "هل يحب الغابة؟ كيف سيكون حاله عندما يرى مثل هذا المكان العاري الموحش الضخم؟".

أكدت ماري: "إنه أجمل مكان، آلاف النباتات الجميلة تنمو هناك، والآلاف من المخلوقات الصغيرة كلها مشغولة ببناء الأعشاش وحفر الفتحات والجحور والسقسقة والغناء والصرير لبعضهم البعض. كلهم مشغولون بهذه المتعة تحت الأرض أو فوق الأشجار ونباتات الخلنج. إنه عالمهم".

"كيف تعرفين كل ذلك؟" قالها كولن وهو يستدير مستندًا على رسغه وناظرًا إليها.

قالت مارى بعد أن تذكرت: "لم أذهب هناك قط، إطلاقًا، فقط مررت عليها ليلاً ، كنت أظنها موحشة. حدثتنى عنها مارثا ثم حدثنى بعدها ديكون. عندما يتحدث ديكون عنها تحس كما لو أنك ترى أشياء وتسمع أشياء وكأنك تقف بين الأشجار فى أشعة الشمس، ورائحة نبات الجولق كرائحة العسل- والمكان حولك ملىء بالنحل والفراشات".

قال كولن وهو يشعر بالتعب: "لا ترين شيئًا أبدًا فى مرضك".

كان أشبه بشخص ينصت إلى صوت على بعد ويحاول تحديده.

قالت مارى: "لا تستطيع إن كنت جالسًا فى غرفة".

قال فى نبرة مستاءة: "لم أستطع الذهاب إلى البرارى".

صمتت مارى لدقيقة ثم قالت بجرأة: "يمكنك، أحيانًا".

تحرك كما لو أنه خاف من شىء. قال: "أذهب إلى البرارى! كيف لى ذلك؟ إننى سأموت".

قالت مارى بعيدًا عن التعاطف: "كيف لك أن تعرف ذلك؟ ".

لم تحب طريقته فى التحدث عن فكرة الموت. ولم تشعر معه بشىء من الشفقة. بل كانت تشعر وكأنه يتباهى به.

أجابته بحدة: "لقد كنت أسمع ذلك منذ أن وعيت، كانوا دائمًا يتهامسون بذلك ويظنون أننى لم أفهم. إنهم يتمنون لو أننى أموت أيضًا".

أحست الآنسة مارى أنها مختلفة تمامًا. وقرصت شفتيها معًا.

قالت: "لو تمنوا لى الموت، فلن أموت. من يتمنى لك الموت؟".

"الخدام – وبالطبع د. كرافن، لأنه سيستحوذ على ميسيلثويت وينعم بالغنى بدلاً من الفقر. لا يجرؤ أن يقول ذلك، لكن تبدو عليه السعادة عندما يرانى فى حالة أسوأ. عندما أصبت بحمى التيفويد تورّد وجهه. أظن أن أبى يتمنى ذلك أيضًا".

قالت مارى بشىء من العناد: "لا أعتقد أنه كذلك" مما جعل كولن يستدير وينظر إليها ثانية.

قال: "فعلاً؟".

ثم اتكأ ثانية على أريكته وعاد كأنه يفكر. ثم مر وقت من الصمت. ربما كان الاثنان يفكران فى أشياء غريبة لا يعتاد الأطفال عليها.

قالت مارى فى النهاية: "إننى أحب طبيب لندن الكبير، لأنه جعلهم يخلعون عنك الرداء الحديدى، هل قال إنك ستموت؟".

"لا".

"ماذا قال؟".

أجاب كولن: "لم يتهامس، ربما عرف أننى أكره التهامس. سمعته يقول شيئًا واحدًا بصوت مسموع. قال: "يمكن للصبى أن يعيش لو اقتنع هو بذلك. أحيطوه بالمرح". كان وقع صوته كأنه يلطف الأجواء".

قالت مارى وهى تفكر مليًا: "سأقول لك مَن ربما سوف يحيطك بالمرح".

وشعرت مارى وكأنه أحب ترسيخ هذه الفكرة بطريقة أو بأخرى.

أكملت: "أعتقد أن ديكون يستطيع. إنه دائمًا ما يتحدث عن كائنات حية. لا يتكلم أبدًا عن الأشياء الميتة أو المريضة. دائمًا ينظر أعلى إلى السماء ليشاهد الطيور المرفرفة.- أو ناظرًا أسفل إلى الأرض ليرى شيئًا ينمو. لديه عينان زرقاوان واسعتان تتفقدان كل شيء حولهما. يضحك ضحكة كبيرة بفمه العريض- خداه أحمران كثمار الكرز".

قربت مسندها من الأريكة وتغير تعبيرها وهى تتذكر العينين الواسعتين والفم المقوس العريض.

قالت: "انظر هنا، لا تدعنا نتحدث عن الموت. دعنا نتحدث عن الحياة. دعنا نتحدث ونتحدث عن ديكون. وبعد ذلك سوف ننظر فى صورك".

كان ذلك أفضل شيء قالته. أن تتحدث عن ديكون يعنى أن تتحدث عن البرارى وعن الكوخ والأربعة عشر فردًا الساكنين فيه معًا يقتاتون على ستة عشر شلنًا فى الأسبوع- وعن الأطفال الذين سمنت أجسامهم على حشائش البرارى كالخيول البرية. وعن والدة ديكون- وعن حبل القفز - وعن البرارى تحت أشعة الشمس - وعن النقاط الخضراء الباهتة الملتصقة

بسطح التربة الأسود. وكان كل ذلك من الأحياء حتى إن هذه كانت أول مرة تتحدث فيها مارى بهذا الكم – وكانت أول مرة يتحدث فيها كولن ويستمع بهذا الكم. ثم بدأ الاثنان فى الضحك على لا شىء كما يفعل الأطفال وقت الفرح. ضحكوا حتى إنهم فى النهاية أثاروا الصخب كطفلين عاديين يبلغان من العمر عشر سنوات، بدلاً من البنت الصغيرة الخشنة غير المحبة والولد السقيم الذى يؤمن أنه سيموت لا محالة.

عاش الاثنان وقتًا من المرح جعلهما نسيا الصور ونسيا الوقت. كانا يضحكان بصوت مرتفع عن صوت بن وذرستاف وأبى حنائه، وكان كولن يجلس فعلاً كما لو أنه نسى تمامًا ظهره السقيم، عندما تذكر شيئًا فجأة.

قال: "تعلمين هناك شىء لم نفكر فيه قط، نحن أبناء عم".

بدا الأمر غريبًا أن تحدثا كثيرًا جدًّا ولم يفطنا إلى شىء بسيط أنهما لم يضحكا كذلك من قبل، لأن المرح بلغ بهما أن كانا يضحكان من أى شىء.

حينما كانا يضحكان، فتح الباب ودخل عليهما الدكتور كرافن والسيدة ميدلوك. انزعج الدكتور كرافن كثيرًا ورجع فجأة حتى ارتطم مصادفة بالسيدة ميدلوك وقد كادت تقع على ظهرها.

تعجبت المسكينة ميدلوك وعيناها على وشك الخروج من رأسها وقالت: "السيد العظيم! السيد العظيم!".

قال الدكتور كرافن وهو يتقدم للأمام: "ما هذا؟ ماذا يعنى ذلك؟".

ثم تذكرت مارى الأمير الهندى مرة أخرى. أجاب كولن وكأن انزعاج الدكتور وارتعاب السيدة نتيجة تافهة. لم ينزعج كولن أو يخاف وكأن قطًا وكلبًا مرا فى الغرفة.

قال: "هذه ابنة خالى مارى لينوكس، طلبت منها أن تأتى وتتحدث معى. إننى أحبها. ويجب أن تأتى إلى هنا وقتما أرسل فى طلبها".

التفت الدكتور كرافن مؤنبًا للسيدة ميلوك.

قالت فى تلهف: "آه سيدى، لا أعرف كيف حدث ذلك. لا يجرؤ أى من الخدم أن يتحدث– جميعهم لديه أوامره".

قال كولن: "لم يقل أحد لها شيئًا، لقد سمعت بكائى ووجدتنى بنفسها. أنا مسرور من مجيئها. لا تكونى سخيفة يا ميدلوك".

وجدت مارى أن الدكتور كرافن لم يكن مسرورًا، ولكن بدا واضحًا أنه لم يستطع أن يعارض مريضه. جلس بجوار كولن وتحسس نبضه.

قال: "آسف، كان هناك الكثير من الإثارة، والإثارة ليست جيدة لك يا ولدى".

قال كولن، وعيناه تبرقان بشكل خطير":

يكون هناك المزيد من الإثارة لو حُجِبَتْ عنى، أنا أفضل. هى تجعلنى أفضل. يجب أن تحضر الممرضة الشاى لها مع ما تحضره لى. سنحتسى الشاى معًا".

نظر الدكتور كرافن والسيدة ميدلوك إلى بعضهما بشكل مضطرب، لكن من الواضح أن ليس لديهما شيء يفعلانه.

تجرأت ميدلوك وقالت: "يبدو أنه تحسن بالفعل سيدى، ولكن – وهى تفكر مليًا – كان يبدو أفضل هذا الصباح قبل أن تأتى إلى الغرفة".

قال كولن: "لقد جاءت إلى الغرفة ليلة أمس، وظلت معى فترة طويلة. غنت لى أغنية هندوسية جعلتنى أخلد إلى النوم، شعرت بالتحسن عندما استيقظت. طلبت إفطارى. وأريد شايى الآن. أخبرى المرضة يا ميدلوك".

لم يمكث الدكتور كرافن طويلاً. تحدث إلى المرضة لبضع دقائق عندما حضرت مع كلمات تحذيرية قليلة لكولن. لا يجب أن يتحدث كثيرًا؛ لا يجب أن ينسى أنه مريض؛ لا يجب أن ينسى أن جسده يتعب بسهولة. عرفت مارى أن ثمة أشياء كثيرة غير مريحة يجب عليه ألا ينساها.

بدا كولن مضطربًا وظل يحدق فى وجه الدكتور كرافن.

قال فى النهاية: "أريد أن أنسى ذلك، إنها تجعلنى أنساه. ولهذا أريدها".

بدا الدكتور كرافن غير سعيد عند مغادرته للغرفة. اختلس نظرة مرتبكة إلى الفتاة الصغيرة الجالسة على الكرسى.

بمجرد أن دخل الغرفة أصبحت الطفلة الصلبة الصامتة مرة أخرى ولم ير فيها عنصر جذب. كان الولد يبدو فعلاً أكثر بريقًا، بالرغم من أنه تنهد بشدة بعد أن خرج الطبيب ونزل عبر الردهة.

قال كولن على حين كانت المرضة تضع الشاى على المنضدة القريبة من الأريكة: "دائمًا يريدون أن يطعمونى أشياء لا أريدها، الآن لو تأكلين سآكل. تبدو هذه الفطائر لذيذة وساخنة. حدثينى عن أمراء الهند".

الفصل الخامس عشر

بناء العش

بعد أسبوع آخر من المطر ظهر القوس الكبير فى السماء الزرقاء مرة ثانية وهطلت الشمس التى كانت شديدة الحرارة. وبالتالى لم تكن هناك فرصة لرؤية أى من الحديقة ولا ديكون، واستمتعت اللطيفة مارى بوقتها كثيرًا. لم يبد ذلك الأسبوع طويلاً، فلقد أمضت الساعات من كل يوم مع كولن فى حجرته، يتكلمون عن المهراجا الأمير الهندى أو عن الحدائق أو عن ديكون وكوخ البرارى. كانا يتصفحان الكتب الرائعة والصور وأحيانًا كانت مارى تقرأ لكولن وأحيانًا أخرى يقرأ لها هو. والغريب أن فى لحظات استمتاعه وشغفه لم تره عاجزًا على الإطلاق، ما عدا أن وجهه شاحبًا وأنه دائم الجلوس على الأريكة.

قالت السيدة ميدلوك ذات مرة: "إنك شاب بارع تستطيع الاستماع والنهوض من فراشك لتتبع الأشياء والأمور كما فعلت فى تلك الليلة، لا يوجد هناك أى قول إنها لم تكن بركة على عدد كبير منّا.ولم تنتابه نوبة

الغضب ولا نوبة الأنين منذ أن صارت له صداقات.كانت المرضة ستتخلى عن مهمتها لأنها أصابها الإعياء الشديد منه، لكنها لا تمانع من البقاء الآن" وقالت وهى تضحك قليلاً: "لقد قمت بالمهمة معها".

حاولت مارى أن تكون حذرةً أثناء حديثها مع كولن عن الحديقة الخفية، وكان هنالك أشياء محددة تريد أن تعرفها منه، لكنها أحست أنها لابد أن تعرف تلك الأشياء دون أسئلة مباشرة.فى المقام الأول ولأنها أحبت أن تكون معه وإلى جواره، أرادت أن تعرف إذا كان من نوع الصبيان الذى يمكن أن تخبره بالأسرار. هو لم يكن على الأقل مثل ديكون، لكن من الواضح أنه كان مسرورًا بفكرة الحديقة التى لا يعرف أحد بها فظنت مارى بذلك أنه ربما يكون موثوقًا به.

لكنها لم تعرفه لفترة طويلة حتى تتأكد من هذا. الشىء الثانى الذى كانت تود اكتشافه هل هو شخص موثوق به، إن كان كذلك بالفعل ألن يكون من الممكن أن تأخذه إلى الحديقة دون أن يكتشف أحد ذلك؟ وكما قال الدكتور الكبير إنه يحتاج الهواء المنعش وأضاف كولن قائلاً إنه لا يمانع من استنشاق الهواء فى الحديقة الخفية. ربما إذا أخذ القدر الكافى من الهواء المنعش وتعرف على ديكون وأبى الحناء ولو رأى الأشياء وهى تنمو ربما لن يفكر فى الموت.

رَأَتْ مارى نفسها فى المرآة أحيانًا فى الفترة الأخيرة عندها أدركتْ أنّها نَظرتْ لمخلوق مختلف تمامًا عن الطفلة التى جاءت من الهند. فهذه تبدو ألطف وأجمل. وحتى مارثا لاحظت ذلك التغيير عليها.

وقالت :"إن هواء البرارى جعلك بحالة جيدة فعلاً"فلا أنت تقتربين من البدين ولا أنت بالهزيل. وحتى شعرك لا يتساقط فجأة من رأسك ضعيفًا متدليًا. فبهِ بعض الحياة التى تنبع قليلاً منه". فقالت مارى: "إنه يشبهنى". "إنه ينمو أقوى وأشد سمكًا. وهناك الكثير منه أنا واثقة"، قالت مارثا: إنه يبدو كذلك بالتأكيد، وهى تنفش جزءًا منه حول وجهها". إنك لا تبدو نصف قبيحة عندما يكون بهذه الطريقة خاصة وأن هناك بعض الاحمرار فى هذين الخدين".

لو أن الحدائق والهواء المنعش فعلت بها كذلك فلابد أنه سيكون جيدًا لكولن.

لكن فى هذا الوقت، لو كره أن ينظر الناس إليه ، ربما لن يود أن يرى سيكون . وسألته يومًا: "لماذا تغضب حينما يُنْظَر إليك؟".

فأجاب :"أنا دائمًا أكره ذلك، حتى حين كنت صغيرًا جدًا. ثم عندما أخذونى إلى شاطئ البحر واعتدت حينها أن أرقد فى عربتى كان الجميع يحدق بى وكانت السيدات يتوقفن ويحادثن المرضة ثم يبدأن بالهمس حينها أدرك ما يقولون عنى إننى لن أعيش ولن أكبر".

وكانت السيدات أحيانًا يربِّتن بأيديهن على خديّ قائلين: "طفل مسكين!"وذات مرة حينما فعلت سيدة هذا الأمر صرخت بصوت عالٍ وعضضت يدها. فخافت وهربت".

قالت مارى، وهى ليست معجبة بهذا: "لقد اعتقدت السيدة أن أصابك الجنون ككلب،" فقال، كولن وهو عابس: "إننى لا أهتم بما ظنته بى،" فقالت مارى: "إننى أتعجب لماذا لم تصرخ فيَّ أو تعضنى حينما جئت إلى حجرتك؟" ثم بدأت تضحك ببطء.

فقال لها: "لقد ظننتك شبحًا أو ربما حلمًا، أنت لا تستطيعين أن تعضى شبحًا أو حلمًا، وأيضًا هم لا يتأثرون إن صرخت". فسألته مارى وهى غير متأكدة: "هل تكره أن أن ينظر إليك صبى؟".

أسند ظهره إلى وسادته وصمت فى تفكر، وقال فى بطء كما لو كان يدقق بكل كلمة: "إنه صبى واحد، هو صبى وحيد الذى أعتقد أننى لن أمانع من رؤيته لى. إنه ذلك الصبى الذى يعلم أين تعيش الثعالب__ هو ديكون".

قالت مارى: "أنا واثقة أنك لن تمانع منه".

قال وهو ما زال يفكر بالأمر: "والطيور وحيوانات أخرى ، وربما لذلك فأنا لا أمانع.هو نوع من ساحر الحيوان وأنا أكون حيوانًا ولدًا".

ثم ضحك بعد تلك الجملة وضحكت هى أيضًا، فى الحقيقة لقد ضحكا بقدر كبير ووجدًا أن فكرة الحيوان الصبى المختفى داخل جحرة مضحكة بالفعل. وما شعرت به مارى بعدئذٍ أنه لا يلزم الآن الخوف بشأن ديكون.

فى أول صباح يشرق بعد أن عادت والسماء زرقاء مرة أخرى استيقظت مارى باكرًا جدًا. كانت الشمس تصب أشعتها المائلة خلال الستائر، وكان

هناك شيء بهيج في هذا المشهد لدرجة أنها قفزت من الفراش وجرت مسرعة نحو النافذة. وسحبت الستائر وفتحت النافذة ذاتها فإذا بنسمة هواء منعشة عطرة تهبّ عليها.

أصبحت البرارى الآن زرقاء ويبدو وكأن سحرًا أصاب الدنيا كلها. مع وجود أصوات رقيقة متباينة هنا وهناك وفي كل مكان، كما لو أن أعدادًا كبيرة من الطيور بدأت تنغيمها لأجل حفلة موسيقية. أخرجت مارى يدها من الشباك وتركتها في الشمس.

ثم قالت: "إنه الدفء__ إنه الدفء. سوف يجعل النقاط الخضراء تنطلق لأعلى ولأعلى وسَيَجْعلُ الأبصالَ والجذورَ تَعْملانِ وتُكافحانِ بكُلّ قوّة تحت الأرضِ".

ركعت لأسفل وأخرجت جسمها خارج النافذة بعيدًا قدر ما أمكنها، وهى تتنفس الأنفاس العميقة وترتشف الهواء إلى أن ضحكت لأنها تذكرت ما قالته والدة ديكون عن طرف أنفه الذي يرتعش كأنف الأرنب، "ثم قالت لابد أن الوقت باكر، فتلك السحابات القليلة كلها وردية اللون وأنا لم أر السماء بهذا الشكل قط. لا أحد مستيقظ الآن. حتى إنني لا أسمع صوت صبيان الإسطبل".

ثم أتتها فكرة مفاجئة جعلتها تزحف على قدميها. وقالت: "لا أستطيع الانتظار! سأذهب لأرى الحديقة!". في هذا الوقت كانت قد تعلمت ارتداء ملابسها بنفسها فارتدتها في خمس دقائق. وعلمت بوجود باب صغير

جانبى يمكن أن تتسلل منه وهبطت السلم وهى ترفرف بقدميها ذات الجوارب ثم ارتدت حذاءها وهى فى الردهة.

هى الآن محررة وعندما فتح الباب انبثقت عبره وقفزت خطوة فى وثبة واحدة، هنا كانت تقف على العشب ، الذى اتضح عليه اللون الأخضر ، والشمس تهطل أشعتها من فوقها و حولها نسمات عذبة دافئة وتزمير وزقزقة وغناء يجيء من كل شجرة وشجيرة حولها. شبكت يديها فى بهجة خالصة ونظرت لأعلى إلى السماء التى كانت لؤلؤية وبيضاء ووردية وشديدة الزرقة، ويتدفق منها ضوء الربيع حتى أحست أنها لابد أن تغنى وتزمر بنفسها بصوت مرتفع، وكانت تعلم أن الدج وأبا الحناء وطيور القبرة لا يمكنهم المساعدة ، ركضت عبر الممرات وحول الشجيرات متجهة نحو الحديقة.

وقالت لنفسها: "كل شيء مختلف الآن، فالعشب أكثر اخضرارًا وأشياء قد ارتفعت فى كل مكان، وأشياء قد أسدلت فى كل مكان وقد ظهرت براعم خضراء من الأوراق. وأنا واثقة أن ديكون سيأتى ظهيرة هذا اليوم".
أحدث المطر الطويل الدافئ أشياء غريبة لأحواض النباتات العشبية التى لاصقت المشى على الجدار السفلى. كان هناك إيراق وإخراج لأشياء من جذور مجموعات النباتات وبدا منتشرًا هنا وهناك لمحة اللون الأرجوانى الأدكن والأصفر بين جذوع الزعفران.

قبل ستّة شهور ما كانتْ تَرى السَّيدة مارى كيف كانَ يَستيقظُ هذا العالم ، لكنها الآن لم تَتغيَّبْ عن شيء. فبعدما وصلت إلى المكان حيث يختبئ

الباب تحت اللبلاب، روعها صوت فضوليّ مرتفع. كان نعيب غراب أتى من أعلى الجدّار، وحينما نظرت لأعلى وجدت طائرًا كبيرًا أزرق وأسود لامع الريش يجلس وينظر لأسفل نحوها فى حكمة. لم تر غرابًا بهذا القرب من قبل فجعلها مرتبكة قليلاً ، لكنه بعد لحظة واحدة فرد جناحيه ورفرف بعيدًا عبر الحديقة تمنت ألا يبقى بالحديقة ثم دفعت الباب لتفتحه وهى تتساءل إذا كان هو.

حينما دخلت تمامًا فى الحديقة رأت أنه ربما انتوى أن يبقى لأنه نزل على شجرة تفاح صغيرة ، وكان يرقد تحت شجرة التفاح حيوان أحمر اللون قليلاً ، ذو ذيل كثيف، وكلاهما يراقب الجسد المنحنى والرأس الأحمر الصدىء لديكون، الذى كان راكعًا على العشب وهو يجتهد فى العمل.

طارت مارى عبر العشب نحوه.

وصرخت قائلة: "ياه! ديكون! ديكون!"كيف أتيت إلى هنا فى هذا الوقت الباكر! كيف ! لقد ارتفعت الشمس للتو نهض ضاحكا متوردا وأشعث؛ وعيناه تشبهان السماء.

وقال: "إيه، لقد نهضت قبله بفترة. كيف لى أن أظل بالفراش! والعالم الجميل قد بدأ ثانيةً هذا الصباح، وقد بدأ العمل والدندنة والخربشة وأنغام المزامير وبناء الأعشاش وزفير الروائح العطرة حتى يجب عليك الخروج بدلاً من الاستناد على ظهرك. حين تقفز الشمس فى السماء تفقد البرارى صوابها من البهجة، وكنت وسط نبات الخلنج، وركضت كمجنون ، أصيح

وأغنى وجئت مباشرة إلى هنا. لم أستطع البقاء بعيدًا عن هنا. لماذا، الحديقة هنا ترقد فى حالة انتظار"؟.

وضعت مارى يدها على صدرها ولهثت كما لو كانت تركض. وقالت: "ديكون ديكون ؟ أنا سعيدة جدًا بالكاد يمكننى التنفس!".

حالما رآه يتحدث مع غريب نهض الحيوان الصغير كثيف الذيل من مكانه تحت الشجرة وأتى إليه، ونعق الغراب مرة وهبط من فرعه واستقر بهدوء على كتفه.

قال ديكون وهو يدلك رأس الحيوان الأحمر: "هذا شبل الثعلب، واسمه كابتن. وهذا ـــسووت ـــ يحلق سووت ـــ معى فى البرارى وكابتن يجرى كما لو كانت كلاب الصيد تجرى وراءه. كلاهما يشعر كما أشعر".

لم يبد على هذين المخلوقين الخوف من مارى. فحين بدأ ديكون بالمشى بقى سووت كما هو على كتفه وهرول كابتن بجانبه.

وقال لها ديكون: "انظرى هنا. انظرى كيف ارتفعت هذه النباتات وهذه وتلك! وانظرى الى هنا!".

جثى على ركبتيه وقلدته مارى . نزلا على مجموعة كاملة من الزعفران قد انبثقت بلون أرجوانى وبرتقالى وذهبى. أحنت مارى وجهها لأسفل وقبلتها، وقبلتها.

وحينما رفعت رأسها قالت: "لا تقبل أحدًا هكذا قط، الزهور شيء مختلف".

بدا ديكون متحيرًا لكن مبتسمًا وقال: "آه، لقد قبلت أمى هكذا كثيرًا حينما كنت أعود من البرارى بعد عدة أيام من التجول ،وكانت تقف بالباب تحت الشمس وهى تنظر فى سعادة وراحة". ظلا يعدوان من مكان إلى آخر بالحديقة ووجدًا أشياء عجيبة حتى ألزما نفسيهما أن يذكر أحدهما الآخر بأن يهمسا أو يتحدثا بصوت منخفض.

أراها ديكون براعم ورقة منتفخة على الفروع الوردية التى بدت ميتة. وأراها عشرة آلاف نقطة جديدة اخضرت واندفعت من القالب. وضعا أنفيهما الصغيرين المتلهّفين قريبًا من الأرض وشمّا موسمَ الربيع الدافئ وهو يتنفس؛ حَفرا وجذبا النبات وضحكا بنشوةٍ وصوت منخفض حتى تشقلب شعر السّيدةِ مارى كشعر ديكون، وخداها كانا أحمرين كما الخشخاش.

كل سعادة وجدت على الأرض كانت بالحديقة هذا الصباح، وفى منتصفها جاءت البهجة أكثر بهجة من ذى قبل، لأنها كانت أكثر روعة. ثم طار شيء بسرعة شديدة عبر الحائطِ واندفعَ خلال الأشجارِ إلى أن انتهى إلى جزء ناضج بالزاوية. ضوء قليل لطائر أحمر الواجهه وشيء يتدلى من منقاره. وقف ديكون ساكنًا تمامًا واضعًا يده على مارى كما لو أنهما اكتشفا أنهما يضحكان فى الكنيسة.

همس فى اتساع يوركشاير: "نحن لا نستطيع الحركةِ، نحن بالكاد نستطيع التنفس. أنا علمت أنه كان رفيق صيد حين بذرته لاحقًا. إنه أبو حناء وذرستاف. إنه يبنى عشه. إنه سيبقى هنا إذا لم نطرده". استقرّا بهدوء على العشبِ وجَلسا هناك دون حركة.

قال ديكون: "لا يَجِبُ أنْ يبدوَ علينا أنَّنا نراقبُه عن كثب، سوف يغضب إذا وصله انطباع أننا نتدخل الآن. سيكون مختلفًا إلى حد ما إلى أن ينتهى ذلك كله. هو يُعد للتدبيرِ المنزلى. سوف يصبح أكثر جبنًا وأكثر عرضة لأخذ الأمراض. لن يحصل على وقت لا للتزاور ولا للمرافقة والقيل والقال. يجب أن نظل ساكنين قليلاً وننظر فقط كما لو أننا أعشاب وأشجار وشجيرات. وحينما يتعود على رُؤيتنا أنا سَأُزقزقُ قليلاً وهو سَيَعْرفُ أننا لن نكُونَ فى طريقه.

لم تكن السّيدة مارى متأكّدة بأنَّهَا تعرِف كيفَ تُحاولُ الظُهُور__ كما يبدو ديكون__ مثل العشبِ والأشجارِ والغاباتِ. لكنه قال الشيء الغريب كما لو كان أبسط شيء وأكثر شيء طبيعى بالعالم، وهى شَعرتْ بأنّه يَجِبُ أَنْ يكُونَ سهلاً تمامًا إليه،وشعرت أنه يجب أن يكون سهلاً كما قال، فراقبته بعناية لدقائق قليلة ، وهى تتعجب إذا كان يمكن له أن يتحول بشكل هادئ إلى الأخضر ويكون كالفروع والأوراق. لكنه ظل جالسًا فقط وبشكل رائع وعندما تكلم خفض صوته بقدر من النعومة. حتى كان صعبًا عليها أن تسمعه، لكنها استطاعت.

وهو يقول: "هذا هو موسم الربيع، وبناء العش. أنا أؤكد أن هذا ما يجرى كل عام منذ بدء العالم. فلهم طريقتهم فى التفكير وفعل الأشياء ومن الأفضل ألا يتدخل الشخص. يمكن أن تخسرى صديقًا فى موسم الربيع أسهل من أى موسم آخر إن كنت فضولية وبذيئة".

قالت مارى برقة عالية: "إن تحدثنا عنه فأنا لا أستطيع التوقف عن النظر إليه، يجب أن نتحدث عن شيء آخر. هناك شيء أريد أن أخبرك إياه".

قال ديكون: "هو سيفضل هذا إذا تكلمنا عن شيء آخر، ماذا لديك لتخبرينى به؟".

قالت مارى هامسةً: "حسنًا__ هل تعلم بأمر كولن ؟".

أدار رأسه لينظر إليها وسألها: "ماذا تعرفين عنه ؟".

أجابت مارى: "إننى قد رأيته. كنت أتحدث معه كل يوم هذا الأسبوع. أرادنى أن أجئ. ويقول إننى أساعده أن ينسى أمر المرض والموت،"

نظر ديكون فى ارتياح لحظة ما خمدت المفاجأة من وجهه المستدير. وهتف وقال: "إننى مسرور لذلك، أنا حقًا مسرور جدًا. ذلك يجعلنى أكثر لينًا. أعلم أننى لا يجب أن أتحدث عنه وأنا لا أحب إخفاء الأشياء".

فقالت مارى: "ألا تحب إخفاء أمر الحديقة؟".

أجاب ديكون: "أنا لن أتحدث عنها أبدًا، لكننى قلت لأمى، قلت لها ــأمى، إن لدى سرًا أحتفظ به. وهو ليس سيئًا وأنت تعلمين هذا، إنه ليس أسوأ من إخفاء أماكن أعشاش الطيور، أنت لا تمانعين فى هذا، أليس كذلك؟".

كانت مارى تحب دائمًا أن تسمع عن أمه. فسألته وهى لا تخشى إطلاقًا مما ستسمع: "وماذا قالت لك؟".

ابتسم ديكون بطريقة معينة حلوة. وأجاب: "ما قالته، كعادتها، فركت رأسى وضحكت وقالت: "إيه، أيها الفتى يمكنك أن تحتفظ بالأسرار التى تحبها. لقد عرفتك اثنى عشر عامًا".

فسألته مارى: "وكيف عرفت أمر كولن؟".

"كل الناس يعلمون أمر السيد كرافن ويعلمون أن هناك فتى يبدو أنه كسيح، ويعلمون أن السيد كرافن لا يحب أن يحادثه أحد عنه. الناس جميعًا آسفون لأجل السيد كرافن لأن السيدة كرافن كانت سيدة شابة وجميلة وكانا مولعين ببعضهما البعض. ودائمًا ما تتوقف السيدة ميدلوك عند كوخنا أثناء ذهابها إلى ثويت ولا مانع لديها أن تحادث أمى أمامنا نحن الأطفال، لأنها تعلم أننا قد رُبّينا على الوفاء...

كيف اكتشفت أمره؟ كانت مارثا فى ضيق المرة الأخيرة التى أتت فيها إلى البيت. وقالت إنها سمعته مغتاظًا وكان يسأل أسئلة ولم تكن تعرف ماذا تقول".

قصت له ماري ما حدث منتصف الليل عن أصوات الريح التي أيقظتها والأصوات الضعيفة البعيدة لصوت المشتكي ذلك الذي قادها أسفل الطرقات المظلمة ومعها شمعتها وانتهت بافتتاحها باب الغرفة ذات الإضاءة الخافتة وسرير كرافن ذي الأعمدة الأربعة في الزاوية. وعندما وصفت ذلك الوجه العاجيّ الأبيض والعيون السوداء المحددة الغريبة حينها هز ديكون رأسه.

وقال: "إنهما يشبهان عيني أمه تمامًا، إلا أن عينيها كانتا مبتسمتين دائمًا. يقولون إن السيد كرافن كان لا يتحمل أن يراه متيقظًا وذلك لأن عينيه تشبهان تمامًا عيني أمه وهما الآن مختلفان في وجهه الضعيف البائس".

همست ماري: "هل تظن أنه يريد موته؟".

"لا بل إنه يتمنى لو لم يولد. هكذا تقول أمي وهذا أسوأ شيء في الحياة يمكن أن يحدث لطفل. فكما أنهم ليسوا مرغوبًا بهم فلن ينمو ولن يزهروا أبدًا. لقد اشترى السيد كرافن كل ما يمكن أن يشترى بالمال من أجل الفتى المسكين لكن يود أن ينسى أنه على ظهر الأرض. لسبب واحد، أنه يخشى أن ينظر إليه يومًا ويجد أنه أحدب".

قالت ماري: "حتى كولن نفسه يخشى من هذا وأن ظهره لن ينتصب، ويقول إنه دائم التفكير فإن أصابه يومًا نتوء فسوف يجن ويصرخ حتى الموت. لا يجب أن يظل راقدًا يفكر في أشياء كهذه. لا يمكن لفتى أن يتحسن إذا كان فكره في هذا النوع من الأشياء؟".

كان الثعلب يرقد على العشب بالقرب منه، متطلعًا أن يربته الآن أو لاحقًا، وانحنى ديكون وفرك رقبته برقة وأخذه التفكير فى صمت لدقائق . وعمًّا قريب رفع رأسه وشاهد الحديقة.

وقال: "متى كانت أول مرة ندخل فيها هنا، كان كل شيء فيها رماديًا. لكن انظرى حولك الآن وأخبرينى ألا يوجد اختلاف" .

نظرت مارى حولها وحبست أنفاسها قليلاً. وصاحت: "لماذا! فالجدران الرمادية تتغير كما لو كانت السحب الخضراء تزحف فوقها . تمامًا مثل حجاب الشاش الأخضر" .

قال ديكون: "أها، وستكون أكثر وأكثر اخضرارًا حتى يختفى اللون الرمادى. هل يمكنك أن تخمنى فيما كنت أفكر؟"

قالت مارى بتحمس"أعلم أنه كان شيئًا لطيفًا، وأعتقد أنه يخص كولن:"

"كنت أفكر لو أنه خرج إلى هنا فلن يراقب النتوءات التى تكبر على ظهره بل سيراقبُ البراعم تفرُّ على شجيرات الورد،"أوضح ذلك ديكون:"وسوف يصبح أكثر صحة، كنت أتساءل إذا كنا نستطيع أن نجلب له المرح بأن يخرج إلى هنا ويرقد تحت الأشجار فى عربته" .

قالت مارى :"أنا نفسى كنت أتساءل ولقد كنت أفكر فى ذلك غالبية الوقت ولقد تحدثت إليه، وساءلت نفسى إن كان يستطيع أن يحفظ سرًا وتساءلت أيضًا إن كنا نستطيع أن نحضره إلى هنا دون أن يراه أحد. أعتقد أنه يمكنك أن تدفع عربته. قال الطبيب لابد له من الهواء النقى المتجدد

وإن أراد أن نأخذه للخارج فلن يجرؤ أحد أن يعصيه . هو لن يخرج بسبب الناس الآخرين وربما سيكونون مسرورين لو أنه خرج معنا. يمكن أن يأمر البستانيين أن يبتعدوا وعليه فلن يكتشف أحد الأمر". كان ديكون يفكر بإمعان حتى إنه خدش ظهر كابتن.

وقال: "سوف يكون مفيدًا له، إننى أؤكد ذلك"، لن نفكر أبدًا فى أنه لم يكن ليولد. نحن لابد أن نكون طفلين يراقبان نمو حديقة ، وسيكون كذلك هو الآخر. فتيان وفتاة صغيرة يشهدون موسم الربيع. أؤكد أن ذلك سيكون أفضل من علاج الطبيب.

قالت مارى: "لقد ظل راقدًا بحجرته طويلاً ودائم الخوف من ظهره، وهو ما جعله مريبًا غريب الأطوار، إنه يعلم أشياء كثيرة نافعة من الكتب لكنه لم يعرف شيئًا آخر . يَقُولُ إنه كَانَ مريضًا جدًّا لدرجة أنه لا يلاحظ الأشياء ويَكْرهُ الخروجَ ويكْرهُ الحدائقَ والبستانيين. لكن يحب أن يسمع عن هذه الحديقة لأنها مختبئة. أنا لم أجرؤ أن أخبره الكثير ، لكنه أراد أن يراها".

قال ديكون: "بالتأكيد سوف نأتى به إلى هنا فى وقت ما ، إننى أستطيع دفع عربته بقدر كاف. هل لاحظت كَيف كان أبو الحناء وصاحبه يَعْملانِ على حين نحن نَجْلسُ هنا؟ انظرى إليه وهو جاثم على غصنه، أتساءل أين أفضل مكان لوضع ذلك الغصن الذى ناله بمنقاره".

صفر إحدى صفارات النداء الخفيضة وأدار أبو الحناء رأسه ونظر إليه متسائلاً، وهو مازال ممسكًا بغصنه فى منقاره. تحدث إليه ديكون كما فعل وذرستاف، لكن نغمة ديكون كانت نوعًا من النصيحة الودية.

وقال: "أين لك أن تضعها، سيكون كل شىء على ما يرام. أنت عرفت كيف تبنى لك عشًا من قبل أن تخرج من البيضة. شىء متواصل معك، يا فتى. لا يوجد وقت لتضيعه".

قالت مارى وهى تضحك فى ابتهاج: "أوه، أحب أن أسمعك تحادثه ! إن بن وذرستاف يوبخه ويلهو به، وهو يحجل حوله وكأنه فهم كل كلمة قيلت، وأعلم أنه يحبه. يقول بن وذرستاف إنه مغرور حتى إنه يفضل أن تلقى الأحجار عليه عن أن يلاحظها أحد ".

ضَحكَ ديكون أيضًا واستأنف الكَلام: "أنت تعرفُ أنّنا لَنْ نُزعجَك،" قالَها لأبِي الحناء.

"نحن أُقرب أن نكون أنفسنا أشياء برّية. نحن بناة عُش أيضًا، بوركْت. ولكن انتبه لا تشِ بنا".

ومع ذلك لَمْ يُجبْ أبو الحناء ، لأن منقارَه كَانَ منشغلاً، عَرفَت مارى ـــعندما طارَ بعيدًا بغصينِه إلى زاويته الخاصة من الحديقةِ– إن ظلام عينيه الندية اللامعةِ أفادت أنَّه لن يُخبر سِرَّهم لأحد فى العالمِ.

الفصل السادس عشر

قالت ماري: "لن أفعل! ".

كان لديهم الكثير من العمل في ذلك الصباح، مما أخر ماري عن الرجوع للمنزل، وكانت أيضًا على عجلة لإنجاز عملها حتى أنها نسيت كولن تقريبًا حتى آخر لحظة.

قالت لمارثا: "أخبري كولن أنني لن أستطيع القدوم إليه الآن، أنا مشغولة جدًا في الحديقة".

تزايدت الرهبة على مارثا.

قالت: "آنسة ماري، يمكن أن يخرج عن شعوره عندما أخبره بذلك".

ولكن ماري لم تكن بهذا القدر من الرهبة من كولن مثل الباقين، كما أنها لم تكن من النوع المنكر لذاته.

أجابتها قائلة: "لا أستطيع البقاء، فإن ديكون ينتظرني". ثم هرولت بعيدًا.

كانت الظهيرة أكثر جمالاً وأكثر انشغالاً أيضًا عَن الصباح. كانت معظم الأعشاب الضارة قد أزيلت بالفعل من الحديقة ومعظم الزهور والأشجار كانت قد شذبت وأثيرت التربة حولها. كان ديكون قد أحضر مجرافًا لنفسه وكان قد علم مارى كيف تستخدم كل أدواتها، لدرجة أنه حتى ذلك الوقت كان واضحًا أنه بالرغم من أن ذلك المكان البرى الجميل لم يرق لكونه "حديقة بستانى". غير أنها كانت برية ذات نباتات نامية قبل انتهاء فصل الربيع.

قال ديكون وهو يعمل بكل طاقته: "سيكون من فوق هناك أزهار تفاح وأزهار كرز، وسيكون هناك أشجار مزهرة من الخوخ والبرقوق بجانب الحائط، وستكون الحشائش مثل سجادة من الزهور".

كان الثعلب الصغير والغراب مشغولين وسعيدين مثلهما، وكان أبو الحناء ووليفه يطوّفان رائحين وغادين مثل خطين دقيقين للبرق. أحيانًا كان الغراب يرفرف بجناحيه الأسودين ويحلق بعيدًا فوق قمم الأشجار فى المنتزه. كل مرة كان يرجع الغراب ويجثم قريبًا من ديكون وينعب لعدة مرات، وكأنه كان يحكى مغامراته، وديكون يتحدث إليه كما كان يتحدث لطائر أبى الحناء. مرة كان ديكون مشغولاً عن إجابته من البداية، فطار وحط على كتفيه وبلطف قرص أذنه بمنقاره الكبير. عندما أرادت مارى أن تستريح قليلاً، جلس ديكون معها تحت شجرة ثم أخرج مزماره من جيبه وعزف عليه لحنه العذب الصغير الغريب، فظهر سنجابان على الحائط وظلا ينظران ويستمعان.

قال ديكون وهو ينظر إليها أثناء حفرها: "لقد أصبحت قوية شيئًا ما، بدأ شكلك يختلف، أكيد".

كانت مارى متوردة بسبب العمل العضلى والروح المعنوية المرتفعة.

قالت بابتهاج: "وزنى يزداد يومًا بعد يوم، على السيدة ميدلوك أن تحضر إليّ أثوابًا أكبر حجمًا. تقول مارثا إن شعرى يزداد كثافة. فهو ليس ناعمًا ولا مفرودًا".

غادروا الحديقة وكانت الشمس تشرع فى الغروب وترسل أشعتها ذهبية اللون لتتمدد تحت الأشجار.

قال ديكون: "سأكون بحال طيبة غدًا، وسأحضر للعمل قبل شروق الشمس".

قالت مارى: "وأنا أيضًا".

هرولت إلى المنزل بأسرع ما استطاعت قدماها أن تتحمل. كانت تريد أن تحكى لكولن عن صغيرى الثعلب والغراب وعما فعله موسم الربيع. كانت متأكدة من أنه سيحب سماع ذلك. لذلك لم تسعد عندما فتحت باب غرفتها ووجدت مارثا واقفة فى انتظارها بوجهها الحزين.

سألتها: "ما الخطب؟ ماذا قال كولن عندما أخبرته أننى لم أستطع المجيء".

قالت مارثا: "إيه! أتمنى أن تذهبى. لقد كاد أن يدخل فى واحدة من نوبات غضبه. استهلك الكثير من الجهد لتهدئته. كان يراقب الساعة طوال الوقت".

أطبقت مارى شفتيها. لم تعد تألف مراعاة الآخرين بخلاف كولن ولم تر سببًا يجعل صبيًا مريض المزاج يتدخل فى أكثر شىء أحبته. لم تعرف شيئًا عن الشفقة بأناس اعتادوا المرض والعصبية ولم يعلموا أنهم يمكنهم التحكم فى انفعالاتهم ولا يحتاجون لأن يكون الآخرون مرضى وعصبيين أيضًا. عندما كانت تصاب بالصداع فى الهند كانت تفعل كل ما بوسعها لترى أن كل الناس لديهم نفس الصداع أو شيئًا سيئًا مثله. أحست أنها كانت محقة، ولكنها الآن بالطبع شعرت أن كولن كان مخطئًا تمامًا.

لم يكن على أريكته عندما دخلت الغرفة. كان نائمًا على ظهره فى سريره ولم يدر وجهه إليها. كانت بداية غير مطمئنة، شارت مارى إليه بطريقتها الحادة.

قالت: "لماذا لم تقم من سريرك؟ ".

أجابها دون أن ينظر إليها: "لقد قمت من سريرى عندما ظننت أنك قادمة، ثم أمرتهم أن يأخذونى لسريرى بعد الظهر. كان ظهرى يؤلمنى ورأسى يؤلمنى وكنت متعبًا. لماذا لم تأتى؟ ".

قالت مارى: "كنت أعمل فى الحديقة مع ديكون".

عبس وجه كولن ونظر إليها بشكل يوحى أنه تنازل. قال: "لن أدع هذا الولد يأتى هنا إذا ذهبت ومكثت معه بدلاً من أن تجلسى وتتحدثى معى".

طارت مارى من الفرحة. كانت تستطيع أن تخفى فرحتها. فقط صارت فظة وعنيدة ولم تكترث لما حدث.

أجابت بسرعة: "إذا طردت ديكون، فلن أدخل هذه الغرفة أبدًا".

قال كولن: "ستضطرين إن أردت أنا ".

قالت مارى: "لن أفعل! ".

قال كولن: "سأجبرك، سوف يجرونك إلى هنا".

قالت مارى بعنف: "هل سيفعلون أيها الأمير الهندي! يمكنهم أن يجرونى إلى هنا لكنهم لا يستطيعون إجبارى على الكلام عندما يأتون بى إلى هنا. سأجلس وأحكم أسنانى ولن أقول لك أى شىء بالمرة. أنا حتى لن أنظر إليك. سأظل محدقة فى الأرض".

كانا ثنائيًا لطيفًا حيث حدقا فى بعضهما. لو كانا طفلين من أولاد الشوارع لقفزا فى وجه بعضهما ودخلا فى معركة عنيفة. وبما أنهما كذلك، فقد فعلا ما يتبع هذه النظرات.

قال كولن: "أنت شىء أنانى؟ ".

قالت مارى: "وأنت ماذا؟ الأنانيون دائمًا يقولون ذلك. كل من لا يفعل ما يريدونه يكون أنانيًا. أنت أنانى أكثر منى. أنت أكثر صبى أنانى رأيته فى حياتى".

قال بسرعة وحدة: "لست كذلك! لست أنانيًا مثل ديكون الطيب هذا. إنه يبقيك تلعبين فى التراب وهو يعلم أننى وحدى طوال الوقت. إنه أنانى، لو تحبين! ".

برقت عينا مارى غضبًا، وقالت: "إنه أفضل من أى صبى على الأرض. إنه – إنه مثل المَلَكَ".

يمكن أن يبدو ذلك سخيفًا لكنها لم تكترث.

قال كولن بسخرية شديدة: "ملك طيب! إنه ولد شعبى جاء من الكوخ من البراري! ".

أجابت مارى بسرعة: "إنه أفضل من أمير هندى شعبي! أفضل ألف مرة! ".

لأنها كانت الأفضل، بدأت تأخذ الموقف الأقوى. الحقيقة أنه لم يدخل فى عراك مع أحد من أقرانه فى حياته، وفوق كل شىء كان ذلك جيدًا له، بالرغم من أنه لا هو ولا مارى كان لهما دراية بذلك. أدار وجهه على وسادته وأغلق عينه فانهمرت منها دمعة كبيرة وجرت على خده. بدأ يشعر بالشفقة والأسف على نفسه– ليس على أى شخص آخر.

قال: "لست أنانيًا مثلك، لأننى دائمًا مريض، وأنا متأكد من الورم الذى سأحمله على ظهرى، وبجانب ذلك سأموت".

جادلته مارى بلا تعاطف وقالت: "لست كذلك، "

فتح عينيه ويملؤهما شعور بالنقمة. لم يسمع كلامًا قيل له مثل ذلك من قبل. أصبح فجأة غاضبًا ومسرورًا، إن شعر أحد بذلك في وقت واحد.

صاح قائلاً: "لست كذلك؟ أنا سأموت! تعلمين أنني سأموت! الجميع يقولون ذلك".

قالت ماري بفظاظة: "لا أصدق ذلك! تقول ذلك فقط لتكتسب عطف الآخرين. أومن أنك تتباهى بذلك. لا أصدق ذلك! لو كنت ولدًا طيبًا كان يمكن لذلك أن يكون صحيحًا! لكنك معقد أكثر من اللازم".

بالرغم من ظهره المريض، جلس كولن بشكل صحيح تمامًا.

أمسك وسادته وقذفها في وجهها صارخًا: "اخرجي من الغرفة!".

لم يكن قويًا بدرجة تكفي لتصل إليها، فقط وقعت الوسادة تحت قدميها، لكن وجه ماري بدا مطبقًا مثل كسارة البندق.

قالت: "سأذهب، لكنني لن أرجع ثانية".

سارت نحو الباب وعندما وصلت إليه استدارت وقالت: "كنت أنتوي إخبارك عن كل أنواع الأشياء الجميلة، أحضر ديكون ثعلبه وغرابه وكنت سأخبرك بكل شيء، الآن لن أقول لك أي شيء".

خرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفها. وهناك ذهلت عندما رأت الممرضة المتدربة واقفة وكأنها كانت تتنصت، وزاد من دهشتها أنها كانت تضحك. كانت فتاة ضخمة وأنيقة لكنها لم تبدُ كمتدربة بالمرة. لأنها لم تكن

تتحمل المرضى وكانت دائمًا تختلق الأعذار لتترك كولن لمارثا أو لأى شخص آخر يحل محلها. لم تكن مارى تحبها قط، ببساطة وقفت وحدقت فيها وهى تقهقه خلف منديلها.

سألتها: "ما يضحكك؟".

قالت الممرضة: "أضحك عليكما أيها الصغيران، هذا أفضل شىء يمكن أن يحدث لطفل مريض مدلل وهو أن يجد أحدًا يقف أمامه بنفس طريقته"؛ ثم ضحكت خلف منديلها ثانية". لو كان لديه أخت مشاكسة تتعارك معه لكان ذلك وسيلة إنقاذه".

"هل سيموت؟"

"قالت الممرضة: "لا أدرى ولا يهمنى، الهستيريا والانفعال هما نصف ما يوجعه".

سألت ماري "ماذا تعنى هستيريا؟".

ستجدينها لو وضعته فى نوبة غضب بعد ذلك- ولكنك بمعدل ما أعطيته شيئًا يصل به للهستيريا، وأنا مسرورة من ذلك".

رجعت مارى إلى غرفتها وقد تلاشى شعورها الذى جاءت به من الحديقة. كانت غاضبة ولديها شعور بخيبة الأمل ولم تشعر بأى أسف تجاه كولن. كانت تتطلع إلى إخباره أشياء كثيرة عظيمة، وكانت تريد المحاولة لتقرر هل ستكون الأمور على ما يرام إن وثقت به وأودعته الأسرار. كانت قد بدأت تفكر فى إمكانية حدوث ذلك، أما الآن فقد غيرت رأيها كليًا. فلن

تخبره أبدًا ويمكنه المكوث بحجرته ولا ينال أى قسط من الهواء المنعش وليمت إن أراد!.

سيخدمه ذلك فعلاً! شعرت بحموضة شديدة جدًّا لمدة دقائق، نسيت أمر ديكون تقريبًا والستار الأخضر الذى يحبو حول العالم والريح الناعمة التى تهب من البرارى.

كانت مارثا فى انتظارها فى ذلك الوقت، و قد تبدل القلق على وجهها بالفضول والاهتمام. كان هناك صندوق خشبى على الطاولة وقد أزيح غطاؤه، كان الصندوق مليئًا برزم مرتبة.فقالت مارثا: "لقد أرسله لكِ السيد كرافن، ويبدو وكأن به ألبوم صور".

حينها تذكرت مارى ما سألها عنه فى ذاك اليوم الذى ذهبت إليه فى حجرته. "هل تريدين أى شىء ـــ عرائس – لعب– كتب؟" ثم فتحت الرزم متسائلة هل أرسل عروسةً وتتعجب ماذا ستفعل بها إن كان قد أرسلها. لكنه لم يرسل عروسة. بل العديد من الكتب المتحفة كتلك التى يقتنيها كولين، اثنان منها عن البستنة ممتلئان بالصور. واثنان أو ثلاثة ألعاب وكان معها أيضًا منضدة كتابة جميلة صغيرة عليها علامة ذهبية لأحرف أولى وقلم ومحبرة ذهبية.

كُلّ شىء كَانَ لطيفًا جدًّا حتى بدأ السرور على وجهها وخرج الغضب من رأسها. مَا تَوقّعتْ أَنْ يَتذكّرَها مطلقًا وقلبها الصَغير الصلب بدا دافئًا جدًّا. قالت: "أستطيع أن أكتب أفضل من أن أطبع، وأول ما سأكتبه بهذا القلم سيكون رسالة أخبره فيها أننى قد التزمت كثيرًا".

لو كانت الصداقة كما هى مع كولن لكانت ركضت فى الحال لتريه الهدايا. ولربما كانوا سيلقون نظرة على الصور ويقرؤون قليلاً فى كتب البستنة، ولربما حاولوا اللَّعب باللِّعب. وكان سيحظى باستمتاع كبير لم يحظ به من قبل ولو مرة. ألم يفكر ولو لمرة أنه سيموت ولم يضع يده على عموده الفقرى ليرى إذا ما ظهر به نتوء. له طريقته لعمل ذلك، تلك التى لم تتحملها. أعطاها ذلك شعورًا بالانزعاج والخوف؛ لأنه هو نفسه يبدو خائفًا دائمًا. لأنه قال إذا وجد يومًا نتوءً صغيرًا بظهره فسيعلم أن حدبته بدأت فى النمو. الشىء الذى سَمعَ السّيدةَ ميدلوك تَهْمسُ به إلى الممرضةِ أعطاه تلك الفكرةَ وظل يعتقده سرًا إلى أن ثَبُت تمامًا فى عقله. قالت السيدة ميدلوك إن الانحناءة بدأت تظهر فى ظهر أبيه عندما كان صغيرًا. ذلك الذى لم يخبرِ أحدًا به إلا مارى . وأن أغلب "نوبات غضبه" ــكما يسمونهاــ نشأت من الخوف الهستيرى الداخلى. كانت آسفة لأجله حالما أخبرها بذلك.

قالت لنفسها:"دائمًا ما يبدأ التفكير فى هذا عندما يكون غاضبًا أو متعبًا، ولقد كان غاضبًا اليوم إذن ربما ــ ظل يفكر بهذا طيلة الظهيرة".
ظلت واقفة بلا حراك ناظرة إلى السجادة وهى تفكر. ثم ترددت، وعقدت حاجبيها قائلة:"لقد قلت إننى لن أرجع ثانية– لكن ربما – فقط ربما ، أنا سأذهب وأرى إن كان يريدني– فى الصباح . ربما سيحاول أن يلقى وسادته عليّ ثانية، لكن– أعتقد– سوف أذهب".

الفصل السابع عشر

نوبة غضب

كانت قد استيقظت مبكرًا جدًّا فى الصباح وعملت بجد فى الحديقة حتى أصبحت مجهدة وغلبها النعاس، لذلك بمجرد أن أحضرت مارثا عشاءها وتناولته كانت سعيدة بخلودها إلى النوم. عندما وضعت رأسها على وسادتها تمتمت لنفسها قائلة: "سأخرج قبل الإفطار وأعمل مع ديكون ثم بعد ذلك – أعتقد – سأذهب لأراه".

كانت تظن أن الوقت منتصف الليل عندما أيقظها مثل ذلك الصوت المفزع الذى جعلها تقفز من سريرها مسرعة. ماذا كان ذلك؟ – ماذا كان ذلك؟ فى اللحظة التالية أدركت تمامًا أنها عرفته. كانت الأبواب تفتح وتغلق وصوت الأقدام تهرول فى الردهات وشخص ما يبكى ويصرخ فى نفس الوقت، يصرخ ويبكى بطريقة فظيعة.

قالت:"إنه كولن، انتابته واحدة من نوبات غضبه التى أسمتها المرضة هستيريا. تبدو مرعبة فى سمعى؟".

حينما كانت تستمع إلى صراخه ونشيجه لم تتعجب من هلع الناس ومجاراتهم له بالإضافة إلى سماع صوته.

وضعت يديها على أذنيها وأحست بالتعب والارتجاف.

ظلت تقول:"لا أعرف ماذا أفعل. لا أعرف ماذا أفعل. لا أستطيع تحمل ذلك".

تساءلت إذا كان سيتوقف لو تجرأت وذهبت إليه، ولكنها تذكرت كيف طردها من غرفته وظنت أن رؤيتها ربما تحوله للأسوأ. حتى عندما كانت تحكم ضغط يديها على أذنيها كانت لا تستطيع منع هذه الأصوات الفظيعة. كرهت هذه الأصوات وأصيبت بالذعر منها حتى إنها فجأة ودت لو دخلت نفسها فى نوبة غضب وأرعبته كما يرعبها. لم تعتد على تعصب مزاج أحد غيرها. تركت يديها من على أذنيها وقفزت وسحقت بقدمها.

صاحت عاليًا:"لابد أن يوقف. لابد أن يوقفه أحد. لابد أن يضربه أحد". ثم سمعت صوت أقدام تهرول فى الردهة ثم فتح بابها ودخلت المرضة. لم تكن تضحك الآن بأى شكل. إنها الآن تبدو شاحبة تمامًا.

قالت بسرعة كبيرة:"لقد دخل فى نوبة غضب هستيرية، سوف يؤذى نفسه. لا يستطيع أحد أن يفعل أى شىء معه. تعالى وحاولى كطفل طيب. إنه يحبك".

قالت مارى وهى تفرك قدمها بانفعال: "لقد طردنى من غرفته هذا الصباح". هذه الفركة نفسها أسعدت الممرضة. الحقيقة أنها كانت تخشى أن ترى مارى تصرخ وتخبئ رأسها تحت دولاب الملابس.

قالت: "هذا صحيح، أنت فى الحالة العصبية السليمة. اذهبى ووبخيه. امنحيه شيئًا جديدًا يفكر فيه. اذهبى يا طفلتى بأسرع ما يمكنك".

لم تمكث مارى طويلاً حين أدركت أن الأمر مضحك مثلما أنه مخيف، المضحك أن الكبار كانوا خائفين وجاؤوا لفتاة صغيرة أحسوا أنها سيئة مثل كولن نفسه. هرولت بامتداد الردهة وكلما اقتربت من الصراخ ازداد غضبها. أحست أنها غاضبة تمامًا وقت وصولها إلى الباب. صفعت الباب بقوة وفتحته ثم هرولت عبر الغرفة إلى السرير المربع.

كادت أن تصرخ: "توقف! توقف! فأنا أكرهك! الجميع يكرهونك! أتمنى لو هرع الجميع خارج المنزل وتركوك تصرخ مع نفسك حتى الموت! لن تستغرق إلا دقيقة، وأتمنى ذلك!".

لم يكن لأى طفل رحيم أن يقول ذلك أو يفكر فيه. ولكنه حدث حتى إن الصدمة من سماعه كانت أفضل شىء ممكن لهذا الصبى الهستيرى الذى لم يجرؤ أحد أن يكبحه أو يعارضه.

كان يرقد على وجهه يضرب وسادته بيديه وكان بالفعل يقفز من مكانه. كان وجهه يبدو مخيفًا، أبيض وأحمر ومنتفخًا، وكان يلهث ويكتم صوته، ولكن مارى الصغيرة المتوحشة لم تكترث ولو لذرة.

قالت: "إن صرختَ صرخة واحدة أخرى، فسأصرخ أيضًا، وأستطيع الصراخ بصوت أعلى منك وسوف أرعبك، سوف أرعبك!".

بالفعل توقف عن الصراخ لأنها أفزعته كذلك. صراخها الذى وصله أصابه بالذعر. كانت الدموع تنهمر على وجهه وتتناثر عليه.

قال وهو يلهث وينشج: "لا أستطيع التوقف! لا أستطيع – لا أستطيع!".

صاحت مارى: "بل تستطيع، نصف ما يمرضك هو الهستيريا والغضب – فقط الهستيريا – الهستيريا – الهستيريا!" وكانت تفرك بقدمها فى كل مرة تقولها.

قال كولن وهو يلهث: "تحسست الحدبة – تحسستها، أعلم أننى سوف – سوف أحمل حدبة على ظهرى ثم أموت"، وبدأ يتلوى مرة أخرى واستدار على وجهه وظل ينشج وينتحب لكنه لم يصرخ.

عارضته مارى بقوة: "لم تتحسس حدبة، كان ذلك فقط حدبة هستيرية. الهستيريا تؤدى إلى الحدبات. لا يوجد شىء بشأن ظهرك البغيض– لا شىء سوى الهستيريا! استدر ودعنى أنظر إليها".

أعجبتها كلمة "هستيريا" وأحست بشكل ما أن للكلمة تأثيرًا عليه. ربما كان هو مثلها ولم يسمعها من قبل.

قالت آمرة: "يا ممرضة، تعالى هنا وأرينى ظهره الآن".

كانت الممرضة والسيدة ميدلوك ومارثا يقفن مجتمعات يحملقن فيها، وأفواههن نصف مفتوحة. ثلاثتهن كن يشهقن خوفًا لمرات عديدة. تقدمت الممرضة وهى شبه خائفة. كان كولن يلهث بتنهدات متقطعة.

قالت مترددة بصوت خافت: "ربما لن يدعنى".

سمعها كولن، وزفر وسط بكائه قائلاً: "أري- أريها! وسوف ترى إذن!".

عندما تعرى ظهره، كان نحيلاً وهزيلاً. تستطيع أن تعد كل ضلع وكل مفصل من العمود الفقرى، مع أن الآنسة مارى لم تعدهم عندما انحنت وفحصتهم بوجه كئيب وقاسٍ. كانت تبدو فظة وكلاسيكية حتى إن الممرضة أدارت وجهها حتى تدارى اهتزاز فمها. مرت دقيقة من الصمت، حتى كولن حَاول حبس أنفاسه على حين كانت مارى تتفحص أعلى عموده الفقرى وأسفله، بتركيز كما لو كانت طبيب لندن الشهير.

قالت فى النهاية: "لا يوجد ولا حدبة واحدة! ولا أكبر من دبوس- فيما عدا فقرات العمود الفقرى، ويمكنك أن تتحسسهم فقط لأنك نحيف. أنا نفسى لدى فقرات فى عمودى الفقرى، ومن المعتاد أن تظهر مثل ما عندك، حتى بدأ جسمى يسمن، ولست سمينة بشكل يخفيها بعد. لا يوجد حدبة أكبر من دبوس. لو قلت بوجودها مرة أخرى فسوف أسخر منك".

ما عرف أحد، سوى كولن نفسه، كم كان تأثير هذه الكلمات الطفولية عليه. لو كان وجد أى أحد يتحدث معه عن هذه الأشياء المروعة

الخفية .. لو كان تجرأ من قبل أن يوجه أسئلة .. لو كان لديه صحبة من الأطفال ولم يرقد على ظهره فى منزل كبير ومغلق، يتنفس هواء مثقلاً بالخوف من الناس الذين كان معظمهم جاهلاً ومتعبًا منه، لكان أدرك أن معظم مخاوفه وأمراضه اختلقها من نفسه. لكنه ظل راقدًا يفكر فى نفسه وفى آلامه وعلله لساعات وأيام وشهور وسنين. والآن جاءت هذه الفتاة الغاضبة بلا تعاطف وأصرت بعناد على أنه لم يكن مريضًا كما كان يظن، كما أنه شعر بالفعل أنها ربما تقول الحقيقة.

قالت المرضة: "لا أدرى أنه ظن أن به حدبة فى ظهره. ظهره ضعيف لأنه لا يحاول أن يجلس. كنت أقول له إنه لا يوجد أى حدبة فى ظهره".

تجرع كولن وأدار وجهه ناظرًا إليها، وقال فى حزن: "هل كنت ستقولين؟".

"نعم، سيدى".

قالت مارى: "هناك!" وتجرعت أيضًا.

استدار كولن على وجهه مرة أخرى وأنفاسه منكسرة بشهيقه الطويل، والتى أخمدت عاصفة نشيجه، ظل كذلك لدقيقة، برغم الدموع الغزيرة التى انهمرت على وجهه وبللت وسادته. فى الحقيقة كانت الدموع تعنى أن راحة كبيرة مثيرة للفضول انتابته. ثم استدار ونظر إلى المرضة مرة أخرى وتحدث إليها بطريقة تبعد كل البعد عن طريقة أمراء الهند.

قال: "هل تعتقدين أننى – يمكننى – أن أعيش حتى أكبر؟".

لم تكن المرضة ماهرة ولا طيبة القلب، لكنها رددت كلمات طبيب لندن.

"ربما تعيش إذا فعلت ما يطلب منك ولم تفسح الطريق لغضبك، وإذا مكثت أكبر مدة ممكنة فى الهواء الطلق".

انتهت نوبة الغضب لدى كولن، فضعف جسمه وأنهكه البكاء حتى جعله ذلك يبدو لطيفًا. رفع يده قليلاً تجاه مارى فهدأ غضبها واتجهت بذراعيها نحوه، حتى بدا نوعًا من الاختلاق.

قال: "سوف – سوف أخرج معك يا مارى. لن أكره الهواء النقى عندما نجد ..". وتذكر فتوقف عن أن يكمل ويقول: "عندما نجد الحديقة الخفية".

ثم قال: "أحب أن أخرج معك إذْ سيأتى ديكون ويدفع كرسيى. أريد أيضًا أن أرى ديكون والثعلب والغراب".

أعادت المرضة ترتيب السرير وهزت الوسائد وفردتها. ثم صنعت لكولن كوبًا من شاى لحم البقر المجفف(*) ولمارى كوبًا آخر، حيث كانت مسرورة جدًّا بذلك الكوب بعد انفعالها الشديد. ذهبت السيدة ميدلوك ومارثا مسرورتين، وبعد أن أصبح كل شىء مرتبًا وهادئًا بدت المرضة وكأنها تريد أن تذهب هى الأخرى. كانت فتاة سليمة الجسم وكانت مستاءة

(*) beef tea: مشروب ساخن مصنوع من الماء، الذى غلى فيه اللحم البقرى المجفف.

من إقلاق نومها، فتثاءبت فاتحة فمها وهى تنظر إلى مارى، وقد وضعت مسند الأقدام قريبًا من السرير وأمسكت بيد كولن.

قالت: "يجب أن تعودى وتخلدى للنوم، سوف ينام بعد برهة إن لم يكن منزعجًا. وأنا نفسى سأنام فى الغرفة المجاورة".

همست مارى لكولن: "هل تريدننى أن أغنى لك الأغنية التى تعلمتها من مربيتى؟".

جذبت يداه يديها بلطف وأدار عينيه المتعبتين إليها بجاذبية.

قال: "نعم، إنها أغنية رقيقة جدًا. وسوف أنام فى دقيقة".

قالت مارى للممرضة المتثائبة: "سأجلس معه حتى ينام. يمكنك الذهاب لو تحبين".

قالت الممرضة بشكل متردد: "حسنًا، إن لم يخلد للنوم فى نصف ساعة فلابد أن تنادينى".

قالت مارى: "حسنًا جدًا".

خرجت الممرضة من الغرفة سريعًا وبمجرد خروجها جذب كولن يد مارى مرة ثانية.

قال: "كدت أن أقولها، لكنى توقفت فى الوقت المناسب. لا أريد أن أتكلم وسأنام، لكنك قلت إن لديك الكثير لتقولينه لى، هل — هل تعتقدين أنك توصلت لأى شىء يدلنا على الطريق المؤدى للحديقة السرية؟".

نظرت مارى لوجهه الصغير المسكين المتعب وعينيه المنتفختين ورق قلبها.

أجابته: "نعم، أظننى وجدت. وإذا خلدت للنوم فسأخبرك غدًا". واهتزت يداه شيئًا.

قال: "إيه يا ماري! إيه يا ماري! لو تمكنت من الدخول إليها، عليّ أن أعيش حتى أكبر! هل تظنين ذلك بدلاً من غناء أغنية المربية - يمكنكِ فقط إخبارى كما فعلت فى اليوم الأول كيف تتخيلينها من الداخل. بالتأكيد سيجعلنى ذلك أخلد إلى النوم".

أجابت مارى: "نعم، أغمض عينيك".

أغمض عينيه وتمدد تمامًا، أمسكت بيديه وبدأت تتحدث ببطء شديد وبصوت خافت جدًا.

"أظنها تركت وحدها طويلاً - حتى تحولت كلها إلى كتلة متشابكة جميلة. أعتقد أن الزهور تسلقت وتسلقت وتسلقت حتى تدلت من فروع الأشجار والحوائط وزحفت على الأرض - تقريبًا مثل ضباب رمادى غريب. بعض هذه الزهور مات .. ولكن معظمها ظل على قيد الحياة، وعندما يأتى الصيف يكون هناك ستائر ونافورات من الزهور.

أظن أن الأرض مليئة بأزهار النرجس البرّى وأزهار الثلج والزنابق والسوسن وهى تشق طريقها للخروج من الظلام. والآن بدأ الربيع - ربما - ربما - ".

الدندنة الرقيقة فى صوتها جعلته أكثر سكونًا ، رأت ذلك واستمرت.

"ربما تخرج من بين الحشائش – ربما هناك عناقيد من الزعفرانِ الإرجوانيِ والأخرى الذهبيةِ- حتى الآن. ربما بدأت الأوراق تخرج وتنسدل- وربما يختلف اللون الرمادى ويزحف حجاب من الشاش الأخضر – وينتشر- فوق كل شىء. وتأتى الطيور لتنظر إليها – لأنها – ساكنة جدًا وآمنة. وربما – ربما – ربما – ".

حقيقةً برقة وببطء، "ربما وجد أبو الحناء وليفًا – ويبنى الآن عشًا.

ثم غرق كولن فى النوم.

الفصل الثامن عشر

"لا يجب أن تضيعى الوقت"

بالطبع لم تستيقظ مارى باكرة فى الصباح- فقد تأخرت فى النوم لأنها أنهكت، وحينما جلبت لها مارثا إفطارها، أخبرتها أنه مع أن كولن كان هادئًا تمامًا إلا إنه كان مريضًا ومحمومًا كما هو الحال معه دائمًا، بعدما ينهك نفسه فى نوبة البكاء. تناولت مارى إفطارها ببطء على حين كانت تنصت للحديث.

قالت مارثا: "يقول إنه يتمنى بعد إذنك أن تذهبى وتريه قريبًا قدر الإمكان، إنه شىء غريب، يا للغرام الذى حمله إليكِ. هذا ما وهبته الليلة الماضية— أليس كذلك؟ ما كان أحد غيرك ليجرؤ أن يفعل ذلك. نعم! مسكين هذا الفتى! لقد فسد حاله حتى إن تحفظه لا ينقذه. تقول أمى إن أسوأ أمرين يمكن أن يحدثا لطفل هما ألا يكون له طريق خاص به مطلقًا – أو أن يكون دائمًا له طريق واحد".

لا تعرف أمي أيهما أسوأ. كنت أنت ألطف مزاجًا، أيضًا. لكنه يقول لى عندما دخلت حجرته، "من فضلك أخبرى الآنسة مارى أن تتفضل بالحضور وتتحدث معى؟ فكرى فى قوله تتفضل! هل ستذهبين سيدتى؟".

قالت مارى: "سأجرى لأرى ديكون أولاً، لا، سأذهب لأرى كولن أولاً وأخبره – أعلم بما سأخبره". وبدا عليها إيحاء مفاجئ.

ارتدت قبعتها حالما وصلت حجرة كولن وقد بدا لبرهة خائب الأمل. كان فى فراشه. كان وجهه أبيض بشكل مثير للشفقة وهالات سوداء تحيط بعينيه. قال لها: "أنا مسرور بمجيئك، رأسى يؤلمنى بل وجسدى كله يؤلمنى لأننى متعب جدًّا. هل ستذهبين إلى أى مكان؟". ذهبت مارى نحوه واتكأت قبالة سريره.

- وقالت: "لن أمكث طويلاً، سأذهب إلى ديكون، لكننى سأعود. كولن، إنه شيء خاص بالحديقة".

ابتهج وجهه بالكامل وعاوده اللون قليلاً. صاح كولن: "أحقًّا"، لقد كنت أحلم بها طوال الليل. وسمعتك تقولين شيئًا عن اللون الرمادى الذى تحول كله إلى الأخضر، وحلمت أننى واقف فى مكان تملؤه أوراق خضراء متناثرة. والطيور على الأعشاش فى كل مكان وهى تبدو مستريحة وساكنة. سأرقد وأظل أفكر بها حتى تعودين".

بعد خمس دقائق كانت مارى مع ديكون فى حديقتهما. كان معه الثعلب والغراب للمرة الثانية، لكن هذه المرة أحضر معه سنجابين لطيفين.

قال: "لقد جئت على ظهر فرس صغير هذا الصباح، اسمه جنب، إنه فتى جيد. لقد أحضرت هذين فى جيوبى. هذا أحدهما ويسمى "نَت" ، وهذا الآخر ويسمى "شِل" .

عندما قال "نت" وثب سنجاب على كتفه الأيمن، وعندما قال "شل" وثب الآخر على كتفه الأيسر.

عندما جلسا على الحشائش وكابتن يلف حول أقدامها، سوت يستمع بهيبة من على شجرة ونت وشل يتشممان قريبًا منهما، بدا ذلك لمارى أنه صعب عليها تحمل فراق تلك البهجة، ولكن عندما بدأت تروى قصتها تغيرت النظرة المرحة على وجه ديكون تدريجيًا مما غيّر فكرها. رأت أنه شعر بالأسف تجاه كولن أكثر منها.

نظر إلى السماء ودار ببصره من حوله.

قال: "فقط استمعى لتلك الطيور، تبدو وكأنها تملأ العالم، تغرد وتعزف، انظرى إليها وهى تتواثب حولنا، وأصغى إليها وهى تنادى بعضها. عندما يأتى الربيع يبدو وكأن العالم كله ينادى. تنبسط أوراق الشجر فتستطيعين رؤيتها وأقول دائمًا ينتشر العبير فى كل مكان" .

أخذ شهيقًا بأنفه المرفوعة المسرورة، وقال: "وهذا الولد المسكين الراقد السجين لا يرى شيئًا حتى إنه صار يفكر فى أشياء تجعله يصرخ. إيه! يجب أن نخرجه إلى هنا- يجب أن نعطيه الفرصة ليشاهد ويستمع ويستنشق الهواء ونعرضه لفترة طويلة للشمس الساطعة. ولا يجب أن نضيع وقتًا فى ذلك" .

كان ديكون عندما يهتم لأمر يتحدث بلهجة يوركشاير الثقيلة، رغم أنه فى الأوقات العادية يحاول أن يعدل منها حتى تفهمه مارى. لكنها أحبت لهجته المحلية وكانت تحاول نفسها أن تتعلم كيف تتحدث بها. لذلك تحدثت بها قليلاً الآن.

قالت: "نعم، هذا ما يجب علينا فعله، سأقول لك ماذا يجب أن نفعل أولاً". واصلت حديثها على حين ابتسم ديكون، لأنه كان مسرورًا عندما حاولت الفتاة الصغيرة أن تقلد لهجة يوركشاير.

"لقد اشتاق لأن يراك. يريد أن يراك ويرى سوت وكابتن. عندما أرجع إلى المنزل وأحدثه سأطلب منه أن تأتوا لرؤيته فى الصباح. وأحضر هذه المخلوقات معك، ثم – وبعد فترة – عندما تزداد أوراق الشجر ويظهر برعم أو اثنان سنأتى به وأنت عليك أن تدفع كرسيه، سنحضره إلى هنا ونريه كل شىء".

عندما أنهت كلامها كانت فخورة بنفسها شيئًا ما. لم تكمل حديثًا طويلاً هكذا بلهجة يوركشاير من قبل وكان ذهنها حاضرًا.

قال ديكون ضاحكًا: "يجب أن تتحدثى بلهجة يوركشاير هذه للسيد كولن، سيضحكه ذلك، وليس هناك ما هو أكثر فائدة للمرضى من الضحك. تقول أمى إن ضحك نصف ساعة كل صباح كفيل بعلاج فتى من حمى التيفويد".

قالت مارى ضاحكة من نفسها: "سأحدثه بلهجة يوركشاير اليوم".

جاء الوقت على الحديقة لتصير فى النهار وفى الليل وكأن سحرة مروا خلالها ونشروا الجمال على أرضها والفروع والأغصان بصولجانها. كان من الصعب البعد عن هذه الحديقة، خاصة عندما تسلل نتِ على فستانها وتسلق شَل على ساق شجرة التفاح التى يجلسون تحتها، حيث ظلا ينظران إليها بعيون متسائلة. لكنها عادت إلى المنزل، وعندما جلست قريبًا من سرير كولن بدأ يتحسس الرائحة كما كان ديكون يفعل وإن لم تكن طريقته بخبرة كافية.

قال بفرحة عارمة: "تبدو رائحتكِ مثل رائحة الزهور والأشياء المنعشة. ما هذه الرائحة التى أشمها منك؟ إنها لطيفة ودافئة وعذبة فى نفس الوقت".

قالت مارى: "إنها رائحة نسيم الحدائق. إنها جاءت من الجلوس على الحشائش تحت شجرة مع ديكون ومع كابتن وسوت ونتِ وشَل. إنها رائحة موسم الربيع خارج المنزل تحت أشعة الشمس".

قالت ذلك بقدر ما استطاعت من التحرر. ولا تدرى كم تبدو لهجة يوركشاير متحررة إلا إذا سمعتها بنفسك. بدأ كولن يضحك.

قال: "ماذا تفعلين؟ لم أسمعك تتحدثين هكذا من قبل. يبدو ذلك مضحكًا".

قالت مارى مبتهجة بالنصر: "كنت فقط أستعرض لك بعضًا من لهجة يوركشاير، لا أستطيع التحدث بسلاسة مثل ديكون أو مارثا لكنك ترى أننى أستطيع مشابهتهما بعض الشىء. هل تستطيع فهم شىء من لهجة

يوركشاير عندما تسمعها؟ أم أنك من أبناء يوركشاير ، ولدت وتربيت فيها؟ ألا تشعر بالخجل من وجهك؟" .

ثم بدأت فى الضحك أيضًا وضحكا سويًا حتى إنهما لم يستطيعا التوقف وتردد صدى صوتهما فى الغرفة مما جعل السيدة ميدلوك ترجع من طريقها فى الردهة وتفتح الباب وتنظر إليهما فى دهشة.

تحدثت بلهجة يوركشاير المتحررة لأنه لم يكن أحد يسمعها وكانت مذهولة جدًا، قالت: "حسنًا ، حسب كلامى، من كان ليسمع مثل ذلك ، من على وجه الأرض كان ليتخيل ذلك" .

كان من الحديث الكثير. بدا كولن وكأنه لم يسمع الكثير عن ديكون وكابتن وسوت ونت وشل والفرس المسمى بجنب. كانت مارى تجرى فى الحديقة مع ديكون لكى ترى جنبًا. كان فرسًا بريًا صغيرًا وأشعث، له خصلات كثيفة متدلية على عينيه، ووجه جميل، وأنف مخملى ممرغ فى التراب. كان نحيفًا من عيشه على حشائش الغابة، لكنه كان صلبًا وقويًا كأن عضلات أقدامه مصنوعة من الحديد الصلب. كان قد رفع رأسه وصهل برقة عندما رأى ديكون وهرول إليه ووضع رأسه بين كتفيه فتحدث ديكون فى أذنيه فرد عليه جنب بصهيل متقطع خافت مع بعض النفخات والنخرات. جعله ديكون يقدم لمارى حافره الأمامى ويقبلها على خدها بأنفه وفكيه المخملين.

سألها كولن: "هل حقًا يفهم كل كلام ديكون؟" .

أجابت ماري: "يبدو كذلك، يقول ديكون أي شيء يفهمك لو كنت صديقه فعلاً، لكنك يجب أن تكون صديقًا بالفعل".

اتكأ كولن هادئًا لبضع دقائق وبدت عيناه الرماديتان تحملقان في الحائط، لكن ماري رأت أنه يفكر.

قال في النهاية: "أتمنى لو صادقت الأشياء، لكنى لست كذلك. لم يكن لدى صداقات مع أي شيء. ولا أستطيع تحمل الناس".

سألته ماري: "هل تستطيع تحملي؟"

أجاب : "نعم، أستطيع، إنه شيء مضحك، لكننى أحبك أيضًا".

قالت ماري: "قال بن وذرستاف إننى أشبهه، قال إنه يؤكد أن لديهما نفس الانفعال البغيض. أظنك تشبهه أيضًا. نحن الثلاثة متشابهون– أنا وأنت وبن وذرستاف. قال إنه لا يستطيع أحد النظر إلينا طويلاً وأننا من الفظاظة كما نبدو. لكننى لا أشعر أننى بنفس الفظاظة منذ أن رأينا أبا الحناء وديكون".

"هل تشعرين وكأنك كنت تكرهين الناس؟".

قالت ماري بلا أدنى تأثر: "نعم، كان من المفترض أن أمقتك لو كنت قابلتك قبل أن أرى أبا الحناء وديكون".

أخرج كولن يده النحيفة ولمسها.

قال: "يا مارى، أتمنى لو أننى لم أقل ما قلته عن طرد ديكون. كنت أكرهك عندما قلت إنه مثل ملك وسخرت منك– لكن ربما هو كذلك".

اعترفت بصراحة: "حسنًا ، كان من المضحك أن أقول ذلك، لأن أنفه مرفوعة وله فم عريض وملابسه مليئة بالرقع ويتحدث لهجة يوركشاير المتحررة، لكن– لكن لو جاء ملك إلى يوركشاير وعاش فى البراري– لو كان هناك ملك فى يوركشاير – أومن أنه كان سيتفهم معنى الكائنات الخضراء وكان سيساعدها على النمو وكان سيعرف كيف يتحدث إلى الكائنات البرية كما يفعل ديكون وكانوا سيعرفون أنه صديق بالتأكيد".

قال كولن: "لا يجب أن أضع اعتبارًا لنظرة ديكون إليّ، أريد أن أراه".

قالت مارى: "أنا سعيدة لأنك قلت ذلك، لأن – لأن – ".

وفجأة جال بخاطرها أن الوقت حان لتخبره. كان كولن يعلم أن شيئًا جديدًا قادم إليه.

صرخ بتلهف: "لأن ماذا؟ ".

كانت مارى قلقة حتى إنها قامت من مقعدها واقتربت منه وأمسكت بكلتا يديه.

ناشدته قائلة: "هل يمكن أن أثق بك؟ لقد وثقت بديكون لأن الطيور تثق به. هل يمكننى أن أثق بك؟ بالتأكيد – بالتأكيد؟ ".

كان وجهها تعلوه الهيبة لدرجة أنه أجابها هامسًا: "نعم- نعم!".

"حسنًا، سيأتى ديكون ليراك فى صباح الغد، وسيحضر حيواناته معه".

صاح كولن فرحًا: "أوه! أوه!".

واصلت مارى ، ووجهها شبه شاحب من الهيبة، : "لكن هذا ليس كل شىء، البقية أفضل. يوجد باب للحديقة. وجدته. إنه تحت اللبلاب المسدول على الحائط".

لو كان كولن صبيًا صحيحًا وقويًا لصاح "هوراى! هوراى! هوراى!".

لكنه كان من الضعف والهزال، مما جعل عينيه تتسعان وتتسعان وحبس أنفاسه.

ثم صرخ بشبه نشيج: "أوه يا مارى، هل سأراها؟هل سأدخلها؟ هل سأعيش حتى أدخلها؟".

ثم تشبث بيديها وجذبهما ناحيته.

قالت له بحدة وسخط: "بالطبع ستراها! بالطبع ستعيش حتى تدخلها، لا تكن سخيفًا".

وكانت غير هستيرية وطبيعية وطفولية مما جعله يستعيد مشاعره الطيبة وبدأ يضحك من نفسه، ثم جلست مارى لدقائق بعد ذلك لا تصف له ما كانت تتخيل أن تكون الحديقة عليه ولكن ما هى عليه بالفعل، وقد نسى كولن آلامه ومتاعبه وظل يستمع بابتهاج.

قال فى النهاية: "إنها تمامًا مثلما تخيلتها، تبدو وكأنك كنت قد دخلتها بالفعل. قلت لك ذلك عندما أخبرتنى عنها فى البداية".

ترددت مارى لبرهة ثم تجرأت وقالت الحقيقة.

"كنت قد رأيتها– وكنت قد دخلتها، وجدت المفتاح ودخلت منذ أسابيع. لكننى ما كنت أجرؤ أن أخبرك– لم أتجرأ لأننى كنت خائفة ألا أثق بك– بالتأكيد".

الفصل التاسع عشر

"لقد أتى الربيع!"

بالطبع تم استدعاء دكتور كرافن هذا الصباح، بعد أن هاجمت كولن إحدى نوباته. فدائمًا ما كان يرسل إليه في الحال، عندما يحدث ذلك. وعند وصوله؛ دائمًا ما كان يجد صبيًا أبيض مرتجفًا راقدًا فى فراشه، متجهمًا وهستيريًا للغاية، مهيئًا للدخول فى حالة تشنج لأقل كلمة. فى الحقيقة؛ كان دكتور كرافن يرهب من صعوبات هذه الزيارات ويكرهها. فى هذه المرة كان بعيدًا عن ضيعة ميسلثويت حتى الظهيرة.

وعندما وصل سأل– بانفعال– السيدة ميدلوك "كيف حال الصبى؟".

وأضاف: "سوف يحطم أوعيته الدموية يومًا ما فى إحدى هذه النوبات. فالصبى نصف مجنون، ومصاب بالهستيريا والانقياد وراء الأهواء".

أجابت السيدة ميدلوك "حسنا سيدى"، "إنك لن تصدق عينيك عندما تراه . فهذه الطفلة البسيطة، متجهمة الوجه، والتى لا تقل عنه سوء، قد فتنته. كيف فعلت ذلك، فلا تفسير له. يعلم اللورد أنها لا تلفت انتباه أحد، وبالكاد ما تسمع صوتها؛ لكنها فعلت ما لم يجرؤ أحدنا على فعله. حيث باغتته ليلاً كالقطة الصغيرة، ودقت الأرض بقدميها، وأمرته أن يتوقف عن الصراخ ، يبدو أنها أفزعته بطريقة ما؛ لذا توقف فعليًا. هذا المساء، حسنًا أن تأتى وترى بنفسك سيدى . فالأمر قد فاق التوقع".

كان المشهد الذى رآه دكتور كرافن، حينما دخل غرفة مريضه، حقًا مدهشًا له، فبمجرد أن فتحت السيدة ميدلوك الباب، سمع أصوات ضحك وثرثرة . حيث كان كولن جالسًا معتدلاً على أريكته، مرتديًا عباءته، ناظرًا إلى صورة فى أحد كتب الحديقة، متحدثًا إلى الطفلة سيئة المظهر،التى أصبح من الصعب فى تلك اللحظة ، نعتها بالسيئة على الإطلاق؛ حيث كان وجهها متقدًا من شدة السعادة والمتعة.

كان كولن يقول إن "هذه المرتفعات الممتدة الزرقاء، والتى سنرى العديد منها" . "تسمى ديل– فين – يامز" .

"يقول ديكون إنها نبات العايق المزهر التى كبرت وتضخمت"، صاحت مارى: "بالفعل هناك كتل موجودة" .

حينئذٍ رأوا دكتور كرافن فتوقفوا. حيث كانت مارى هادئة تمامًا، على حين بدا كولن عبوسًا.

قال دكتور كرافن بانفعال طفيف– وهو الذى كان عصبيًا جدًا "أسفت لسماعى أنك كنت مريضًا بالأمس، يا بنى".

أجاب كولن كأمير: "أنا أفضل الآن، أفضل بكثير"". سأخرج على مقعدى ليوم أو يومين إذا كان المناخ لطيفًا. أحتاج بعض الهواء المنعش".

جلس دكتور كرافن بجانبه، وجس نبضه، فنظر إليه بتعجب.

وقال: "سيكون يومًا رائعًا، "وكن حريصًا جدًا على ألا تجهد نفسك".

قال الأمير الشاب: "الهواء المنعش لن يتعبنى".

على حين فى مرات سابقة؛ كان هذا الشاب النبيل نفسه ، يصرخ بغضب ويصر على أن الهواء المنعش سيصيبه بالبرد ويقتله، لم يكن عجيبًا أن شعر طبيبه بالفزع قليلاً.

وقال: "ظننتك لا تحب الهواء المنعش".

فأجاب الأمير: "نعم حينما أكون وحيدا"، "لكن ابنة خالى ستخرج معى".

فاقترح دكتور كرافن: "والمرضة بالطبع".

"لا، لا آخذ المرضة"،

قالها بفخامة زائدة؛ فتذكرت مارى تلقائيًا كيف بدا الأمير النبيل الشاب ، بماسه وزمرده ولؤلؤه المعلق فى كل أجزائه. وبياقوته العظيم

فى اليد الصغيرة السوداء، التى كان يلوح بها كى يأمر خدمه ، أن يقتربوا ليقدموا التحية، ويتلقوا أوامره.

وأضاف: "ابنة خالى تعرف كيف تحرص علىَّ. فأنا دائمًا أفضل عندما تصطحبنى. فقد جعلتنى أفضل ليلة أمس. وهناك فتى قوى أعرفه، سيدفع مقعدى".

شعر دكتور كرافن ببعض القلق. فإذا كان لهذا الصبى الهستيرى المتعب فرصة كى يتحسن، فسوف يفقد هو نفسه الفرصة كاملة فى إرث ضيعة ميسلثويت؛ لكن كرافن لم يكن رجلاً بلا ضمير، فرغم كونه رجلاً ضعيفًا، فإنه لم ينتوِ ترك الصبى يتعرض لخطر حقيقى.

فقال كرافن: "مؤكد أنه صبى قوى ومتزن. يجب أن أعرف شيئًا ما عنه. من هو؟ ما اسمه؟.

فجأة صاحت مارى: "إنه ديكون"، وشعرت بطريقة أو بأخرى أن أى شخص يعرف البرارى، ينبغى أن يعرف ديكون. كانت محقة، أيضًا. حيث رأت ذلك فى التوّ إذ تحول الوجه الجاد للدكتور كرافن إلى ابتسامة مريحة.

قال كرافن: "آه ديكون". "لو أنه ديكون حقًا فسوف تشعر بالأمان الكافى. فهو قوى كسيسى البرارى".

أضافت مارى "وهو ثقة" فهو الفتى الأكثر ثقة فى يوركشاير". أخذت مارى تتحدث مع كولن بلهجة يوركشاير ونسيت نفسها.

سألها دكتور كرافن، بضحكة واضحة: "هل علمك ديكون ذلك؟".

قالت مارى بفتور: "تعلمتها كما لو كانت الفرنسية. فهى تشبه لهجة محلية فى الهند. يحاول الماهرون تعلمها. أحبها وكولن أيضًا".

قال كرافن: "حسنًا، حسنًا. فلو أسعدتك، ربما لا تسبب لك ضررًا. هل تناولت مهدئ البروميد بالأمس، كولن؟".

أجاب كولن: "كلا، لم أرد تناوله أولاً، فبعد أن هدأتنى مارى، حدثتنى بصوت خافت كى أنام، عن الربيع وهو يتسلل إلى الحديقة".

قال دكتور كرافن: "هذا يشبه المهدئ"، حيث بدا متحيرًا أكثر من أى وقت مضى، ملقيًا نظرة سريعة جانبًا على الآنسة مارى الجالسة على كرسيها، ناظرة لأسفل بهدوء نحو السجادة. "واضح أنك أفضل، ولكن يجب أن تتذكر".

ظهر الأمير ثانية، مقاطعًا: "لا أريد التذكر. عندما أنفرد بنفسى وأتذكر، فإن جسدى كله يتألم، وأفكر فى أشياء تجعلنى أبدأ فى الصراخ؛ لأننى أكرهها جدًا. فلو كان هناك طبيب فى أى مكان ينسيك مرضك بدلاً من تذكره. لكنت أحضرته إلى هنا..".

ولوح بيد نحيفة قد كانت بالفعل مغطاة بخواتم ذات ختم ملكى مصنوع من الياقوت:

"ذلك لأن ابنة خالى أنستنى أنها سبب تحسنى".

لم يمكث دكتور كرافن أبدًا مثل هذه المهلة القصيرة بعد "نوبة صرع"؛ فعادة ما اضطر إلى البقاء فترة طويلة جدًا، فضلاً عن القيام بأشياء منهكة عديدة. فبعد ظهر اليوم لم يعط أى دواء أو يترك أية أوامر جديدة، وتناسى أى مشاهد سيئة. وعندما نزل الطابق السفلى؛ بدا مستغرقًا فى التفكير، وحينما تحدث مع السيدة ميدلوك فى المكتبة، شعرت بأنه رجل حائر للغاية.

فبادرته قائلة: "حسنًا سيدى ، هل صدقت ذلك؟".

قال الطبيب "من المؤكد أنها حالة جديدة. وبلا أدنى شك فالوضع أفضل من سابقه".

قالت السيدة ميدلوك: "أثق فى رأى سوزان سوربى ، بالتأكيد، بالأمس زرت كوخها وأنا فى طريقى إلى ثويت ، وتحدثت معها قليلاً "وأخذت تقول لى: "حسنًا، ساره آن، ربما لم تكن طفلة جيدة. وربما لم تكن طفلة جذابة، ولكنها طفلة، والأطفال يحتاجون الأطفال. ذهبنا إلى المدرسة معًا. سوزان سوربى وأنا".

قال دكتور كرافن: "أعرف أنها أفضل ممرضة. عندما أجدها فى الكوخ ، أدرك الاحتمالات التى أنقذ بها مريضى".

ابتسمت السيدة ميدلوك. حيث كانت مغرمة بسوزان سوربى.

"فقد تواصلت معها"، واستمرت بصراحة تامة: "ظللت أفكر طوال الصباح فى أمر واحد قالته بالأمس". تقول: "ذات مرة عندما أعطيت الأطفال بعض النصائح بعد أن تشاجروا ، قلت لهم جميعًا": عندما كنت فى المدرسة

أوضحت دروس الجغرافيا أن العالم شُكل مثل البرتقالة واكتشفت- وأنا قبل العاشرة- أن كل البرتقالة لا تنتمى لأحد. لا يملك أحد أكثر من جزئه من الربع، وفى بعض الأحيان لا توجد أجزاء كافية يمكنك الدوران حولها دورة كاملة، لكن لا أنت- ولا غيرك- يعتقد أنه يمتلك البرتقالة كلها وإلا فسوف تكتشفون أنكم مخطئون، ولا يمكنكم اكتشافها دون صدمات قوية. وتضيف: "ماذا يتعلم الأطفال من الأطفال". "غير أنه لا معنى للاستيلاء على كل قشر البرتقالة وجميعه. فلو فعلت ذلك فمن المحتمل ألا تحصل حتى على البذر؛ والذى يكون مرًّا جدًّا فى أكله".

قال دكتور كرافن، مرتديًا معطفه: "هى امرأة فطنة".

فأنهت السيدة ميدلوك، بسعادة غامرة: "حسنًا، فلها طريقة فى قول الأشــياء"". أحيانًا كنت أقول لها، إيه ! سوزان، إذا كنت امرأة متميزة ولم تتحدثى لغة يوركشاير فسأتحين الفرصة التى أقول لك فيها كنت ماهرة".

تلك الليلة نام كولن مستغرقًا دون يقظة، وعندما استيقظ فى الصباح بقى مستلقيًا وابتسم دون علم بذلك، ابتسم لأنه شعر بارتياح ملحوظ. حيث كان لطيفًا حقًّا إن كان متيقظًا، بعد أن تقلب ومدد أطرافه بتلذذ. شعر كأن السلاسل الحديدية التى قيدته قد تلاشت وتركته ينطلق. فلم يعرف أن دكتور كرافن قد قال إن أعصابه استرخت وأراحت نفسها. بدلاً من الاستلقاء والتحديق فى الجدار والتمنى بألا يستيقظ، كان عقله ممتلئًا بالخطط التى وضعها هو ومارى بالأمس، عن صور الحديقة، وصور ديكون ومخلوقاته البرية. وكان لطيفًا للغاية أن يجد أشياء كى يفكر فيها. فلم يمر

أكثر من عشر دقائق عندما سمع تحرك أقدام عبر الممر فكانت مارى بالباب. فى اللحظة التالية دخلت الغرفة وأسرعت نحو سريره، حاملة نسيمها الطلق المشبع بعطر الصباح.

صاح ديكون: "لقد كنتِ بالخارج! لقد كنتِ بالخارج! هاهى رائحة أوراق الشجر العطرة".

لقد كانت تجرى وشعرها منطلق ومتطاير وكانت مشرقة ووردية الخدين، رغم عدم ملاحظته ذلك.

قالت، وهى تلهث قليلاً لسرعتها: "إنها رائعة! أنت لم تَر أى شىء جميل مطلقًا! لقد أتى الربيع! اعتقدت أنه كان قد أتى ذلك الصباح الآخر، لكنه كان فى طريقه فقط. هو هنا الآن! لقد أتى، الربيع! هذا ما يقوله ديكون!".

صاح كولن: "أحقًا ذلك؟"، ورغم أنه لا يعلم عنه شيئًا فى واقع الأمر، غير أنه شعر بنبض قلبه. فجلس- فعليًا- معتدلاً فى السرير.

وأضاف، بضحكة نصفها بإثارة مرحة ونصفها الآخر فى خياله الشخصى: "افتحى النافذة!". "ربما نسمع الأبواق الذهبية!".

ورغم أنه ضحك، أصبحت مارى بجانب النافذة فى لحظة، وفى لحظة تالية فتحت النافذة على مداها، فتسلل خلالها الانتعاش والعطور وتغاريد الطيور.

وقالت: "ها هو الهواء الطلق. استلق على ظهرك، واستنشقه بعمق. ذلك ما يفعله ديكون عندما يستلقى فى البرارى . يقول إنه يشعره فى عروقه فيضفى عليه قوة ، فيشعر كأنه سيخلد. فتنفسه مرارًا.

كانت تكرر فقط ما أخبرها به ديكون، ولكنها انشغلت بخيال كولن.

وقال: "الخلود! هل هذا ما يجعله يشعر بذلك؟، ففعل كما أخبرته، مستنشقًا بعمق مرارًا وتكرارًا حتى شعر أن شيئًا جديدًا ومبهجًا للغاية بدأ يحدث له.

وأصبحت مارى بجانبه ثانية.

وقالت وهى تجرى متعجلة: "الأشياء مزدحمة على الأرض. فهناك أزهار متفتحة وبراعم على كل شيء، وقد غطى الساتر الأخضر اللون الرمادى كله تقريبًا، والطيور فى عجلة من أمرها نحو أعشاشها خشية أن يفوت الأوان؛ فيتشاجر بعضها (وقالت: "ها هو الهواء الطلق. استلق على ظهرك، واستنشقه بعمق") كى يجد مكانًا فى الحديقة السرية. وشجيرات الزهور تبدو مثل الفتيل كما ينبغى أن يكون، وهناك أزهار الربيع فى الممرات وفى الغابات. نمت البذور التى زرعناها، وجلب ديكون الثعلب والغراب والسناجب والحمل الرضيع".

ثم توقفت لالتقاط الأنفاس.

ومنذ ثلاثة أيام وجد ديكون الحمل الرضيع مستلقيًا بجانب أمه النافقة بين شجيرات القندول فى البرارى. ولم يكن الحمل الأول الذى فقد

أمه ووجده ديكون وعرف كيف يعامله. كان يأخذه إلى الكوخ مدثرًا بسترته ويدعه قرب المدفأة وكان يرضعه اللبن الدافئ.كان شيئًا لينًا بوجه طفولي ساذج ودود وسيقان طويلة نوعًا ما عن جسده. فقد حمله ديكون بيديه أعلى الأرض وكانت زجاجة اللبن فى جيبه مع سنجاب، وعندما جلست مارى تحت شجرة وشعرت بدفئه الرقيق يغمر حضنها، أحست بسعادة غريبة فاقت الوصف. إنه حمل .. حمل! حمل حى يرقد فى حضنك مثل الطفل.

كانت تصفه بفرح كبير، وكان كولن يستمع ويستنشق الهواء بعمق، عندما دخلت الممرضة. وانطلقت قليلاً نحو مرآة النافذة المفتوحة. فقد جلست مختنقة فى غرفة عدة أيام حارة؛ لأن مريضها كان على يقين أن النوافذ المفتوحة تصيب الناس بالبرد.

استفسرت الممرضة: "هل أنت متأكد بأنك لا تشعر ببرد، سيد كولن؟".

فأجاب "كلا". "إننى أستنشق الهواء الطلق بعمق. إنه يجعلك قوية. سأنهض إلى الأريكة كى أفطر. ابنة خالى ستفطر معى.

خرجت الممرضة، مخفية ابتسامة، لتطلب وجبتى إفطار. فوجدت قاعة الخدم مكانًا أكثر مرحًا من حجرة المرضى، والآن فقط يريد كل شخص أن يسمع الأخبار القادمة من الطابق العلوى. كان هناك قدر كبير من المزاح عن الشاب غير المعروف المنعزل الذى، كما قال الطباخ: "قد عثر على سيده، وكان مفيدًا له". لقد أرهقت قاعة الخدم من الحالات العصبية، ورئيس الخدم؛ الذى كانت لديه أسرة، أعرب عن رأيه مرارًا أنه من الأفضل تمامًا لذلك المريض "أن يعزل جيدًا".

عندما جلس كولن على أريكته، ووضع الإفطار لاثنين على الطاولة، أمر الممرضة بطريقة معظم الأمراء.

قال: "سوف يأتى صبى وثعلب وغراب وسنجابان وحمل؛ ليرونى هذا الصباح. أريدهم بالطابق العلوى بمجرد مجيئهم. فلا تبدئى فى اللعب مع الحيوانات فى قاعة الخدم وتبقيهم هناك. أريدهم هنا".

أظهرت الممرضة همسًا طفيفًا وحاولت إخفاءه بالسعال.

وأجابت: "نعم، سيدى".

وأضاف كولن، ملوحًا بيده: "سأخبرك ما يمكنك القيام به. يمكنك أن تخبرى مارثا أن تحضرهم إلى هنا. فالصبى شقيق مارثا. اسمه ديكون وهو ساحر للحيوانات".

قالت الممرضة: "أتمنى ألا تعضنى الحيوانات، سيد كولن".

قال كولن بصرامة: "أخبرتك أنه ساحر". "حيوانات السحرة لا تعض أبدًا".

قالت ماري: "هناك سحرة الثعابين فى الهند؛ ويستطيعون وضع رؤوس ثعابينهم فى أفواههم".

ارتجفت الممرضة "يا إلهى!".

تناولا إفطارهما فى هواء الصباح المتدفق عليهما. كان إفطار كولن طيبًا للغاية، وراقبته مارى باهتمام بالغ.

قالت "سوف تبدأ فى البدانة تمامًا كما بدأت أنا، لم أكن أتناول إفطارى مطلقًا وأنا فى الهند، لكن الآن دائمًا ما أريده".

قال كولن "اشتهيت إفطارى هذا الصباح"، "ربما بسبب الهواء الطلق، تعتقدين متى سيأتى ديكون؟".

سيأتى بعد قليل. رفعت مارى يدها حوالى عشر دقائق.

وقالت "اسمع!". "هل سمعت نعيبًا؟".

أنصت كولن وسمعه، أغرب صوت فى العالم تسمعه داخل منزل، نعيب فظ.

أجاب: "نعم".

قالت مارى: "هذا الغراب سوت. أنصت مرة أخرى. هل تسمع ثغاءً، ثغاءً خافتا؟.

صرخ كولن باندفاع تام: "آه، نعم".

قالت مارى: "هذا هو الحمل الوليد. سوف يأتى".

كان حذاء ديكون للبرارى سميكًا وثقيلاً، ورغم أنه حاول أن يمشى بهدوء غير أن الحذاء أحدث صوت وطء ثقيل، كأنه مشى عبر ممرات طويلة. سمعت مارى وكولن زحفه وسيره حتى مر عبر الباب المزخرف إلى السجادة اللينة لمر كولن الخاص.

قالت مارثا، وهى تفتح الباب: "من فضلك، سيدى". "من فضلك،سيدى، إليك ديكون ومخلوقاته".

جاء ديكون مبتسمًا، ابتسامته اللطيفة الرحيبة، وكان الحمل بين ذراعيه، والثعلب الأحمر الصغير هرول بجانبه، والسنجاب نَت على كتفه الأيسر، والغراب سوت على كتفه الأيمن، وظهر رأس السنجاب شِل وقدمه من جيب معطفه.

وقف كولن ببطء وحدق بشدة؛ مثلما حملق عندما رأى مارى لأول مرة؛ لكن هذه المرة كانت حملقة الاندهاش والبهجة. كانت الحقيقة أنه برغم كل ما قد سمعه؛ فعلى الأقل لم يستوعب كيف سيبدو هذا الصبى ، وكيف كان ثعلبه وغرابه وسنجابه وحمله قريبين منه للغاية، ومن صداقته ؛ حيث بدوا تقريبًا كجزء منه.

لم يكلم كولن صبيًا مطلقًا في حياته، وقد غمرته سعادته وفضوله؛ لدرجة أنه لم يفكر حتى فى الكلام .

على حين لم يشعر ديكون بأدنى خجل أو حرج. فلم يشعر بالارتباك لأن الغراب لم يعرف لغته، وكان يحدق فحسب، ولم يكلمه فى أول لقاء بينهما. كانت المخلوقات دائمًا هكذا حتى تتكشفك. مشى نحو مقعد كولن ووضع الحمل الصغير بهدوء فى حضنه، وعلى الفور انتقل المخلوق الصغير إلى العباءة المخملية الدافئة، وبدأ فى حك أنفه ثم استكان بين طيات العباءة، وأدخل رأسه ذا الشعر المجعد بتلهف واهن بجانبه. بالطبع لا مفر من الكلام بعدئذٍ.

صاح كولن: "ماذا يفعل؟. "ماذا يريد؟" .

قال ديكون مبتسمًا بشدة: "إنه يريد أمه"، "أحضرته إليك جوعان نوعًا ما؛ لأننى علمت أنه لطيف أن تشاهده وهو يرضع" .

جثا بجانب الأريكة وتناول زجاجة الرضاعة من جيبه.

وقال، وهو يدير الرأس البيضاء الصوفية الصغيرة بيد قمحية حنونة: "تعال، طفلى الصغير.. هذه هى الخطوة التالية، فستجد هنا ما هو أهم مما فى العباءات الحريرية المخملية. إلىّ الآن"، وضغط الحلمة المطاطية للزجاجة فى الفم المستكين ، وبدأ الحمل الصغير يرضعها بنشوة نهمة.

بعد ذلك؛ لم تكن هناك غرابة مما سيقال. و بمرور الوقت نام الحمل، وانهالت الاستفسارات متتالية، وأجابها ديكون جميعها. أخبرهم كيف وجد

الحمل لحظة شروق الشمس منذ ثلاثة أيام. كان يقف فى البرارى منصتًا إلى طائر القبرة، ويراقبه وهو يتمايل فى عنان السماء، حتى بدا كبقعة صغيرة فى المرتفعات الزرقاء.

"افتقدته بتبدد تغريده، وتساءلت كيف يستطيع شخص أن يسمعه، عندما بدا كأنه خرج من الكون فى دقيقة، وبعد ذلك سمعت شيئًا آخر بعيدًا بين شجيرات القندول. كان صوتًا خافتًا فأدركت أنه حمل حديث الولادة، ربما كان جائعًا ، وأدركت أنه لا يمكن أن يكون جائعا إذا لم يفتقد أمه بطريقة أو بأخرى؛ لذا سأبدأ فى البحث، إيه ! وجهت نظرى لأجله. ذهبت هنا وهناك بين شجيرات القندول ، وتجولت كثيرًا ودائمًا ما كنت آخذ الاتجاه الخطأ. ولكن فى النهاية شاهدت شيئًا أبيض بجانب صخرة أعلى أرض البرارى، وتسلقت فوجدت الحمل الصغير شبه نافق يعانى من البرد والجوع.

فى أثناء كلامه حوّم الغراب سوتَ داخل النافذة المفتوحة وخارجها، ونعق مراقبًا المشهد؛ على حين يتجول السنجابان نت و شل بين الأشجار الكبيرة بالخارج، وقفزا أعلى الجذوع وأسفلها واستكشفا الأغصان. والتف الثعلب كابتن قرب ديكون؛ الذى جلس على طرف سجادة المدفأة.

شاهدوا الصور فى كتب البستنة، وعرف ديكون الأزهار كلها، من خلال أسماء بلادها، وعرف بدقة أيهما كانت تنمو- سابقًا- فى الحديقة السرية.

وقال: "لا يمكننى القول إن هذا اسمها"، مشيرًا إلى زهرة كتب أسفلها"زهرة النب"،"لكن نسمى ذلك الحمامى، وهناك واحدة تسمى أنف العجل وكلتاهما تنموان بريًّا فى سياج من الشجيرات. ولكن هذه من الحديقة وهى أكبر وأعظم. هناك بعض الكتل الكبيرة من زهرة الحمامى فى الحديقة . وهى ستشبه الفراش الأزرق والفراشات البيضاء حينما تكون مرفرفة".

صاح كولن: "سأذهب لرؤيتها". "سأذهب لرؤيتها!".

قالت مارى بجدية تامة: "هذا ما ينبغى، ولا يجب أن تضيع الوقت".

الفصل العشرون

"سأسعى للخلود .. للخلود "

على حين اضطر أصدقاء كولن للانتظار ما يزيد على أسبوع؛ لحلول بعض الأيام العاصفة للغاية، فضلاً عن إصابة كولن بنزلة برد، فحدوث هذين الأمرين واحدًا تلو الآخر، بلا أدنى شك كان ليغضبه. ورغم ذلك كان هناك تخطيط للعمل شديد الحذر والغموض، وتقريبًا كان ديكون يأتى كل يوم، ولو لبضع دقائق فحسب، للحديث عما كان يحدث فى البرارى، وفى الممرات والحدود وعلى حدود جداول المياه. فالأشياء التى كان ينبغى أن يتحدث عنها؛ من ثعالب وحيوان الغرير وبيوت الفئران المائية، ناهيك عن أعشاش الطيور والفئران البرية وجحورها؛ كانت كافية لإصابتك برجفة وإثارة ، عندما سمعت عن كل التفاصيل الجذابة من ساحر الحيوانات، أدركت أن العالم السفلى المزدحم كان يعمل بالإثارة والتشويق والفضول.

وقال ديكون: "إنهم مثلنا" ، "فقط عليهم بناء بيوتهم كل عام. وهو ما يشغلهم جدًا فيتشاجرون بلطف لإنهائها" .

ومع ذلك، كان الأمر الأكثر أولوية، أن تتم التجهيزات بسرية تامة، قبل أن ينقل كولن إلى الحديقة. فينبغى ألا يرى أحد المقعد المتحرك؛ ولا ديكون ولا مارى، بعد أن عبروا ركنًا محددًا من الشجيرات، ووصلوا سيرًا خارج الأسوار الطبيعية . وبمرور الأيام ، أصبح كولن أكثر تيقنًا من إحساسه بأن الغموض المحيط بالحديقة كان واحدًا من مفاتنها العظيمة. ينبغى ألا يفسد ذلك شىء. ويجب ألا يشك أحد مطلقًا أن لديهم سرًّا. فينبغى أن يعتقد الجميع أنه ببساطة خرج مع مارى وديكون؛ لأنه أحبهما، ولم يعترض على نظرتهما له. وكانت لديهم أحاديث طويلة ومبهجة جدًّا عن طريقهم. فهنا يصعدون هذا الممر ويهبطون ذلك ويعبرون الآخر ويتجولون بين مشاتل الزهور؛ كما لو كانوا ينظرون إلى "شتلات الزهور" التى جهزها كبير البستانيين؛ السيد روتش. وليكن ذلك أمرًا منطقيًّا، حتى لا يعتقده أحد غامضًا على الإطلاق. كان عليهم أن يدخلوا بين ممرات الشجيرات، ويخفوا أنفسهم، حتى وصلوا إلى الأسوار الممتدة. كانت تقريبًا خطة جادة ومتقنة؛ كخطط المشاة التى وضعها جنرالات عظام فى فترة حرب.

بالطبع كانت شائعات الأمور الجديدة والغريبة– التى كانت تحدث فى أماكن هذا الصبى المنعزل – تتسرب من قاعة الخدم إلى الإسطبل وخارجها بين البستانيين، ولكن مع هذا، دهش السيد روتش– يومًا ما– عندما تلقى أوامر من غرفة السيد كولن، تفيد بأنه يجب أن يحضر فى الغرفة التى لم يرها مطلقًا أحد من العاملين خارج المبنى؛ لأن الصبى نفسه يريد أن يتكلم معه.

قال لنفسه، حيث غير معطفه على عجل "حسنًا، حسناً"، "ماذا تفعل الآن؟"، فسموه الملكى، الذى لم يكن يرى، يستدعى شخصًا لم يره مطلقا".

كان السيد روتش فضوليًّا، فرغم أنه لم يرَ الصبى قط، فقد استمع إلى عشرات القصص المبالغ فيها عن غرابة مظهره وأسلوب حياته ونوباته الهستيرية. وكان الأمر الشائع الذى سمعه أنه قد يموت فى أية لحظة، فضلاً عن العديد من التفاصيل الخيالية عن ظهر أحدب وأطراف عاجزة، رواها أناس لم يروه قط.

قالت السيدة ميدلوك: "الأمور تتغير فى هذا البيت، سيد روتش". حيث قادته عبر السلم الخلفى إلى الممر المؤدى إلى الغرفة التى لا تزال غامضة حتى الآن".

فأجاب: "نأمل أن تتغير للأفضل، سيدة ميدلوك".

فأضافت: "غير وارد أن يكون التغير إلى الأسوأ، وغريب- كما كل شىء- أن تجدهم يقومون بواجباتهم بيسر كبير دون معاناة. لا تندهش، سيد روتش، إذا وجدت نفسك وسط حديقة حيوان، وديكون أخو مارثا سوربى فى البيت أكثر مما كنا أنا وأنت".

فى الواقع، كانت هناك حالة من السحر ترتبط بديكون، كما كانت مارى تعتقد بداخلها. وعندما سمع السيد روتش اسمه ابتسم بارتياح تام.

وقال: "إنه يمكنك أن تجده قاطنًا فى قصر باكنجهام(*) أو فى أعماق منجم الفحم. وفى الحالتين لا يكون الأمر شائنًا. فذلك الصبى فى أحسن حال".

ربما كان الموقف جيدًا، أيًا كان مستعدًا له أو فوجئ به. فعندما فُتح باب غرفة النوم إذ بغراب كبير، بدا كأنه فى بيته، جاثمًا على الظهر المرتفع للكرسى المنقوش، معلنًا حضور زائر بنعيب عال للغاية. بالرغم من تحذير السيدة ميدلوك ، فإن السيد روتش فرَّ فى التو؛ فبدا مضحكًا تمامًا بأن يقفز للوراء.

لم يكن الأمير الشاب فى سريره ولا على أريكته. بل كان جالسًا على كرسى وكان حمل يقف بجانبه يهز نيله فى وضع رضاعة، على حين كان ديكون جاثمًا يرضعه من زجاجته. وكان السنجاب جالسًا على ظهر ديكون المحنى بعناية بالغة يقرض البندق. وكانت فتاة الهند الصغيرة تجلس على مسند كبير للقدمين تنظر إليه.

قالت السيدة ميدلوك: "أقدم لك السيد روتش، سيد كولن".

استدار الأمير الشاب وتفحص خادمه، على الأقل كان هذا ما شعر بحدوثه كبير البستانيين.

(*) منزل العائلة الملكية البريطانية فى لندن.

قال كولن "آه، أنت روتش، أليس كذلك؟". "أرسلت إليك لآمرك ببعض الأشياء المهمة للغاية".

أجاب روتش: "حسنًا سيدى" متسائلاً إن كان عليه تنفيذ تعليمات، بإزالة كل أشجار البلوط فى الحديقة أو تحويل البساتين إلى حدائق مائية.

قال كولن: "سأخرج على مقعدى فى الظهيرة ، وإذا استمتعت بالهواء الطلق، فسوف أخرج كل يوم. لذلك؛ عندما أخرج لا يجب على أى بستانى أن يوجد قريبًا من الممشى الممتد، المتاخم لأسوار الحديقة، غير مسموح لأحد أن يوجد هناك. سأخرج حوالى الساعة الثانية، ويجب أن يبتعد الجميع حتى آمر أن يعودوا إلى عملهم".

فأجاب السيد روتش "حسنا سيدى"، وقد اطمأن مما سمعه؛ ببقاء أشجار البلوط، والبساتين آمنة.

سأل كولن ، مستديرًا إلى مارى "مارى، ماذا تقولين فى الهند عندما تنهين كلامك، وتريدين أن ينصرف الناس؟".

أجابت مارى: "تقول أسمح لك بالانصراف".

فلوح الأمير بيده، قائلا: "أسمح لك بالانصراف يا روتش، ولكن تذكر إنه أمر مهم".

نعق الغراب بصوت أجش، ولكن ليس فجًا.

قال روتش "حسنا سيدى، أشكرك سيدى". ورافقته السيدة ميدلوك إلى خارج الغرفة.

خارجًا بالممر، وقد ارتفعت معنوياته، ابتسم حتى كاد أن يضحك.

قال: "يا إلهى! إن لديه طريقة ملكية راقية؛ أليس كذلك؟، قد تعتقدين أنه أسرة ملكية بأكملها جسدت فى شخص؛ وكأنه زوج الملكة(*)، وأمير البلاد".

عارضته السيدة ميدلوك قائلة": إيه، كم تركناه يستعلى علينا جميعًا منذ نعومة أظافره، وهو يظن أن العامة خلقوا لذلك".

فاقترح السيد روتش: "ربما يخرج من هذا الاعتقاد إذا قدرت له الحياة".

فقالت السيدة ميدلوك: "حسنًا، ثمة شىء واحد مؤكد، فلو عاش وبقيت هذه الطفلة الهندية هنا، أضمن أنها ستعلمه أن البرتقالة ليست ملكًا له، كما تقول السيدة سوزان سوربى. وسيكون محظوظًا إذا أدرك مقدار نصيبه من البرتقالة".

داخل الغرفة، كان كولن متكئًا على وساداته.

(*) Prince Concert : زوج الملكة العاهلة، فى هذه الحالة، ألبرت ساكس كوبورج جوته (١٨١٩-١٦٨١م)، زوج الملكة فيكتوريا.

قال:"كل شيء آمن الآن، وسوف أرى ذلك فى المساء، على أن أكون بداخل الحديقة هذا المساء".

عاد ديكون مع مخلوقاته إلى الحديقة، ومكثت مارى مع كولن. لم تظن أنه كان متعبًا؛ بل كان هادئًا للغاية، حتى أتى غداؤهما وظل هادئًا فى أثناء تناولهما له. تعجبت من ذلك، وسألته عن السبب.

قالت:"ما أوسع عينيك يا كولن، فعندما تفكر تبدوان مثل الصحون، فيم تفكر الآن؟".

أجاب:"لا أتوقف عن التفكير فى شكلها".

سألته مارى:"الحديقة؟".

فقال:"فصل الربيع، كنت أفكر أننى بالفعل لم أره من قبل، فنادرًا ما كنت أخرج، وفى أثناء ذلك ، لم أكن ألحظه. ولم أكن حتى أفكر فيه".

قالت مارى:"لم أره فى الهند قط، فليس هناك ربيع".

وبرغم أن حياة كولن كانت منغلقة وكئيبة؛ غير أنه كان أكثر خيالاً من مارى، يكفى أنه قضى فترة طويلة يتصفح كتبًا وصورًا رائعة.

قال كولن:"ذلك الصباح عندما دخلت مهرولة، وقلت (لقد أتى ..لقد أتى)، جعلتنى أشعر بأننى مختلف تمامًا. فوقع ذلك على سمعى وكأن أشياء كانت تأتى فى موكب عظيم، ورشقات نارية كبيرة، ونسائم من الموسيقى؛ لدىَّ صورة تشبه ذلك فى أحد كتبى؛ حشود من أناس مرحين،

وأطفال حاملين أكاليل وأغصان مزهرة، الكل يضحك ويرقص.. يتزاحمون ويعزفون المزامير. لذا قلت: "ربما سنسمع أبواقًا ذهبية، وطلبت منك أن تفتحى النافذة".

قالت مارى: "يا للبهجة! هكذا يكون الإحساس بالضبط. فلو رقصت الزهور وأوراق الشجر وكل ماهو أخضر والطيور والمخلوقات البرية فى آن؛ يا له من ازدحام!. أجزم أنهم سيرقصون ويغنون ويزقزقون، وتلك هى نسائم الموسيقى".

ضحك الاثنان؛ ليس لأن الفكرة مضحكة، بل لأنهما أحبّا ذلك جدًّا.

بعد ذلك بقليل، أعدت الممرضة كولن. لاحظت أنه بدلاً من تمدده كقطعة خشب حال ارتداء ملابسه، جلس وبذل بعض الجهد للاعتماد على نفسه، وكان يتحدث ويضحك مع مارى طوال الوقت.

قالت الممرضة لدكتور كرافن حين حضر فجأة لفحصه: "كان يومًا من أيامه الجميلة، سيدى. إنه فى حالة معنوية مرتفعة تجعله أقوى".

قال دكتور كرافن: "سأحضر مرة أخرى بعد الظهيرة، بعدما يعود، لأتابع إلى أى مدى يناسبه الخروج"، وبصوت خافت: "أتمنى أن يدعك تخرجين معه".

أجابت الممرضة بحزم مفاجئ "أفضل أن أترك الحالة حاليًا،سيدى، عن البقاء هنا فى أثناء عرض هذه الفكرة".

قال الدكتور بعصبيته الطفيفة لمَ : "أقرر فعليًا اقتراح هذا. لنخض التجربة. فديكون صبى أثق فيه تمامًا".

حمل أقوى خادم فى المنزل كولن إلى الطابق السفلى، ووضعه فى مقعده ذى العجلات، قريبًا من انتظار ديكون بالخارج. بعد أن رتب الخادم بطاطينه ووسائده ، لوح الأمير له وللممرضه ، قائلاً أسمح لكما بالانصراف، فاختفى كلاهما بسرعة، وبدا ذلك مضحكًا حينما شعرا بالأمان داخل المنزل.

بدأ ديكون فى دفع المقعد ببطء وثبات. كانت الآنسة مارى تسير بجواره وكولن مسندًا ظهره ورفع وجهه للسماء. بدا قوس السماء شاهق الارتفاع، وبدت السحب الثلجية الصغيرة كطيور بيضاء محلقة على أجنحة ممتدة تحت زرقة السماء الشفافة.

اندفعت الرياح من البرارى، فى نسمات قوية لطيفة، وكانت غريبة بعذوبتها فائقة العطر.

ظل كولن رافعًا رأسه النحيل ليطبع هذه الصورة بوجدانه، على حين كانت عيناه تنظران كأنهما أذنان تنصتان.

قال: "هناك العديد من أصوات الغناء والطنين والغناء، ما ذاك العطر الذى تجلبه نسمات الرياح؟".

أجاب ديكون: "إنه القنديل المتفتح فى البرارى، إيه، ما أجمل النحل الذى يحيط به اليوم".

لم يوجد هناك إنسان يرى فى الطرقات التى سلكوها. فى الواقع كل بستانى أو مساعده، قد أزيح جانبًا. لكنهم تجولوا بالداخل والخارج بين الشجيرات، وحول النافورة متابعين مسارهم المخطط بعناية؛ لمتعة غموضها الخالص. لكن فى النهاية عندما انعطفوا إلى الطريق الطويل المتاخم لأسوار اللبلاب، أصابتهم نشوة الاقتراب بإثارة جعلتهم يهمسون؛ لسبب غريب لم يستطيعوا تفسيره.

همست مارى: "ها هو، هنا اعتدت أن أصعد وأهبط وأتعجب.. وأتعجب".

صاح كولن: "أهذا هو؟ ".. وبدأت عيناه تتكشفان اللبلاب بفضول نهم. وهمس قائلاً: " لكنى لا أرى شيئًا، ليس هناك باب".

قالت مارى: "هذا ما كنت أظن".

ثم ساد صمت جميل لايقلقه نفس، واستمر المقعد فى السير.

قالت مارى: "هذه هى الحديقة التى يعمل بها بن وذر ستاف ".

قال كولن: "حقا؟".

وبعد بضع خطوات، همست مارى ثانية: "من هنا طار أبو الحناء فوق السور".

قال كولن: "حقًا؟ أوه! أتمنى أن يأتى ثانية".

فقالت مارى، بسعادة غامرة: "وهنا مكث فوق التل الصغير، وأرانى المفتاح".

ثم اعتدل كولن فى جلسته.

وصاح: "أين؟.. أين؟.. هناك؟"، و قد اتسعت عيناه كعينى ذئب، فى قلنسوة الركوب الحمراءِ، عندما يستثار، كى يلفتِ انتباههم.

توقف ديكون فتوقف المقعد.

قالت مارى، وهى تخطو إلى المشتل القريب من اللبلاب: "وهنا ذهبت لأتحدث معه، عندما غرد لى من أعلى السور".

وهذا هو فرعِ اللبلاب الذى أزاحته الريحِ، وأمسكت بستار اللبلاب الأخضر المعلق.

قال كولن متلهفا: "أوه!، هل هو،هل هو؟".

"ها هو المقبض، وها هو الباب. ادفعه يا كولن، ادفعه بسرعة!".

فدفعه كولن دفعة قوية ثابتة رائعة.

حقيقة؛ اندفع كولن خلفًا إلى وسائده، ورغم ذلك لهث فى بهجة، وجعل يديه أمام عينيه ؛ ليزيح كل شىء جانبًا، حتى دخلوا، وتوقف الكرسى المتحرك كأنه بفعل السحر، وأقفل الباب. حتى ذلك الوقت لم يزح يديه من أمام عينيه، ليدور بناظريه مرارًا، مثلما فعل ديكون ومارى. وعلى الجدران والأرض والأشجار والباقات المتمايلة والنباتات المتسلقة تسلل ستار أخضر

لطيف من أوراق صغيرة ناعمة، وعلى العشب تحت الأشجار، وأوانى الزرع الرمادية فى صوباتها، وهنا وهناك فى كل مكان؛ كانت توجد لمسات أو بقع ذهبية وبنفسجية وبيضاء، على حين يظهر اللون الوردى والثلجى على الأشجار فوق رأسه، إلى جانب رفرفات أجنحة ، وتغريد خافت جميل، وأزيز وعطور..وعطور. والشمس تحنو بأشعتها كيد ناعمة الملمس، وفى تعجب وقفت مارى وديكون يحدقان فيه. حيث بدا غريبًا ومختلفًا؛ فقد غمره لون وردى.. غمر وجهه العاجى ورقبته وعنقه ويديه وكل جسده.

صاح: "يجب أن أتحسن! يجب أن أتحسن! يجب أن أتحسن!، يا مارى! يا ديكون! يجب أن أتحسن! ويجب أن أسعى للخلود.. للخلود.

الفصل الحادى والعشرون

"بن وذرستاف"

إن من بين عجائب الحياة فى هذه الدنيا أن ينتاب المرء بين الفينة والأخرى شعور أكيد أنه سيعيش للأبد. يستشعر المرء ذلك أحيانًا عندما يستيقظ فى وقت الفجر الرقيق المهيب، فيخرج ليقف منفردًا ثم يلقى برأسه إلى الوراء ويرفع بصره عاليًا ويراقب بناظريه السماء الشاحبة، التى تتغير ببطء وتتوهج، ثم يتخيل حدوث أشياء رائعة مجهولة، حتى ينتزع الشرق صرخة من القلب الذى يوشك أن يتوقف، عندما يرى الجلال الغريب والدائم لشروق الشمس، هذا الشروق الذى لازال يتكرر كل صباح على مدى آلاف السنين. ينتاب المرء هذا الشعور لبرهة. وينتابه أحيانًا أخرى حينما يقف وحيدًا فى أحد الأدغال عند الغروب ليرى سكونًا غامضًا ذا لون ذهبى عميق يتسلل بين الأغصان وتحتها، وكأنه يتمتم بشىء ما مرة بعد أخرى دون أن يسمع المرء ما يقول ولو أنصت بإمعان. وفى أحايين أخرى يتأكد هذا

الشعور لدى المرء عندما يعاين ملايين النجوم المنتظرة والشاخصة فى هدوء الليل البهيم وزرقته المظلمة، وأحيانًا يشعر وكأنه حقيقة عندما يستمع إلى أصوات الموسيقى الآتية من مكان بعيد، أو عندما ينظر فى عينى شخص ما.

وهذا ما أحس به "كولن" فى المرة الأولى التى رأى فيها الربيع وسمع أشجانه وأحس به داخل الحوائط الأربعة لحديقة مخبأة، وكأن العالم بأسره قد تطوع فى ذاك المساء ليبدو فى أحسن حلة وفى جمال باهر يعطف على هذا الصبى. لربما جاء الربيع وجمع كل ما يستطيع فى تلك البقعة بفضل الخير الإلهى.

توقف "ديكون" أكثر من مرة وهو منشغل، ثم وقف ساكنًا ودهشة تتزايد فى عينيه، وكان يهز رأسه برفق.

"ها! هذا عظيم"، صاح ديكون: "لقد بلغت الثانية عشرة من عمرى، وها أنذا أدخل السنة الثالثة عشرة، وكم من مساء مر فى ثلاث عشرة سنة، ولكن يبدو لى أنى لم أستمتع بمساء أجمل من هذا قبل اليوم".

"نعم، هذا مساء عظيم"، كذلك صاحت مارى التى تنهدت من الفرح وقالت: "إنه أعظم مساء فى هذا العالم".

تساءل كولن بيقظة حالمة وقال: "هل تعتقدون أن كل هذا كان يحدث بهذه الطريقة عن قصد من أجلى؟".

"يا إلهي!" صاحت مارى بإعجاب وقالت: "هذه القطعة الجميلة من يوركشاير. هذا الفن الراقى. هذا الفن..".

ثم عمت البهجة.

سحبوا المقعد تحت شجرة البرقوق، التى ابيض لونها بالأزهار المتفتحة وغنى النحل أراجيزه عليها. كانت مثل مظلة الملوك فى الحكايات الخيالية. كان هناك بالقرب أشجار من الكريز وأشجار التفاح التى تلونت براعمها باللونين الأبيض والقرنفلى والتى قد تفتح بعضها هنا وهناك، وبين هذه الأغصان المزهرة فى تلك الظلة، بدت بعض أجزاء من السماء الزرقاء تنظر من علٍ وكأنها أعين رائعة الجمال.

عمل كل من مارى وديكون قليلاً هنا وهناك على حين كان كولين يتابعهما. أحضرا له أشياء لينظر إليها مثل براعم متفتحة، براعم كانت مقفلة وغير ناضجة، أجزاء من أغصان صغيرة أخذت أوراقها فى الاخضرار، ريشة لطائر نقار الخشب كانت قد سقطت على الحشائش، وبيضة فارغة لطائر صغير كان قد فقس.

كان ديكون يدفع الكرسى ببطء فى أنحاء الحديقة، وكان يتوقف بين الحين والآخر ليدعه يتفقد العجائب المنبثقة من التربة أو المتدلية من الأشجار. أحس كولن وكأنه ذهب فى رحلة تفقدية فى مملكة مسحورة ورأى كل الثروات والكنوز الكامنة فيها.

تساءل كولن: "هل سنرى طائر أبى الحناء؟".

فأجاب ديكون: "ستراه بما فيه الكفاية بعد قليل. عندما يفقس البيض، لن يكون للطائر أية فرصة ليرتاح فيها، سنراه يطير ذهابًا وإيابًا فى كل مكان، وهو يحمل دودًا فى نفس حجمه فى بعض الأوقات، وتلك الضوضاء الكبيرة من أفراخه عندما يرجع إلى عشه، ستنتابه الكثير من الحيرة لأنه لن يعلم فى أى المناقير الكبيرة يجب أن يلقى أول هذه الديدان، لأن العش سيمتلئ بالمناقير المفتوحة والصرخات فى كل ركن. قالت أمى إنها عندما ترى المجهود الكبير الذى يبذله طائر أبى الحناء ليملأ هذه المناقير المفتوحة والجائعة، فإنها تشعر وكأنها سيدة لا تعمل شيئًا بيديها مقارنة به. إنها تقول إنها تشعر وكأن العرق يتصبب من هذا الطائر، ولكن الناس لا يرونه".

هذا الكلام جعلهم ينفجرون فى الضحك إلى حد إنهم اضطروا إلى تغطية أفواههم بأيديهم فقد تذكروا أن أحدًا لا ينبغى أن يسمعهم. لقد سمع كولن بعض التوجيهات بخصوص قانون الهمسات والتكلم بصوت خفيض منذ عدة أيام، وقد أحب الغموض فى هذا الجانب وحاول الالتزام قدر استطاعته، ولكن من الصعب جدًا ألا يتجاوز الضحك حد الهمس فى وسط استمتاع مثير.

امتلأت كل لحظة من هذا المساء بأشياء جديدة، وازدادت ذهبية أشعة الشمس كل ساعة، وتوارى الكرسى المتحرك تحت المظلة وجلس ديكون على الحشائش، وما كاد يخرج غليونه حتى رأى كولن شيئًا لم يلحظه من قبل لأنه لم يكن لديه الوقت.

فصاح: "هذه شجرة قديمة جدًا، تلك التى هناك، أليست كذلك؟".

نظر ديكون فوق الحشائش إلى الشجرة وكذلك فعلت مارى، وسادت برهة من السكون.

"نعم" صاح ديكون بعد ذلك، وعلا صوته الخفيض نغمة لطيفة.

كانت مارى تحدق فى الشجرة وتفكر.

ابتدر كولن قائلاً: "أصبحت الأفرع رمادية وليس هناك أية ورقة على الشجرة، لقد ماتت تمامًا، أليس كذلك؟".

"نعم" وافقه ديكون "ولكن الورود المتسلقة على كل أجزاء الشجرة ستخفى كل بقعة من الخشب الميت، عندما تملؤها الأوراق والأزهار. لن تبدو ميتة حينئذٍ، بل ستكون الأجمل على الإطلاق".

ما زالت مارى تحدق فى الشجرة وتفكر.

قال كولن: "يبدو وكأن غصنًا كبيرًا قد كُسر، ولكن كيف حدث هذا؟!".

أجاب ديكون: "حدث ذلك منذ سنين عديدة"، ثم تنهد فجأة تنهيدة تعبر عن الارتياح ووضع يده على كولن وقال: "انظر لأبى الحناء هناك! هذا هو! لقد كان يبحث عن رفيقته".

نظر كولن إلى أبى الحناء فى آخر لحظة ولم يرَ إلا اندفاع الطائر ذى الصدر الأحمر وكان يحمل شيئًا فى منقاره. اندفع الطائر إلى داخل النباتات الخضراء الكثيفة فى ذلك الركن واختفى عن الأنظار، واتكأ كولن على وسادته ثانيةً، بضحكة خفيفة.

"إنه يأخذ الشاى إليها. ربما الساعة الآن الخامسة. أعتقد أننى أشتهى بعض الشاى الآن".

وكذلك كانوا آمنين.

"إنه السحر الذى أرسل أبا الحناء"، هذا ما قالته مارى فى سرية لديكون بعد ذلك، "أنا أعلم، كان ذلك سحرًا".

كان كل من مارى وديكون قلقين من احتمال أن يسأل كولن عن الشجرة التى انكسر غصنها منذ عشر سنين، وكانا قد تناقشا فى الأمر سويًا، وكان ديكون قد وقف قلقًا وحك رأسه بطريقة تعكس اضطرابه.

وكان ديكون قد قال: "لا بد أن ننظر إليها وكأنها ليست مختلفة على الإطلاق عن الأشجار الأخرى. لا يمكن أن نخبره كيف انكسر غصنها. مسكين هذا الصبي! إذا قال أى شىء عنها فلابد أن... لا بد أن نحاول التظاهر بالسعادة".

أجابت مارى: "نعم، هذا ما يجب أن نفعله".

ولكنها لم تشعر أنها تظاهرت بالسعادة عندما حملقت فى الشجرة. تساءلت وتساءلت فى هذه اللحظات القليلة إذا كان ما قاله ديكون تلك المرة حقيقيًا. وقد استمر فى حك شعره الأحمر الأدكن فى حيرة، وإن ظهرت بوادر ارتياح بهيجة على عينيه الزرقاوين.

استطرد ديكون مترددًا: "كانت مدام كرافن شابة جميلة جدًا. وتعتقد أمى أن روحها كانت تحوم حول ميسلثويت لتعتنى بالسيد كولن، كما تفعل

جميع الأمهات عندما يموت أطفالهن. إنهن يعتقدن أنهم سيرجعون إلى الحياة مرة أخرى، وقد صادف مرة أن كانت فى الحديقة وكانت هى التى توزع الأعمال علينا وأمرتنا أن نحضره إلى هنا.

كانت مارى تعتقد أنه يتكلم عن السحر، حيث إنها تؤمن فى السحر كثيرًا. كانت تعتقد فى قرارة نفسها أن ديكون ساحر، ولكنه يستخدم السحر فى الخير فى كل ما حوله، وأن هذا سبب الحب الكبير الذى يكنه الناس له، بل ولأن الحيوانات البرية كانت تعتبره صديقًا لها. فى الواقع تساءلت لو أن موهبته هى التى أحضرت أبا الحناء فى الوقت المناسب تمامًا عندما سأل كولن السؤال الخطير. شعرت أن سحره كان يعمل طوال فترة ما بعد الظهيرة وكان قادرًا على تحويل كولن إلى صبى مختلف تمامًا، حيث لم يعد يبدو أنه هو ذلك المخلوق المجنون الذى صرخ وضرب وسادته ثم أخذ يعضها. حتى بياضه العاجى المشوب بصفرة بدا أنه يتغير، فبريق لونه الباهت الذى علا وجهه ورقبته ويديه عندما دخل الحديقة أول مرة لم يختفِ قط. حتى إنه بدا وكأنه مخلوق من اللحم، وليس من العاج أو الشمع.

رأوا أبا الحناء يحمل الغذاء لرفيقته مرتين أو ثلاث، وكان من الشهى احتساء الشاى فى ذلك المساء، فشعر كولن أنه لابد أن يحتسوا بعض الشاى.

"اذهبى وقولى لبعض الخدم من الرجال أن يحضر بعض الشاى فى سلة إلى ممشى الورود"، واستطرد قائلا: "ثم تستطيعين أن تحضريه أنتِ وديكون إلى هنا ".

كانت فكرة جيدة، وسهلة ، وعندما فرشوا القماش الأبيض على الحشائش، ووضعوا فوقها الشاى الساخن، والخبز المحمص المدهون بالزبد، والكعك الجاف، أكل الجميع وجبة شهية فقد كانوا جوعى، وتوقفت العديد من الطيور التى كانت فى رحلات قصيرة لتتساءل عما كان يجرى فى الحديقة، وأخذت فى استكشاف فتات الطعام المتبقى بنشاط كبير. فأخذ "نات" و "شِل" قطع الكيك لتنقرها فوق الأشجار، وأخذ "سوت" نصف كسرة كاملة من الخبز المدهون بالزبد إلى ركن وصاح بصوته الأجش عليها حتى قرر أن يبتلعها كاملة فى جرعة واحدة بكل سرور.

كان الأصيل يقترب من ساعته اللطيفة حيث كانت الشمس تكثف من ذهبية أشعتها، وكان النحل يعود إلى بيوته وقلّت أعداد الطيور السابحة فى السماء. كان كل من ديكون ومارى جالسين على الحشائش، وتم حزم صينية الشاى لتؤخذ إلى المنزل. اتكأ كولن على وسادته وقد رفعت خصلات شعره الكثيفة من على جبهته إلى الوراء، واكتسب وجهه لونًا طبيعيًّا.

قال: "لا أريد أن يذهب هذا الأصيل"، ثم استطرد: "لكنى سآتى إلى هنا غدًا، وبعد غدٍ، وبعد بعد غدٍ، وبعد بعد بعد غدٍ".

قالت مارى: "لسوف تتنفس هواء منعشًا بكثرة، أليس كذلك؟".

"لا أنتوى على شىء آخر، هذا يكفي" ثم قال: "لقد رأيت الربيع الآن، وسوف أرى الصيف. سأرى كل شىء ينمو هنا، بل سأنمو أنا هنا كذلك".

"سيحدث هذا" قال ديكون: "سوف نأتى بك لتمشى هنا بل لتحفر أيضًا مثل الآخرين، وما هذا ببعيد".

احمر وجه كولن بشدة، وقال مستغربًا: "أمشي! أحفر! هل سأقدر؟!".

تميزت نظرات ديكون إليه بالحرص الشديد. ولم يكن هو ولا مارى قد سألاه إن كان شيئًا ما يعرقل رجليه.

صاح ديكون بقوة: "هذا سيحدث بالتأكيد، فلك أقدام كالآخرين تمامًا!".

كان يتملك مارى الهلع حتى سمعت إجابة كولن: "إنهما لا يؤلماننى فى الواقع، ولكنهما نحيفتان وضعيفتان جدًا، إنهما ترتعشان حتى إننى أخاف أن أحاول أن أقف عليهما".

عندئذٍ التقط كل من مارى وديكون أنفاسهما بارتياح.

قال ديكون بعد أن جدد ابتهاجه: "ستقف عليهما عندما تتوقف عن الخوف. وسوف تتوقف عن الخوف قريبًا".

"هل سأفعل؟" تساءل كولن، ثم سكن فى وجوم كأنما يتساءل عن أشياء.

وساد الهدوء الشديد برهة قصيرة. كانت الشمس تذوب فى الأفق، وكانت هذه هى الساعة التى يُهَدِئ كل شىء فيها نفسه، وقد كانوا فعلاً

منغمسين فى قضاء مساء ممتع ومثير. وبدا كولن وكأنه يرتاح بكل رفاهية. حتى المخلوقات الأخرى توقفت عن التحرك هنا وهناك، وتجمعت لترتاح قريبًا منهم. وآوى "سوت" إلى غصن منخفض وسحب إحدى رجليه ثم غطى عينيه بذلك الغشاء الرمادى الرقيق وسلمهما للنعاس حتى ظنت مارى أن شخيره سيعلو بعد دقائق.

وسط هذا السكون، كان من المرعب أن يرفع كولن رأسه قليلاً ويتساءل فى انزعاج فى همسة مفاجئة:

"من ذاك الرجل هناك؟".

هب كل من ديكون ومارى واقفين.

"رجل !" تساءلا بأصوات خفيضة سريعة.

أشار كولن للجدّار المرتفع.

"انظرا !" همس باهتياج "هيا انظرا !".

تحركت مارى وديكون ونظرا، فإذا هو وجه "بن وذرستاف" الساخط يحملق فيهم من فوق الجدّار حيث كان واقفًا على سلم خشبى. كان يهز يده مهددًا مارى.

"لو لم أكن هرمًا وكنت أنتِ تعملين عندى..، لأخفيتك !".

صعد درجة أخرى على السلم يتهددها وكأن انفعاله يدفعه لأن يقفز للأسفل ليتعامل معها. ولكن عندما سارت مارى فى اتجاهه، أصبح من

الواضح أنه أعاد التفكير وظل واقفًا على أعلى درجة فى السلم وظل يهز يده مهددًا إياها.

"لم أر لكِ قدرًا على الإطلاق!"، صاح بقوة: "لم أتحملك منذ اللحظة الأولى التى وقعت عيناى عليكِ فيها. ما أنتِ إلا مقشة هزيلة(*) شاحبة صغيرة، لا تكفين عن إلقاء الأسئلة المتطفلة وتضعين أنفك هذا فى شؤون الآخرين الذين لا يريدونك. أنا لا أعرف كيف صرنا أصدقاء! لو لم يكن أبو الحناء هذا– هذا اللعين!".

"بن وذرستاف!" صرخت مارى بعد أن أخذت نَفَسَها. وقفت تحته وصرخت فيه وهى تلهث: ".بن وذرستاف، كان أبو الحناء هو من أرانى الطريق".

كان يبدو أن بِن سيسقط من على الجدَّار إليها فقد تملكه غضب شديد.

"أنتِ أيتها الشيطانة الصغيرة!" صاح فيها من أعلى "تلقين شرّكِ على أبى الحناء ولكنه لا يتصرف بوقاحة تجاه أحد! أهو الذى أراك الطريق! هو! ها! أيتها الحقيرة الصغيرة.."، رأت كلماته التالية وهى تنفجر بشدة لأن الدهشة والفضول تملكاه "كيف يحدث ذلك فى هذا العالم؟!".

"كان أبو الحناء هو من أرانى الطريق" احتجت بعناد".لم يكن يعلم أنه يفعل ذلك ولكنه فعل، ولا أستطيع أن أقنعك بذلك من مكانى هذا فى حين أنك تتهددنى بالتلويح بيدك".

(*) Young besom: مقشة مصنوعة من أغصان الشجر.

توقف فجأة عن التلويح بيده فى تلك اللحظة، وانفتح فكه باستغراب عندما حملق فوق رأسها فى شيء رآه قادمًا نحوه فوق الحشائش.

فى بداية هذا السيل من الكلمات كان كولن فى غاية الدهشة من أنه توقف واستمع فقط وكأنه كان مسحورًا، ولكنه استفاق فى أثناء هذا الشجار، وأومأ إلى ديكون ووجه له هذا الأمر الملكى:

"ادفعنى إلى هناك!" ثم أمره قائلاً: "ادفعنى قريبًا منه، لأقف أمامه وجهًا لوجه!".

وهذا هو ما كان "بن وذرستاف" ينظر إليه، وهو ما جعل الاستغراب يفغر فاه: كرسى متحرك ذو وسائد وملابس مترفة تتجه نحوه وهو يشبه عربة ملكية لأن أميرًا كان يتكئ إليه بسمته الملكى وعينيه السوداوين الكبيرتين، ويده البيضاء النحيفة تمتد ناحيته فى استعلاء وكبرياء. توقف الكرسى تحت أنف "بن وذرستاف" مباشرة وهذا يفسر استغرابه ودهشته.

"هل تعلم من أنا؟"، تساءل الأمير.

كان "بن وذرستاف" يحملق فيه فى دهشة بالغة، ركزت عيناه الحمراوان الكبيرتان فيما كان أمامه كأنما ينظر إلى شبح. استمر يحدق فيه وبلع ريقه بصعوبة كبيرة، ولم ينبس ببنت شفة.

"هل تعلم من أنا؟"، تساءل كولن بغطرسة ظاهرة". أجب على سؤالي!".

رفع "بن وذرستاف" يده ومررها على عينيه وجبهته ثم أجاب بصوت غريب مهتز:

"من تكون؟" ، ثم قال: "نعم أعرف، أنت الذى كانت عين أمك تحملق فى وجهى. الله يعلم كيف أتيت إلى هنا، ولكنك هذا المعوق المسكين" .

نسى كولن أن له ظهرًا فى تلك اللحظة، واحمر وجهه خجلاً وانتصب فى جلسته" .لست معوقًا!" صاح فى غضب: "أنا لست معوقًا!"

"إنه ليس معوقًا!" صاحت مارى بصوت عالٍ وكأنها تصرخ فى الجدَّار فى استياء حاد" .ليس به ورم واحد فى حجم دبوس ! لقد نظرت إليه ولم أجد حتى واحدًا- ليس هناك أى ورم فيه!" .

مرر بن وذرستاف يده فوق جبينه مرة أخرى وحدق بشدة، كانت يده ترتعش كما كان فمه وصوته يرتعشان أيضًا. كان رجلاً جاهلاً وكبيرًا فى السن، وكان ينقصه الذوق واللياقة ولم يتذكر إلا الأشياء التى سمعها فقط.

"أنت... أنت ليس لك ظهر أحدب؟" تساءل بصوت أجش.

"كلا!" صرخ كولن.

"أنت... أليست رجلاك منحنيين؟!" ازداد صوت بن الأجش رعشة واهتزازًا.

كان ذلك كثيرًا جدًّا، فاندفعت القوة التى كان يزكى بها كولن نوبات غضبه فى داخله بشكل جديد. لم يقل له أحد قبل ذلك أن رجليه كانتا

منحنيين، حتى فى الهمسات الجانبية، بل إن مجرد هذا الاعتقاد البسيط الذى أفصح عنه صوت بن وذرستاف كان أكثر مما كان يحتمله لحم الراجا (الأمير) ودمه. دفعه غضبه وكبرياؤه المجروح إلى تناسى كل شىء إلا هذه اللحظة، وملأه بقوة لم يعرفها من قبل، كانت قوة غير طبيعية.

"تعالى هنا !" صرخ فى ديكون، وقد بدأ بالفعل تمزيق القماش عن أطرافه السفلى، وتعرية نفسه".تعالى هنا ! "تعالى هنا ! حالاً".

جاء ديكون إلى جانبه فى نفس اللحظة، تحشرج نفس مارى فى حلقها وشعرت أن لونها يشحب.

"يستطيع أن يفعلها! يستطيع أن يفعلها ! يستطيع أن يفعلها ! نعم يستطيع !"كانت تهذر هكذا فى سرها بأسرع ما تستطيع.

كان هناك تدافع حاد وسريع، فقد ألقى السجاد على الأرض، أمسك ديكون بذراع كولن، وخرجت الرجلان النحيفتان، ووقفت القدمان النحيفتان على الحشائش. ووقف كولن منتصبًا- نعم منتصبًا- كالسهم وكان الغريب أنه بدا طويلاً أيضًا، وقد رمى رأسه إلى الخلف على حين كانت عيناه الغريبتان تصدر شررًا مثل البرق.

"انظر إلي!"اندفع إلى بن وذرستاف".فقط انظر إلىّ- أنت هناك! فقط انظر إلىّ !".

"إنه منتصب مثلى تمامًا"صرخ ديكون "يستطيع أن يقف كأى صبى فى يوركشاير !"

لم تصدق ماري ما فعله بن وذرستاف فقد كان لا يصدق. فقد تملكته كحة وشرقة وسالت الدموع فجأة على خديه اللذين امتلآ بالتجاعيد التى سببها الطقس السيئ، وأخذ يضرب كفًا بكف.

"ها !" انفجر فيه قائلاً: "إذن فالناس تكذب؟! إنك نحيف وشاحب كالشبح، وليس فيك أى بثور. سوف تكون رجلاً أخيرًا. فليباركك الله!".

قبض ديكون على ذراع كولن بقوة مع أن الصبى لم يكن يتداعى، بل وقف قائمًا ومنتصبًا وكان يحملق فى وجه بن وذرستاف.

قال له: "أنا سيدك عندما يكون أبى غائبًا. ويجب أن تطيعنى. هذه حديقتى. لا تجرؤ أن تقول شيئًا عنها! انزل من على هذا السلم، واذهب إلى المشى الطويل، وسوف تقابلك الآنسة ماري وتحضرك إلى هنا. أريد أن أتحدث معك. لم نكن نراك، ولكن سنأتمنك على السر الآن. أسرع!".

كان وجه بن وذرستاف النكد مازال رطبًا من أثر ذلك الاندفاع الغريب للدموع فى وجهه. بدا وكأنه لا يستطيع أن يرفع عينيه أمام كولن النحيف الذى كان يقف قائمًا على قدميه وكانت رأسه إلى الخلف.

"نعم يا غلام"، ثم همس: "نعم يا غلامي!"، وبعد أن تذكر ورجع إلى نفسه، لمس فجأة قبعته كما يفعل البستانى وقال: "نعم سيدي! نعم سيدي!"، ثم أطاع الأوامر واختفى عن الأنظار عندما نزل من على السلم.

الفصل الثانى والعشرون

عندما غابت الشمس

عندما غابت رأس بن وذرستاف عن الأنظار، التفت إلي مارى.

قال: "اذهبى للقائه"؛ وانطلقت مارى عبر الحشائش نحو الباب المختبئ تحت شجرة اللبلاب.

كان ديكون يراقبه بنظرة حادة. كانت تعتلى وجنتيه بقع قرمزية وبدا رائعًا، ولكن لم تظهر عليه أى أمارات للسقوط.

قال كولن ورأسه لا يزال مرفوعًا بنبرة يملؤها الفخر: "أنا أستطيع الوقوف".

أجابه ديكون: "قلت لك أنك ستستطيع متى توقفت عن الشعور بالخوف، وها أنت ذا قد وقفت".

قال كولن: "بالفعل، لقد وقفت".

وفجأة تذكر أمرًا كانت مارى قد ذكرته.

سأل بحدة: "هل تصنع السحر؟".

انبسط فم ديكون المستدير ليرسم ابتسامة عريضة مرحة.

قال: "يعنى ذلك أنك أنت نفسك تصنع السحر أيضًا، إنه السحر ذاته الذى جعل هذه تبزغ من الأرض"، ولمس بحذائه الطويل السميك أجمة زعفران وسط العشب.

أطرق كولن ناظرًا إليها.

قال بترو "نعم، لا سحر أعظم من ذلك الموجود هناك، لا أعظم من ذلك".

قال مشيرًا إلى شجرة تبتعد عنه بضعة أقدام: "سأسير إلى هذه الشجرة، سأكون واقفًا عندما يأتى وذرستاف هنا. أستطيع أن أتكئ إلى هذه الشجرة إذا أردت. سأجلس فقط إذا شعرت بالحاجة للجلوس ولكن ليس قبل ذلك. أحضر بساطًا من فوق المقعد".

سار كولن إلى الشجرة ورغم أن ديكون كان ممسكًا بذراعه، فإنه كان رائع الثبات. عندما اتكأ إلى جذع الشجرة، لم يكن واضحًا أنه مستندًا إليها، وكان يحافظ على استقامة جسده حتى إنه بدا طويلاً.

عندما دخل بن وذرستاف من الباب ، رآه واقفًا هناك وسمع مارى تتمتم بشىء فى صوت خفيض.

سألها على عجل: "ماذا تقولين؟"؛ فهو لم يكن يريد أن يصرف انتباهه عن ذلك الولد صاحب الجسم النحيل المستقيم والوجه الفخور.

ولكنها لم تخبره. وكان الكلام الذى رددته:

"تستطيع فعل هذا! تستطيع فعل هذا! أخبرتك أنك تستطيع! تستطيع فعل هذا! تستطيع فعل هذا! إنك قادر على هذا!".

كان حديثها موجهًا إلى كولن لأنه أراد أن يصنع سحرًا يبقيه واقفًا على قدميه كما بدا وقتها. لم تطق أن يستسلم أمام بن وذرستاف. ولكنه لم يستسلم. فقد تملكها شعور مفاجئ بأنه كان يبدو جميلاً رغم نحافته. ركز كولن نظره على بن وذرستاف بطريقته المتعجرفة المضحكة.

وأمره: "انظر إلىّ!"". انظر إلى جسدى كله! هل ترانى أحدب؟ هل قدماى معقوفتان؟".

لم يكن بن وذرستاف قد تخطى الشعور الذى انتابه، ولكنه أفاق قليلاً وأجاب بطريقته المعتادة.

قال: "لست كذلك، لا تبدو هكذا. ماذا كنت تفعل بنفسك باختبائك عن الأنظار وترك الناس يظنونك قعيدًا وأحمق؟".

قال كولن حانقًا: "أحمق!". "من الذى كان يظن هذا؟".

رد بن: "الكثير من الحمقى. هذا العالم يعج بالحمير الناهقة، التى لا تنهق سوى بالأكاذيب. ولكن لماذا عزلت نفسك؟".

قال كولن بإيجان: "ظن الجميع أننى على مشارف الموت، ولكننى لست كذلك!".

وقد قال ذلك بإصرار جعل بن وذرستاف يتفحصه بنظراته ذهابًا وإيابًا من رأسه لأخمص قدميه.

قال بغبطة جافة: "تموت!"".لا شىء من هذا القبيل! إنك تمتلك شجاعة كبيرة. عندما رأيتك تطأ الأرض بقدميك فى هذه العجلة، علمت أنك بخير. اجلس على البساط سيدى الصغير وأَمْلِ علىّ أوامرك".

كان أسلوبه يتسم بمزيج غريب من العطف المبهم والاستيعاب الفطن. اندفعت مارى فى الحديث بأقصى سرعة فى أثناء نزولهم من الممر الطويل. وأخبرته أن أهم شىء يجب تذكره هو أن كولن كان يتماثل للشفاء؛ لقد كان يتماثل للشفاء. لقد كانت الحديقة السبب فى هذا. لا يجب أن يذكّره أحد بالحدبة وبالموت.

تنازل الأمير الهندى (الراجا) ليجلس على بساط تحت الشجرة.

وسأل: "ما العمل الذى تقوم به فى الحديقة يا وذرستاف؟".

أجاب بن العجوز: "أى شىء أُومر بفعله". "لقد أبقوا علىّ بفضل رضاها عني؛ لأننى أعجبتها".

قال كولن: "ومن تكون هى؟".

أجاب بن وذرستاف "أمك".

نظر كولن حوله بهدوء متعجبًا: "أمي! كانت هذه حديقتها، أليس كذلك؟".

"نعم هذا صحيح!"ونظر وذرستاف حوله أيضًا".لقد كانت شديدة الولع بها".

أعلن كولن: "إنها حديقتى الآن. وأنا مولع بها. سآتى هنا كل يوم"". ولكن على أن يبقى هذا سرًا. أوامرى هى ألا يعلم أى شخص بمجيئنا هنا. لقد عمل ديكون وابنة خالى على إحيائها من جديد. وسأرسل إليك أحيانًا للمساعدة؛ ولكن يجب أن تأتى فى وقت لا يراك فيه أحد".

تجعدت ملامح وجه بن وذرستاف فى ابتسامة عجوز يابسة.

قال: "لقد جئت هنا من قبل ولم يرنى أحد".

تعجب كولن: "ماذا؟"، "متى؟".

قال وهو يحك ذقنه وينظر حوله: "آخر مرة جئت إلى هنا كانت منذ قرابة العامين".

صاح كولن: "ولكن لم يدخلها أحد منذ عشرة أعوام!"".لم يكن هناك باب!".

أجاب بن العجوز فى عبوس "لست أحدًا يذكر"".كما أننى لم آت عبر الباب ولكنى أتيت من فوق الجدار. لكن الروماتيزم حرمنى ذلك خلال العامين الماضيين".

صاح كولن: "كنت تأتى وتقلم بعض الأشجار! " ".لم أكن أفهم كيف يحدث ذلك".

قال بن وذرستاف على مهل: "لقد كانت شديدة الولع بها؛ لقد كانت كذلك بالفعل! كانت مخلوقًا نضرًا جميلاً. أذكر قولها لى ذات مرة وهى تضحك: "بن، إذا حدث ومرضت أو رحلت، عليك أن تعتنى بأزهاري". وعندما رحلت بالفعل، كانت الأوامر ألا يقترب أحد من الحدائق. ولكننى أجيء إليها"، هكذا قالها بعناد حانق".ظللت أجيء من فوق الجدار؛ إلى أن منعنى الروماتيزم، وكنت أقوم ببعض الأعمال مرة واحدة فى العام. لقد كانت من أعطانى الأوامر أولاً".

قال ديكون: "لولاك، لذبلت كما هو حالها الآن. لقد تعجبت كثيرًا".

قال كولن: "أنا سعيد بما فعلته يا وذرستاف"".ستكون قادرًا على حفظ السر".

أجاب بن: "بالطبع سأفعل يا سيدى، وسيكون من الأسهل لرجل مصاب بالروماتيزم أن يدخل من الباب".

على العشب المجاور للشجرة، أسقطت مارى مقلعها. مد كولن يده والتقطه. اعتلى وجهه تعبير غريب وبدأ ينبش فى الأرض. كانت يده النحيفة واهنة جدًا ولكن فى الوقت الحاضر وهم ينظرون إليه –ومارى يتملكها فضول صامت– أدرج طرف المقلع فى التراب، وقلّب بعضًا منه.

قالت مارى لنفسها: "تستطيع فعل هذا! تستطيع فعل هذا! "ثق بكلامى، أنت تستطيع!".

كانت عينا ديكون يملؤهما الفضول ولكنه لم ينبث ببنت شفة. أما بن وذرستاف، فكان ينظر باهتمام بادٍ على وجهه.

استمر كولن. وبعد أن قلّب ملء المقلع من التربة عدة مرات، تحدث بابتهاج إلى ديكون بأفصح لهجات يوركشاير.

"لقد قلت إنك تريد أن ترانى أجول فى المكان كغيرى من الناس، وقلت إنك تريد أن ترانى أحفر. ظننت أنك كنت تمنينى فقط لتسعدنى. ولكن هذا لا يزال اليوم الأول وها أنذا أسير وأحفر".

فتح وذرستاف فمه ثانيةً عندما سمعه، ولكنه انتهى إلى ضحكة خافتة.

قال: "عجبًا! يبدو وكأنك صرت ذكيًا الآن. ابن يوركشاير بحق. وتستطيع أن تحفر أيضًا. ما رأيك لو زرعت نبتةً ما؟ أستطيع أن أحضر لك وردة فى أصيص".

قال كولن وهو يحفر بحماس: "اذهبْ وأتِ بها! أسرع! أسرع!".

تم الأمر بسرعة. انطلق بن وذرستاف وقد نسى الروماتيزم المتمكن منه. أخذ ديكون مجرافه وجعل الحفرة أعمق وأوسع مما كانت بين أيدى شاحبة نحيفة لحفار جديد. تسللت مارى لتركض وتحضر زجاجة للرى. عندما أضاف ديكون إلى عمق الحفرة، واصل كولن تقليب الطمى اللين

مرارًا وتكرارًا. رفع ناظريه إلى السماء، وكان وجهه متوردًا مشعًا من أثر التمرين الجديد، رغم بساطته.

قال: "أريد أن أفعل هذا قبل أن تغيب الشمس؛ تغيب ولو بعض الشيء".

ظنت مارى أن الشمس ربما تعمدت أن تتوقف لبضع دقائق تمامًا كما أرادوا. أحضر وذرستاف الزهرة فى أَصِيصها من الصوبة. كان يعرج فوق العشب بأقصى سرعته. لقد بدأت الإثارة تتملكه هو الآخر. ركع بن إلى جانب الحفرة وكسر الأَصِيص من القالب.

قال وهو يمرر النبتة إلى كولن: "تفضل أيها الصبي"". اغرسها فى الأرض بنفسك، كما يفعل الملك عندما يذهب إلى مكان جديد".

ارتجفت اليدان النحيفتان الشاحبتان قليلاً وزاد كولن توهجًا على حين كان يضع الزهرة فى القالب، وكان يمسك الزهرة حتى ينتهى العجوز بِن من تثبيت التربة. لقد امتلأت الحفرة وأصبحت التربة بداخلها مضغوطة وجاهزة. كانت مارى منحنية إلى الأمام لرؤية ما يتم عمله. هبط سوت بجناحيه وتقدم ليرى ما يفعلون. وتحدث نَت وشِل عن الأمر من فوق شجرة كرز.

قال كولن أخيرًا: "لقد انتهت زراعتها والشمس لا تزال تنزلق فوق الحافة. ساعدنى على النهوض يا ديكون. أريد أن أكون واقفًا عندما تغيب. هذا جزء من السحر".

وبالفعلِ ساعده ديكون. والسحر –أو أيًّا كانت ماهيته– منحه القوة؛ حتى إنه عندما انزلقت الشمس فوق الحافة لتنهي ذلك النهار السعيد والغريب بالنسبة لهم، كان واقفًا هناك على قدميه؛ وهو يضحك.

الفصل الثالث والعشرون

السحـــر

كان دكتور كرافن ينتظر فى المنزل منذ فترة عندما عادوا إليه. وكان قد بدأ يتساءل ما إذا كان من الحكمة أن يرسل أحدهم ليستكشف مسارات الحديقة. عندما أعيد كولن إلى غرفته، نظر الرجل المسكين إليه بجدية.

قال: "ما كان يجب عليك المكوث طوال هذا الوقت، يجب ألا تجهد نفسك".

قال كولن: "لست متعبًا على الإطلاق. لقد تحسنت بفعل هذا. وغدًا سأخرج فى الصباح وفى الظهيرة أيضًا".

أجاب دكتور كرافن: "أخشى أننى لا أستطيع السماح لك بهذا، إنه قرار غير حكيم".

قال كولن وهو يعنى ما يقول: "القرار غير الحكيم هو أن تحاول منعى من الخروج، سأخرج".

حتى مارى اكتشفت أن إحدى السمات التى تميز كولن كانت عدم وعيه على الإطلاق بمدى الوقاحة والفظاظة التى كان يتبعها فى إعطاء الأوامر للآخرين. فقد عاش على ما يشبه الجزيرة المهجورة طوال حياته وكان ملكًا عليها، شكّل أخلاقه بنفسه، ولم يكن هناك من يقارن نفسه به. فى الواقع كانت مارى نفسها تشبهه ومنذ حضرت إلى ميسلثويت اكتشفت تدريجيًّا أن أخلاقها لم تكن من النوع المعتاد أو المحبوب. وبعد هذا الاكتشاف، شعرت بطبيعة الحال بأهمية إخبار كولن به. لذا، جلست ونظرت إليه لبضع دقائق بعد رحيل دكتور كرافن. لقد أرادته أن يسألها عن سر هذه النظرة. وقد فعل.

قال: "لِمَ تنظرين إليّ هكذا؟".

"أشعر بالأسف حيال دكتور كرافن".

قال كولن بهدوء: "وأنا كذلك"، ولكن لم تبد عليه أى علامات للرضا". لن يصل إلى ميسلثويت أبدًا، فأنا لن أموت".

قالت مارى: "أأسف لهذا السبب بالطبع ، ولكننى كنت أفكر فى ذلك الشعور البغيض حينما يضطر شخص ما أن يتعامل بأدب مع صبى طالما كان وقحًا. لو كنت مكانه، ما فعلت ذلك".

سأل كولن بغير انزعاج: "وهل أنا وقح؟".

قالت مارى: "لو كنت ابنًا له، وكان هو من النوع الذى يصفع، لصفعك على وجهك".

قال كولن: "ولكنه لا يجرؤ على فعل هذا".

أجابت الآنسة مارى وهى توضح الأمر دون أى تعصب: "لا، إنه لا يجرؤ. لم يجرؤ أحد قط على فعل ما لا يرضيك؛ لأنك كنت على وشك الموت وأمور من هذا القبيل. لقد كنت مسكينًا حقًا".

أعلن كولن فى عناد: "ولكننى، لن أكون مسكينًا بعد اليوم. لن أسمح للآخرين بأن يرونى هكذا. لقد وقفت على قدمى هذه الظهيرة".

أردفت مارى تفكر بصوت مرتفع: "إن اتباع طريقتك الخاصة فى كل شىء هى التى جعلتك غريب الأطوار".

أشاح كولن برأسه فى عبوس قائلاً: "هل أنا غريب الأطوار؟".

أجابت مارى: "نعم، للغاية"، وأضافت دون تحيز: "ولكن لا داعى لأن تتضايق، لأننى غريبة الأطوار أيضًا وكذلك وذرستاف. ولكننى لست بالقدر الذى كنت عليه من قبل، قبل أن أبدأ أحب الآخرين وقبل أن أعثر على هذه الحديقة".

قال كولن: "لا أريد أن أكون غريب الأطوار، لن أكون كذلك"، ثم عبس ثانيةً ووجهه ينم عن الإصرار.

لقد كان شديد الكبرياء. ظل راقدًا يفكر لبرهة، ثم تابعت مارى ابتسامته الجميلة وبدأت تدريجيًا تغير ملامح وجهه.

قال: "سأتوقف عن التصرف بغرابة، إذا قصدت الحديقة كل يوم. فثمة سحر هناك، سحر نافع، أنت تعرفين ذلك يا مارى. أثق بأن السحر هناك".

قالت مارى: "وأنا أيضًا".

قال كولن: "حتى وإن لم يكن سحرًا حقيقيًا، فيمكننا التظاهر بأنه كذلك. ثمة شىء فى ذلك المكان؛ ثمة شىء!".

قالت مارى: "إنه السحر، ولكنه ليس أسود. إنه أبيض كالثلج".

لطالما أسموه سحرًا، وقد بدا كذلك بالفعل فى الشهور التالية: تلك الشهور الرائعة، المشعة، المذهلة. يا لها من أمور تلك التى حدثت فى هذه الحديقة! إذا لم تمتلك حديقةً قط، فلن تستوعب هذا، وإذا كانت لديك حديقة، فستعلم أنك تحتاج كتابًا كاملاً لتسرد كل ما مر بها. فى البداية، بدت النباتات الخضراء وكأنها لن تتوقف أبدًا عن الاستشراء عبر الأرض، وبين العشب، وعلى الفُرش، وحتى فى شقوق الجدران. ثم بدأت هذه النباتات الخضراء تثمر عن براعم، وأخذت هذه البراعم تتفتح وتظهر ألوانها، كل درجات اللون الأزرق، وكل درجات اللون الأرجوانى، وكل ظلال ودرجات اللون القرمزى. فى أيامها السعيدة، كانت الزهور تشق طريقها فى كل شبر وكل حفرة وزاوية. شهد بن وذرستاف ذلك بعينيه وكان يكشط بنفسه الملاط من بين لبنات الجدران ويصنع جيوبًا ترابية لتنمو عليها النباتات المتسلقة الرائعة. كانت حزم من زهور السوسن والزنبق الأبيض تنبثق

وسط العشب، وكانت التعريشات فى الحديقة قد امتلأت بحشود من سيقان الزهور الزرقاء والبيضاء لنباتات العايق أو الحوض أو الجريس.

قال بن وذرستاف: "لقد كانت شديدة الولع بهذه الزهور، كانت كذلك حقًا. لأن كلاً منها كان ينظر إلى السماء الزرقاء، كما كانت تخبرنى. لا لأنها كانت تبدو كإحدى الزهرات إذا نظرت إلى الأرض؛ لم تكن كذلك. كانت تحبها كثيرًا وقالت إن السماء الزرقاء كانت تملؤها بالبهجة".

نمت البذور التى زرعها كل من ديكون ومارى وكأن جنيات كانت ترعاها. كانت أزهار الخشخاش الساتانية الملمس بكل ألوانها تتراقص مع النسمات فى جماعات، كانت تلك الزهور الأبية المبهجة التى عاشت فى الحديقة لسنوات والتى يجب الاعتراف بأنها بدت وكأنها تتساءل عن كيفية وصول هؤلاء الأشخاص إلى ذلك المكان. وكانت الورود؛ وما أجمل تلك الورود! تعلو هاماتها فوق العشب، تتشابك حول الساعة الشمسية، تتوج جذوع الأشجار وتتدلى من فروعها، وتتسلق الجدران وتنتشر عليها وتتساقط أكاليل الزهور متراصة؛ لقد كانت تعود إلى الحياة يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة. كانت الأوراق الغضة والكثير والكثير من البراعم التى تبدأ صغيرة ثم تنتفخ وتطلق سحرها حتى تتفتح وتنسدل فى أكواب من الشذا لتنشر عطرها برقة على حوافها وتملأ هواء الحديقة.

شاهد كولن كل هذا، رأى كل تغيير وهو يحدث. كل صباح، كانوا يحضرونه للخارج وكان يقضى كل ساعة من كل يوم فى الحديقة إذا لم تكن هناك أمطار. حتى الأيام الغائمة كانت تسعده. كان يتمدد على العشب، "يشاهد الأشياء وهى تنمو" على حد تعبيره. وكان يعتقد أنك إذا أطلت النظر

إليها، فسترى البراعم تخلع أغلفتها. ويمكنك أيضًا أن تتعرف إلى حشرة غريبة منشغلة تركض فى الجوار لتلحق بمواعيدها المختلفة المجهولة ولكن المهمة أيضًا، ستجدها أحيانًا تحمل بقايا صغيرة من القش أو الريش أو الطعام، أو تتسلق أنصال العشب وكأنها أشجار يستطيع الفرد من فوق قمتها أن يستكشف الريف من حوله. وكان قد شغل تفكيره طيلة صباح كامل حيوان خلد كان يلقى كومة التراب التى صنعها عند نهاية جحره ليشق لنفسه طريقًا أخيرًا بمخالبه الطويلة التى تشبه يد العفريت كثيرًا. منحته أساليب النمل والخنافس والنحل والضفادع والطيور والنباتات عالمًا جديدًا كان عليه استكشافه، وعندما اكتشف كولن أسرار كل هذه العوالم، أضاف إليها أساليب الثعالب وحيوانات مثل القندس وابن مقرض والسنجاب وسمك السلمون المرقط وفأر الماء والغرير، أشياء لا تحصى كان يمكن الحديث عنها والتفكير فيها.

ولم يكن هذا نصف السحر. احتلت حقيقة وقوفه على قدميه ذات مرة بالفعل مساحة كبيرة من تفكيره، وعندما أخبرته مارى بالتعويذة التى أعدتها، كان متحمسًا، وأيدها بقوة. لم يكن ينفك يتحدث عن هذا.

قال بصوت حكيم ذات يوم: "بالطبع يعج عالمنا هذا بالسحر، ولكن الناس لا يدرون كيف يبدو أو كيف يصنعونه. لعل البداية هى أن تقول إن أمورًا جيدة سوف تحدث إلى أن تجعلها واقعًا. سأحاول وأجرب هذه الطريقة".

وفى الصباح التالى، عندما اتجهوا إلى الحديقة السرية، أرسل على الفور فى طلب بن وذرستاف. وجاء بن على وجه السرعة ليجد (الراجا)

واقفًا على قدميه تحت شجرة وهو يبدو عظيمًا وتعلو وجهه ابتسامة جميلة.

قال: "صباح الخير يا بن وذرستاف، أريدك أنت وديكون والآنسة مارى أن تصطفوا هنا وتستمعوا إليّ لأنى سأخبركم بأمر بالغ الأهمية".

أجاب بن وذرستاف واضعًا يده على جبينه: "أوامرك يا سيدي!". (إحدى السمات الساحرة التى أخفاها بن وذرستاف طويلاً كانت أنه هرب فى صباه ذات مرة إلى البحر وخرج فى رحلات بحرية. لذا كانت ردوده كالبحار).

أوضح الراجا: "سأجرى تجربة علمية، عندما أكبر، سأتوصل إلى اكتشافات علمية عظيمة وسأباشر الآن هذه التجربة".

قال بن وذرستاف على الفور: "أوامرك يا سيدي!"، رغم أن تلك كانت المرة الأولى التى يسمع فيها عن الاكتشافات العلمية العظيمة.

كانت تلك أول مرة تسمع مارى عنها هى الأخرى، ولكن حتى فى هذه المرحلة، بدأت تدرك أن كولن على غرابته قد(يمكنه أن يستلقى على الحشائش ويشاهد نمو الأشياء) قرأ كثيرًا عن أشياء فريدة وكان بشكل ما يتمتع بشخصية مقنعة جدًا. عندما يرفع رأسه ويوجه نظره إليك، تبدو وكأنك تصدقه رغم أن عمره لم يتجاوز العاشرة؛ أو كان يقارب الحادية عشرة. فى تلك اللحظة، كان مقنعًا جدًا لأنه شعر فجأة بروعة إلقاء خطبة كتلك التى يقولها الكبار.

أردف كولن: "ستدور الاكتشافات العلمية العظيمة التى سأتوصل
ليها عن السحر. للسحر شأن عظيم ونادرًا ما تجد من يعرف عنه أ;
نىء باستثناء قلة من الأشخاص فى الكتب القديمة؛ ومارى التى تعرف

القليل عنه بحكم أنها ولدت فى الهند، موطن النساك الهنديين(*). أعتقد أن ديكون يعرف القليل من السحر، ولكنه قد لا يعى ذلك. إنه يسحر الحيوانات والأشخاص. لو لم يكن ساحرًا للحيوانات -وللأولاد أيضًا حيث إنهم حيوانات- لما سمحت له بزيارتى. أؤمن بوجود السحر فى كل شىء، غير أننا لم نشعر بوجود القدر الكافى منه الذى يجعلنا نتمكن منه ونطوعه ليفعل الأشياء لنا؛ شأنه شأن الكهرباء والخيول والبخار".

كان هذا الحديث مهيبًا جدًّا حتى إن بن وذرستاف شعر بالإثارة ولم يتمالك أن يجلس ساكنًا.

قال وقد بدأ يقف باستقامة: "نعم، صحيح يا سيدي".

وتابع الخطيب: "عندما وجدت مارى هذه الحديقة، كانت فى عداد الموتى، ثم بدأ شىء ما ينبش عن الأشياء ليخرجها من تحت الثرى ويصنع شيئًا من لا شىء. بين عشية وضحاها ظهرت أشياء لم تكن موجودة. لم أكن قد رأيت مثل هذه الأشياء من قبل، وقد أثار الأمر فضولى. الأشخاص العلميون دائمًا ما يكونون فضوليين، وأنا سأصبح أحدهم. لا أنفك أقول لنفسى (ما هذا؟ ما هذا؟) إنه شىء ما. فغير معقول أن يكون لا شىء! وحيث إنى لا أعرف له اسمًا فقد سميته (السحر). لم يسبق لى أن رأيت الشمس تشرق ولكن مارى وديكون قد رأياها، ومما سمعته منهما، أنا واثق بأن

(*) Fakirs : النساك الدينيون الهنود؛ الذين يعيشون على التسول، وغالبًا ما يدَّعون القوى السحرية .

هذا سحر أيضًا. شيء ما يدفعها لأعلى ويجذبها. كنت أنظر أحيانًا منذ أن صرت أجيء إلى الحديقة إلى السماء من خلال الأشجار وينتابنى شعور غريب بالسعادة وكأن شيئًا ما يشق طريقه ويتسلل داخل صدرى ليسرع من أنفاسى. السحر دائمًا يدفع الأشياء ويجذبها ويخلق أشياءَ من لا شيء. الجميع مصنوعون من (السحر)، الأوراق والأشجار والأزهار والطيور وحيوان الغرير والثعلب والسنجاب وكذلك البشر. لذا، فإنه حتمًا يحيطنا من كل جانب. فى هذه الحديقة؛ وفى كل مكان. لقد جعلنى (السحر) الموجود فى هذه الحديقة أقف على قدميّ وأعرف أنى سأحيا حتى أصير رجلاً. سأجرى تجربة علمية بأن أحاول الحصول على بعض من هذا السحر وأضعه بداخلى وأجعله يدفعنى ويجذبنى ويجعلنى أقوى. لا أدرى كيف أفعل هذا، ولكن إذا واصلت التفكير فى الأمر واستدعائه، فربما يأتيك. لعل هذه هى أول طريقة طفولية للحصول عليه. عندما كنت أهم بمحاولة الوقوف تلك المرة الأولى، ظلت مارى تقول لنفسها بأسرع ما تستطيع (تستطيع فعل هذا! تستطيع فعل هذا!) وقد استطعت فعلاً. بالطبع كان عليّ أن أجرب بنفسى فى الوقت نفسه، ولكن (سحرها) ساعدني؛ وكذلك سحر ديكون. سأردد كل صباح ومساء وطوال اليوم ما استطعت: (السحر بداخلي! السحر يجعلنى أتعافى! سأكون قويًا مثل ديكون، سأكون قويًا مثل ديكون!) ويجب أن تفعلوا هذا أيضًا. هذه هى تجربتى. هل ستساعدنى يا بن وذرستاف؟".

قال بن وذرستاف: "نعم سأفعل! بالطبع يا سيدي".

"إذا واظبتم على فعل هذا أكثر بانتظام كالجنود فى تدريباتهم العسكرية، فسننظر ما يحدث ونكتشف ما إذا كانت التجربة ناجحة. يتعلم المرء الأمور إذا ظل يرددها مرارًا وتكرارًا ويفكر فيها حتى تترسخ فى ذهنه إلى الأبد وأظن أنى سأتبع الطريقة ذاتها مع السحر. إذا واصلت استدعاءه ليساعدك، فسيصبح جزءًا منك وسيبقى بداخلك ويفعل الكثير".

قالت مارى: "لقد سمعت مرة ضابطًا فى الهند يقول لأمى إن هناك نساكًا هنودًا يرددون أشياءَ لآلاف المرات".

قال بن وذرستاف بنبرة جافة: "لقد سمعت زوجة جيم فيتلورث تردد الشىء ذاته آلاف المرات؛ كانت تقول عن جيم إنه سافل ثمل، وقد أثمر هذا عن شىء، بالطبع حدث هذا. فقد ضربها، وذهب إلى بلو لايون ليثمل كما يريد".

عبس كولن وفكر لدقائق. ثم عاد وانفرجت أساريره.

قال: "حسنًا، لقد أثمر هذا عن شىء. لقد استخدمت (سحرًا) خاطئًا حتى جعلته يضربها. ولو استخدمت (السحر) الصحيح، وقالت أمورًا مستحبة، ربما لم يكن ليثمل إلى هذا الحد، أو ربما كان سيحضر لها قبعة جديدة".

أصدر بن وذرستاف ضحكة خافتة وبدت فى عينيه العجوزتين الصغيرتين نظرة إعجاب ثاقبة.

قال: "إنك صبى بارع كما أنك مستقيم السيقان يا سيد كولن، عندما أرى بيس فيتلورث فى المرة المقبلة، سألمح لها بمدى قدرة السحر على مساعدتها. أظنها ستسعد إذا نجحت هذه التجربة العلمية، وكذلك جيم".

كان ديكون واقفًا يستمع إلى المحاضرة وعيناه المستديرتان تلمعان بنشوة الفضول. كان نَت وشِل يقفان على كتفيه، وكان يمسك بيديه أرنبًا طويل الأذنين وكان يلاطفه برفق على حين كان الأرنب يمد أذنيه على طول ظهره ويستمتع بهذا.

سأله كولن ليعرف رأيه: "هل تعتقد أن التجربة ستنجح؟". فكثيرًا ما كان يتساءل عما يجول بذهن ديكون عندما كان ينظر إليه أو إلى أحد "مخلوقاته" بابتسامته العريضة المرحة.

كان مبتسمًا حينها، وكانت ابتسامته أعرض من المعتاد.

أجاب: "نعم، أعتقد هذا. ستنجح تمامًا كما تنبت البذور إذا ما ألقت الشمس بنورها عليها. ستنجح بالتأكيد. هلاّ بدأنا الآن؟".

كان كولن وكذلك مارى مسرورين. اقترح أن يجتمعوا ويجلسوا تحت ظلة الشجرة وقد ألهمته ذكرى النساك والزهاد الذين أوردهم فى حديثه.

قال كولن: "سيكون الأمر أشبه بالجلوس فى معبد. أنا متعب أيضًا وأريد الجلوس".

قال ديكون: "ماذا بك؟ يجب ألا تبدأ هذا بقول إنك متعب. فقد يفسد هذا السحر".

التفت كولن ناظرًا إليه بعينيه البريئتين المستديرتين.

قال بتمهل: "هذا صحيح، عليّ أن أكرس تفكيرى للسحر فقط".

بدا الأمر سحريًا وغامضًا وهم يجلسون فى دائرة. شعر بن وذرستاف أن شيئًا ما جعله يحضر اجتماعًا للصلاة. كان عادةً لا يهتم بما أسماه نوعًا آخر من اجتماعات الصلاة، ولكن لأن هذه الصلاة كانت تخص (الراجا)، فإنه لم يرفضها وكان يسره أن يطلبوه للمساعدة. كانت الآنسة مارى مبتهجة بهذه الشعائر. وكان ديكون قد أمسك بأرنبه تحت ذراعه، ولعله ألقى تعويذة سحرية لم يسمعها أحد، فعندما جلس القرفصاء كالبقية، اقترب منه الغراب والثعلب والسناجب والحمل ببطء ليكملوا الدائرة، جلسوا بجانب الآخرين وكأنهم ينضمون إليهم برغبتهم.

قال كولن برزانة: "لقد أتت المخلوقات، إنها تريد مساعدتنا".

رأت مارى أن كولن كان يبدو رائع الجمال. كان يرفع هامته وكأنه راهب وبعينيه الغريبتين نظرة مذهلة. وكان الضوء ساطعًا فوقه متسللاً عبر ظلة الشجرة.

قال: "لنبدأ الآن، هلاّ تمايلنا للأمام والخلف يا مارى مثل الدراويش(*)؟".

قال بن وذرستاف لا أستطيع التمايل للخلف والأمام، فأنا مصاب بداء الروماتيزم".

قال كولن بنبرة راهب راقية: "سيشفيك السحر، ولكننا لن نتمايل قبل أن يفعل ذلك، سننشد فقط".

قال بن وذرستاف: "لا أستطيع الإنشاد. لقد أخرجونى من الكنيسة فى المرة الوحيدة التى حاولت أن أفعل ذلك".

لم يبتسم أحدهم. فقد كانوا جميعًا فى غاية الجدية. حتى وجه كولن، لم تتخلله أى ظلال. فقد كان يفكر فقط فى السحر.

قال: "سأنشد أنا". وأخذ ينشد كروح صبى غريبة".شمس تسطع، شمس تسطع، ذلك سحر. نمو الزهر، ذلك سحر. جذور تنبت، ذلك سحر. حياة الناس هى السحر، قوة بدن هى السحر. السحر يعيش بداخلى، السحر يعيش بداخلى. إنه بداخلى. وبداخل كل منا. السحر فى ظهر بن وذرستاف. أيها السحر! أيها السحر! هلم إلى مساعدتنا!".

لقد ردد ذلك كثيرًا؛ لأكثر من آلاف المرات. كانت مارى تستمع مسلوبة اللب. شعرت بغرابة هذا وجماله وإرادته أن يواصل طويلاً. بدأ بن

(*) dervishes : الزهاد المسلمون الذين يؤدون رقصات زهد بالتفاف، وينشدون بغيًا للخلاص.

وذرستاف يشعر بالسكينة وكأنه فى حلم يعجبه. اختلط طنين النحل فى الأزهار مع صوت الإنشاد وكأنما أخذ سِنة من النوم. كان سيكون يجلس القرفصاء وأرنبه نائم على ذراعه وقد ألقى يده على ظهر الحمل. أما سوت فقد دفع السنجاب بعيدًا وجثم قريبًا منه على، كتفه، وقد غلب النعاس عينيه. وأخيرًا توقف كولن.

أعلن قائلاً: "الآن سأتجول فى أنحاء الحديقة". كانت رأس بن وذرستاف قد سقطت للأمام لتوه وقد رفعها بحركة سريعة مفاجئة.

قال كولن: "لقد كنت نائمًا".

تمتم بن: "لا شىء من هذا القبيل، لقد كانت الخطبة جيدة بما يكفي؛ ولكن علىّ أن أخرج قبل المجموعة".

لم يكن قد أفاق تمامًا وقتها.

قال كولن: "لست فى كنيسة".

قال بن محاولاً رفع ظهره: "لا لست كذلك، ومن الذى قال هذا؟ لقد سمعت كل كلمة قيلت. لقد قلت إن ظهرى فيه سحر. ولكن الأطباء يطلقون عليه الروماتيزم".

لوح (الراجا) بيده.

قال: "كان ذلك سحرًا خاطئًا، سوف تتحسن حالتك. أذنت لك بالذهاب إلى عملك. ولكن عليك العودة غدًا".

قال بن بصوت نخير: "أود أن أراك تسير فى أرجاء الحديقة". لم يكن صوت النخير ذلك عدائيًا، ولكنه كان نخيرًا. فى الواقع، نظرًا لأنه كان رفيقًا عجوزًا وعنيدًا لا يؤمن إيمانًا كاملاً بالسحر، فقد قرر أنه فى حال أرسلوه بعيدًا، سيتسلق السلم الخشبى وينظر من فوق الجدار ليكون مستعدًا يعود أدراجه وهو يعرج فى حالة حدوث أى عثرات.

لم يعترض (الراجا) على بقائه وتشكلت المسيرة. لقد كانت فعلاً أشبه بمسيرة، يتقدمها كولن وعلى جانبيه ديكون ومارى. وكان بن وذرستاف يسير فى المؤخرة، وتسير فى أعقابهم (المخلوقات)؛ كان الحمل وجرو الثعلب يسيران بالقرب من ديكون، والأرنب الأبيض ما بين تقافز ليواكب المسيرة أو توقف ليقضم بعض الطعام، أما سوت فكان يتبعهم وعليه وقار من يظن نفسه قائدًا.

كانت المسيرة تتقدم ببطء ولكن بكبرياء. وكل بضعة ياردات، كانت تتوقف للحصول على بعض الراحة. أمال كولن على ذراع ديكون وكان بن وذرستاف يراقب المشهد بحذر دون أن يلاحظه أحد، ولكن بين حين وآخر، كان كولن يحرر يده من مساعدها ويسير خطوات قليلة بمفرده. كانت رأسه مرفوعة طوال الوقت، وكان يكسوه ثوب العظمة.

ظل يردد: "السحر بداخلى. السحر يجعلنى قويًا! أستطيع أن أشعر بهذا! أستطيع أن أشعر بهذا!".

بدا جليًا أن شيئًا ما كان يثبته ويرفعه. جلس على المقاعد الموجودة فى التعريشة، كما جلس مرة أو مرتين على العشب، وكان يتوقف مرارًا فى الطريق ويميل على ديكون، ولكنه لم يكن ليستسلم حتى يجول جميع أرجاء الحديقة. عندما عاد إلى ظلة الشجرة، كان خداه متوردين وبدت عليه علامات النصر.

صاح: "لقد فعلتها! لقد نجح السحر!"". هذا هو اكتشافى العلمى الأول".

انطلقت مارى تقول: "ماذا سيقول دكتور كرافن؟".

أجاب كولن: "لن يقول شيئًا، لأننا لن نخبره. سيكون هذا الأمر أهم الأسرار. لن يعرف به أحد حتى أقوى بحيث أستطيع السير والركض كغيرى من الأولاد. سآتى إلى هنا كل يوم على مقعدى وأعود عليه. لن أثير أسئلة الناس وهمسهم ولن أدع أبى يسمع بهذا حتى يثبت نجاح التجربة. وفى وقت ما، لدى عودته من ميسلثويت، سأسير مباشرةً إلى مكتبه وأقول له: "ها أنذا! أسير كأى ولد طبيعى. أنا فى تمام الصحة وسأعيش حتى أصير رجلاً. لقد حدث هذا بفضل تجربة علمية".

هللت مارى: "سيظن أنه يحلم، لن يصدق عينيه".

تورد وجه كولن بنشوة الانتصار. لقد أقنع نفسه بأنه سيتحسن، وكانت تلك نصف المعركة، إذا كان على وعى بها. وكانت الفكرة التى تحفزه أكثر من أى شىء آخر هى تلك الصورة التى رسمها فى ذهنه لوالده وكيفية استقباله للأمر عندما يرى أن لديه ابنًا مستقيم القامة صحيح البدن كأبناء

الآخرين. فأكثر ما كان يشقيه خلال الأيام البشعة الماضية التى كان فيها مريضًا هو بغضه لكونه ولدًا مريضًا أحدب يخشى والده أن ينظر إليه.

قال: "لن يملك إلا أن يصدق، إحدى الأمور التى أعتزم فعلها بعد أن ينجح السحر وقبل أن أبدأ بعمل اكتشافاتى العلمية، هى أن أصبح لاعبًا قويًا".

قال بن وذرستاف: "سنصطحبك إلى تدريب للملاكمة فى غضون أسبوع، وسينتهى بك الأمر إلى الفوز بالحزام وستصبح بطل إنجلترا المقاتل الحائز على الجوائز".

حدق كولن فيه بعبوس.

وقال: "وذرستاف، تصرفك هذا ينم عن عدم الاحترام. يجب ألا تجنح بخيالك بعيدًا لأن الأمر لازال سرًا. وبالرغم من هذا، ما إن ينجح السحر، لن أصير مقاتلاً لأحصد الجوائز، ولكنى سأصبح مكتشفًا علميًا".

أجاب بن وهو يلامس جبينه للتحية: "معذرة يا سيدي؛ معذرة. كان علىّ استيعاب أن الأمر لم يكن مزحة". ولكن عينيه كانتا تلمعان وكان فى أعماقه يشعر بسعادة غامرة. لم يكن فى الحقيقة يمانع أن ينهره كولن، لأن هذا النهر كان يعنى أن صحة الصبى تتحسن ومعنوياته ترتفع.

الفصل الرابع والعشرون

دعيهما يضحكا

لم تكن الحديقة السرية هى الوحيدة التى عمل بها ديكون. كان هناك قطعة من الأرض حول الكوخ فى البرارى محوطة بسور قصير من حجارة متباينة. لم يكن كل من كولن ولا مارى يرونه فى الصباح الباكر ولا عند الشفق فى جميع الأيام، فقد كان يعمل بها بالزراعة والعناية بنباتات البطاطس والكرنب واللفت والجزر وبعض الأعشاب من أجل أمه. كان يفعل العجائب هناك بصحبة "مخلوقاته" ولم يكن يكل أو يتعب كما كان يبدو. فى أثناء حفره أو تنظيفه للنباتات كان يصفر أو يغنى بعض أغانى يوركشاير أو كان يتحدث إلى سوت أو كابتن أو إخوته وأخواته الذين علمهم كيف يساعدونه.

كانت السيدة سوربى تقول: "لم نكن أبدًا أكثر راحة من الآن بفضل حديقة ديكون، فكل شيء ينمو لأجله. فالكرنب والخضروات التى يزرعها ضعف حجم مثيلاتها كما أن لها نكهة خاصة".

كانت تختلس اللحظات لتخرج وتتحدث معه. بعد العشاء كان هناك فترة طويلة من الشفق لتعمل بها وكانت تلك لحظة هدوئها. كانت تجلس على الحائط الخشن الصغير وتنظر بعيدًا وتستمع لحكايات ذلك اليوم. كانت تحب ذلك الوقت. ولم تكن الحديقة للخضروات فقط، ولكن ديكون كان قد اشترى بعض الحزم الصغيرة لبذور الزهور من وقت لآخر وبذر أشياء جميلة وزكية الرائحة بين شجيرات العنب وحتى الكرنب، كما زرع خطوطًا من النباتات الفواحة وأزهار القرنفل وأزهار الثالوث ونباتات يستطيع أن يحتفظ ببذورها عامًا بعد عام أو نباتات يمكن أن تلقح نفسها فى الربيع وتنتشر عبر الوقت فى مجموعات مبهرة. كان الحائط المنخفض أحد أجمل الأشياء فى يوركشاير لأنه غطاه بنبات قفاز الثعلب وغرسه فى كل صدع حتى لم يكن هناك ما يرى من الحائط سوى بقع بسيطة هنا وهناك.

كان يقول: "أفضل ما يمكننى فعله لهذه النباتات كى تزدهر، يا أمى ، هو أن أكون صديقًا لها بالفعل. إن ظمأت أسقيها، وإن جاعت أطعمها. إنها تريد أن تعيش مثلنا إذا ماتت هذه النباتات فسأشعر أننى كنت فتى سيئًا وعاملتها بلا قلب".

فى هذه اللحظات من الشفق كانت السيدة سوربى تسمع كل ما كان يحدث فى ضيعة ميسلثويت. فى البداية سمعت أن السيد كولن كان يعجبه الخروج مع الآنسة مارى وأنه كان يتحسن بذلك. ولكن لم يمر وقت طويل حتى اتفق الطفلان على أن أم ديكون يجب أن "تدخل فى السر". ولم يشكوا بشكل أو بآخر فى أنها "أمينة بالتأكيد".

حكى ديكون القصة بأكملها فى أحد المساءات الجميلة، بكل التفاصيل المثيرة من المفتاح المدفون وأبى الحناء والسديم الرمادى الذى كان يشبه الموت والسر الذى خططت الآنسة مارى لعدم إفشائه. حضور ديكون وكيف قيل له السر، والشكوك حول السيد كولن وقصة تقديمه لملكيته الخفية، مصاحبًا ذلك حادثة ظهور وجه بن وذرستاف الغاضب المحدق من فوق الحائط مع قوة السيد كولن الساخطة المفاجئة، كل ذلك جعل وجه السيدة سوربى اللطيف تتقلب ألوانه لمرات متعددة.

قالت: "يا إلهي! كان من الجميل حضور هذه الفتاة الصغيرة إلى الضيعة. كان ذلك بمثابة صنع لها وإنقاذ له. فوقوفه على قدميه، وكلنا كنا نظن أنه فتى مسكين أبله بلا عظمة مستقيمة واحدة فى جسده".

سألت أسئلة كثيرة جدًا وبدا على عينيها الزرقاوين تفطير عميق.

تساءلت: "كيف سيتعاملون مع ذلك فى الضيعة– تحسن حالة الصبى وسعادته وعدم شكواه؟".

فأجاب ديكون: "لا يعرفون ماذا يفعلون، كل يوم يمر يستدير وجهه ويبدو مختلفًا. بدأ وجهه يمتلئ وتتبدد حدته ويتلاشى اللون الشاحب. ولكن عليه أن يحافظ على شكواه". بابتسامة عالية الزهو.

سألت السيدة سوربى: "لماذا، باسم الرحمة؟".

فضحك ديكون.

"لقد نجح فى منعهم من تخمين ما يحدث. إذا علم الطبيب أنه يمكن أن يكتشف إمكانية سيره على قدميه وقدرته على الكتابة فيمكن أن يخبر السيد

كرافن. إن السيد كولن يحتفظ بالسر حتى عن نفسه. سوف يمارس السحر على قدميه كل يوم حتى يعود والده ثم بعد ذلك يسير فى حجرته ويريه أنه معتدل كباقى الصبيان. لكنه والآنسة مارى يعتقدان أن أفضل خطة أن يظل يتأوه ويئن من وقت لآخر لكى يبعد العامة عن الحديث".

كانت السيدة سوربى تضحك ضحكة خافتة مريحة قبل أن ينهى جملته الأخيرة.

قالت: "إيه! أجزم أن هذين الطفلين يستمتعان. فهما بذلك يجريان لعبة تمثيلية، وليس لدى الأطفال أفضل من الألعاب التمثيلية. لنرى ماذا سيفعلون، أيها الفتى ديكون".

توقف ديكون عن التنظيف ووقف على كعبيه ليخبرها. كانت عيناه تتلألآن مرحًا.

قال مفسرًا: "يحمل السيد كولن إلى مقعده فى كل يوم يخرج. ويصرخ فى جون الخادم لعدم العناية بحمله. يراعى قدر الإمكان أن يبدو عديم النفع ولا يرفع رأسه حتى نكون بعيدين عن أنظار المنزل كله. يقبع ويئن كثيرًا عندما يكون فى مقعده. كان هو والآنسة مارى يستمتعان بذلك، وعندما كان يتأوه أو يشكو كانت تقول: "مسكين يا كولن! هل تؤلمك كثيرًا؟ هل أنت بهذا الضعف يا كولن المسكين؟" ولكن المشكلة هى أنهما أحيانًا كانا لا يتمالكان نفسيهما من الانفجار فى الضحك. عندما نكون فى مأمن فى الحديقة، يظلان يضحكان حتى لا يسعفهما التنفس لضحك أكثر. وكان عليهما أن

يلصقا وجهيهما فى وسائد السيد كولن حتى لا يسمعهما البستانيون إن كان أحدهم بالقرب".

قالت السيدة سوربى وهى لا تزال على ضحكتها: "كلما ضحكا أكثر، كان ذلك أفضل لهما. فضحك الطفل الصحيح أفضل بكثير من حبة دواء واحدة فى العام. سوف يسمن هذان الطفلان بالتأكيد".

قال ديكون: "إنهما يسمنان، إنهما يظلان جائعين ولا يكفان عن الطعام حتى يبدآن فى الحديث. يقول السيد كولن إن ظل يطلب طعامًا أكثر فلن يصدق أحد أنه مريض بالمرة. تقول الآنسة مارى إنها سوف تدعه يأكل نصيبها، لكنه يقول إنها إن ظلت جائعة فستصير نحيفة وبالتأكيد سيسمنان فى الحال".

ضحكت السيدة سوربى من كل قلبها لإفشاء هذه الصعوبة حتى إنها حركت مقدمة ومؤخرة عباءتها، وضحك ديكون معها.

قالت السيدة سوربى عندما استطاعت الكلام: "سأقول لك شيئًا يا ولدى، لقد فكرت فى طريقة تساعدها. عندما تذهب إليهما فى الصباح خذ معك دلوًا من اللبن الجيد الطازج وسوف أخبز لهما رغيفًا كوخيًا قشريًا أو بعض الكعك بالعنب، الأطفال يحبون ذلك مثلك. ما من شىء أفضل من اللبن والخبز. وبعد ذلك سوف يضعان حدًا لجوعهما فى أثناء وجودهما فى الحديقة أما الطعام الفاخر فى المنزل فسوف يكون للرفاهية".

قال ديكون بإعجاب: "إيه يا أمي! يالروعتك! دائمًا عندك حل لكل شيء. لقد كادا يهلكان بالأمس. ولم يعرفا كيف يمكنهما طلب المزيد من الطعام– لقد شعرا بأن معدتيهما خاويتان".

قالت السيدة سوربى: "إنهما صغيران ينموان بسرعة، والصحة تعود لكليهما. يحب الأطفال ما تشعر أن الذئاب يحبون والطعام بالنسبة إليهم هو لحمهم ودمهم". ثم ابتسمت بنفس ابتسامة ديكون المحدبة.

وقالت: "إيه! ولكنهما يستمتعان بلا شك".

كانت محقة تمامًا هذه الأم المريحة الرائعة. ولم تبالغ حينما قالت إن سعادتهم فى لعبهم التمثيلى. فقد وجد كل من كولن ومارى هذه التمثيلية أحد أهم مصادر الإثارة والترفيه. بدأت فكرة إبعاد أنفسهم عن الشكوك بشكل لا إرادى عن طريق تحير الممرضة ثم دكتور كرافن نفسه.

قالت الممرضة ذات يوم: "تتحسن شهيتكَ كثيرًا، سيد كولن، كنت معتادًا ألا تأكل شيئًا، ولم يكن يناسبك أطعمة كثيرة".

أجاب كولن: "كل شيء يناسبنى الآن"، فرأى الممرضة تحدق فيه بشكل فضولى فتذكر أن ليس عليه إبداءَ لياقته وتحسنه بعد". على الأقل ليس كل الأوقات، ذلك بفضل الهواء النقى".

قالت الممرضة ولا تزال تنظر إليه بتعبير متحير: "ربما هو كذلك، لكن على أن أتحدث مع د. كرافن بخصوص ذلك".

قالت مارى عندما ذهبت الممرضة: "كيف كانت تحدق فيك! وكأنها تعتقد أن هناك شيئًا لابد من معرفته".

قال كولن: "لن أدعها تكتشف شيئًا، لا أحد يجب أن يعرف بعد".

عندما حضر د. كرافن ذلك الصباح بدا متحيرًا أيضًا. وجه بعض الأسئلة حتى بدا الغضب الشديد لكولن.

قال: "إنك تظل بالخارج فى الحديقة وقتًا طويلاً، أين تذهب؟".

فارتدى كولن قناع الموافقة المبجلة على الرأى.

أجاب: "لن أدع أحدًا يعرف أين أذهب، فأنا أذهب إلى مكان أحبه. والجميع لديهم الأوامر أن يتنحوا بعيدًا عن طريقى. لا أريد أن يرانى أحد أو يحدق بى أحد. وأنت تعرف ذلك".

"يبدو أنك تخرج طوال اليوم ولا أظن أن هذا أضرك بشىء. فالممرضة تقول إنك تأكل أفضل من أى وقت مضى".

فقال كولن، وقد تنبه إلى إلهام مفاجئ: "ربما، ربما هى شهية غير معتادة".

قال د. كرافن: "لا أعتقد ذلك، فيبدو أنك تشتهى طعامك، وجسمك بدأ يكسوه اللحم بسرعة ولونك للأفضل".

قال ديكون، متظاهرًا بمسحة من الكآبة: "ربما- ربما أكون متورمًا ومحمومًا، والذين يدنون من الموت يبدون دائمًا مختلفين".

هز د. كرافن رأسه. كان ممسكًا بمعصم كولن، رفع كمه وتحسس ذراعه. قال وهو يفكر: "لست محمومًا، ولحمك الذى اكتسبته شىء صحى. لو داومنا على ذلك يا ولدى، فلن نحتاج للكلام عن الموت. سيكون أبوك سعيدًا جدًا لو سمع بهذا التحسن الملحوظ".

فانتفض كولن مقاطعًا بعنف: "لا أريد أن يخبره أحد. فسيخيب ذلك أمله لو صحتى تدهورت مرة ثانية- وربما تسوء حالتى هذه الليلة. ربما ينتابنى حمى عنيفة. أشعر بها تتخللنى الآن. لا أريد أن تكتب خطابات لأبي- لا أريد - لا أريد! تغضبوننى وأنتم تعرفون أن ذلك يزيد حالتى سوءًا. أشعر بحرارة بالفعل. أكره أن يُكتب عنى وأن يُتحدث عنى كما أكره أن يُحدق فيّ".

فهدأه د. كرافن وقال: "حسنًا حسنًا يا ولدى، لن يكتب شىء دون الرجوع إليك. أنت حساس فوق العادة. ولا يجب عليك أن تتشاءم مما هو جيد".

لم يتحدث أكثر عن الكتابة للسيد كرافن، وعندما رأى الممرضة حذرها بشكل منفرد أن مثل هذا التطور لا يجب أن يذكر للمريض.

قال: "إن الولد أفضل على غير العادة. يبدو تحسنه غير طبيعى تقريبًا. لكنه يفعل الآن بإرادته الحرة ما لم نستطع أن نجعله يفعله فى الماضى. ولكنه لا زال ينفعل بسهولة ولا يجب أن يقال شىء يغضبه".

انزعج كل من كولن ومارى وتحدثا معًا بقلق. ومنذ ذلك الوقت أسميا خطتها بـ "التمثيلية".

قال كولن بشىء من الندم: "ربما أضطر للدخول فى نوبة غضب، لا أريد نوبة غضب ولست بائسًا بشكل كاف الآن لأدخل نفسى فى نوبة كبيرة. وربما لا أستطيع أن أفعلها مطلقًا. فهذا الاحتقان لا يأتى لحلقى الآن ولا أتوقف عن التفكير فى أشياء جميلة بدلاً من الأخرى المرعبة. ولكن إذا تحدثوا عن الكتابة لأبى فسأضطر لفعل شىء".

قرر أن يقلل من أكله، لكن لسوء الحظ لم يعد يستطيع التحكم فى شهيته عند استيقاظه من النوم وهو يجد الإفطار على المائدة قريبًا من أريكته وعليه الخبز المنزلى والزبد الطازج والبيض ومربى التوت والقشدة المخثرة. كانت مارى دائمًا تفطر معه وعندما كانا يجلسان على المائدة- بالتحديد لو كان هناك شرائح لذيذة من فخذ الخنزير الحار جدًا والذى يبعث برائحة مغرية من تحت الغطاء الفضى، فكانا ينظران فى عيون بعضهما فى يأس.

كان كولن دائمًا ما ينتهى إلى قوله: "أظن أن علينا أن نأكله كله هذا الصباح يا مارى، يمكن أن نعيد بعضًا من الغداء وقدرًا كبيرًا من العشاء".

لكن وجدًا أنهما لم يستطيعا إبعاد أى شىء من الطعام، وكانت الأوانى الممسوحة بعناية دائمًا ما تعود إلى المطبخ لتأتى تعليقات كثيرة.

كان كولن يقول أيضًا: "أتمنى من كل قلبى لو كانت الشرائح أكثر سماكة وفطيرة واحدة ليست كافية لكل واحد".

أجابت مارى عندما سمعت ذلك لأول مرة: "إنها كافية لشخص مقبل على الموت، لكنها ليست كافية لشخص مقبل على الحياة. أظن أننى يمكننى أن آكل ثلاثة عندما تأتى الروائح الذكية لنباتات الخلنج والجولق من البرارى وتتدفق عبر النافذة".

فى الصباح التالى، وبعد أن استمتعوا فى الحديقة لساعتين، ذهب ديكون خلف شجيرة زهور وأحضر معه دلوين مغلقين وقال إن أحدهما مليء باللبن الطازج الدسم المغطى بالقشدة، والآخر يحوى كعكًا بالعنب مصنوعًا بالكوخ وملفوفًا فى منديل نظيف ملون بالأبيض والأزرق، وكان الكعك مرصوصًا بعناية حتى إنه كان لا يزال ساخنًا، فصاحا صيحة فرح من المفاجأة. يالها من فكرة رائعة من السيدة سوربى ! لابد أنها امرأة ذكية وماهرة! ما كان أجمل هذا الكعك! وما كان ألذ اللبن الطازج !.

قال كولن: "يكمن بها سحر كما يكمن بديكون، يجعلها تفكر فى وسائل عديدة لصنع أشياء- أشياء جميلة. إنها شخص ساحر. قل لها إننا ممتنون لها يا ديكون- ممتنون للغاية".

كان قد اعتاد على استخدام تعبيرات البالغين فى بعض الأحيان. كان مستمتعًا بالطعام. أحب الطعام كثيرًا حتى إنه أكد على ذلك كثيرًا". قل لها إنها دائمًا ما كانت كريمة، ونحن عرفاننا لها كبير".

ثم نسى فخامته وانكب على الكعك يأكل منه وشرب اللبن من الدلو بظمأ شديد بطريقة أى صبى جائع مارس مجهودًا غير عادى وتنفس من هواء البرارى وكان طعامه منذ أكثر من ساعتين.

كان هذا واحدًا من مواقف القبول العديدة من ذلك النوع. وقد تنبها حقيقة إلى أن السيدة سوربى المسؤولة عن إطعام أربعة عشر فردًا ربما لا تجد ما يكفى لشهيتين إضافيتين كل يوم. لذلك طلبا منها أن تسمح لهما بإرسال بعض من مصروفهما لشراء بعض الأشياء.

أحرز ديكون اكتشافًا مثيرًا، ففى الغابة خارج الحديقة حيث وجدته مارى أول مرة وهو يعزف لمخلوقاته، يوجد تجويف عميق بعض الشىء يمكن أن يبنوا به فرنًا صغيرًا بالطوب ويشوون البطاطس والبيض فيه. لم يكن البيض المشوى متعة معروفة من قبل والبطاطس الساخنة مع الملح وبعض من الزبد الطازج، وهذه مناسبة لملك علي أرض براري- بجانب كونها لذيذة جدًّا. يمكنك أن تشترى البيض والبطاطس، وتأكل كما يحلو لك دون الشعور بأنك تأخذ الطعام من أفواه أربعة عشر فردًا.

كل صباح جميل كانوا يعقدون جلسة السحر فى الدائرة السرية تحت شجرة البرقوق والتى صنعت ظلة من ورق الأشجار الكثيف بعد أن انتهى وقت إزهارها القصير. بعد الجلسة، كان كولن دائمًا يمارس تمرين المشى وخلال اليوم كان يمرن قواه الجديدة فى أوقات الراحة. كان يزداد قوة كل يوم وكان يستطيع المشى بثبات أكثر ولمسافة أكبر. وكل يوم كان يزداد إيمانه بالسحر- كما كان يجب أن يكون. كان يجرب التجربة بعد الأخرى وشعر بأنه يكتسب القوة وكان ديكون هو من يريه أفضل الطرق.

قال ذات صباح بعد غياب: "بالأمس، ذهبت إلى ثويت لأمى، وقريبًا من كوخ البقرة الأزرق رأيت بوب هاورث(*). إنه أقوى فتى فى البرارى. فهو بطل المصارعة ويستطيع أن يقفز أعلى من أى فتى آخر، كما يستطيع أن يقذف المطرقة لأبعد مسافة. فى بعض السنوات كان يمشى طوال الطريق إلى اسكتلندا من أجل الرياضة. يعرفنى منذ أن كنت طفلاً وهو من النوع الودود، وقد سألته بعض الأسئلة. يسمونه رياضيًا، وقد فكرت فيك يا سيد كولن وقلت له: "كيف تجعل عضلاتك تبرز بهذا الشكل يا بوب؟ هل كنت تفعل أشياء إضافية لتقوى جسمك؟ فقال لى: "هل أنت الولد الضعيف؟ "فقلت : "لا، ولكننى أعرف شابًا يخرج الآن من فترة مرض طويلة وأرغب فى معرفة بعض الألعاب لأنقلها له. لم أذكر أية أسماء له ولم يسألنى. إنه ودود كما قلت، وقف وأرانى بعض الحركات وقلدتها حتى حفظتها عن ظهر قلب".

كان كولن يستمع بإثارة.

صاح: "هل تستطيع أن ترينى؟ هل تستطيع؟ ".

فأجاب ديكون وهو ينهض: "نعم، كن متأكدًا، ولكنه يقول يجب أن تؤديها بلطف فى البداية وكن حريصًا ألا ترهق نفسك. استرخ من وقت لآخر وخذ نفسًا عميقًا ولا تبالغ فى التمرين".

(*) Bob Haworth : ربما تصور لقرية هورث اليوركشايرية، بيت أسرة الكتاب الإنجليز تشارلوت وآن وإيميلى برونتى من عام ١٨٢٠ إلى ١٨٥٤م.

قال كولن: "سأكون حريصًا، أرني! أرني! يا ديكون، إنك أكثر الفتيان سحرًا فى العالم".

وقف ديكون على الحشائش وتحول ببطء إلى ممارس بعناية ولكن أشكال بسيطة من التمارين. كان كولن يشاهدهما وعيناه مشدوهتان. استطاع أن يمارس قليلاً منها وهو جالس. ثم أدى بعضًا من التمارين بلطف على قدميه اللتين كان قد وقف عليهما بالفعل. بدأت مارى تؤديها أيضًا. عندما رأى سوت هذا العرض صار منزعجًا جدًا وترك غصنه وحوّم دون توقف لأنه لم يستطع أن يؤديها بالمثل.

منذ ذلك الوقت، أصبحت هذه التمارين جزءًا من الأعمال اليومية مثل جلسة السحر. أصبحت التمارين ممكنة على كل من كولن ومارى كلما قاما بها وتلك شهيتهما فقداها سوى من السلة التى اعتاد ديكون أن يضعها خلف الشجيرة كل صباح. ولكن الفرن الصغير ومنح السيدة سوربى كانوا مرضين لهما، حتى إن السيدة ميدلوك والممرضة ود. كرافن صاروا متحيرين مرة أخرى. يمكنك أن تقلل من شأن إفطارك وتبدو كأنك تزدرى عشاءك إن كنت ممتلئ البطن بالبيض والبطاطس المشويين واللبن الغنى بالزبد والكعك والفطائر وعسل النحل والقشدة المختثرة.

قالت الممرضة: "لم يأكلا شيئًا، سيموتون من الجوع إن لم يقتنعا بتناول بعض الطعام. ولكن انظرى كيف يبدوان".

قالت السيدة ميدلوك متعجبة: "انظري! أكاد أموت بسببهما. إنهما شيطانان صغيران. معطفاهما سينفجران يومًا ما، ولم يلتفت أنفاهما إلى أفضل الوجبات لأفضل الطهاة. ما من لقمة من هذا الديك الجميل ولا شربة الخبز ولم يضعا فيها شوكة بالأمس- والمرأة المسكينة تدعوهما إلى حلوى البودنج- ثم يرداها ثانية. لقد كادت تبكى. تخشى أن يلوماها إن تضورا جوعًا فى قبريهما".

حضر د. كرافن وتفحص كولن طويلاً وبعناية. بدا عليه تعبير غاية فى القلق عندما تحدثت معه المرضة وعرضت عليه الإفطار الذى لم يلمس وقد احتفظت به لكى يراه- ولكن زاد القلق عندما جلس بجوار كولن على أريكته وفحصه. كان قد تم استدعاؤه إلى عمل فى لندن وغاب حوالى أسبوعين. والصغار دائمًا ما يظهر عليهم التحسن بسرعة. كان اللون الشاحب قد ترك وجه كولن وتبدل بلون وردى دافئ. كانت عيناه الجميلتان صافيتين وقد امتلأت الثغور تحت عينيه وعلى خديه. بدت خصلات شعره الدكناء الثقيلة وكأنها تفجرت بالصحة من جبهته وكانت ناعمة ودافئة بالحياة. شفتاه كانتا أكثر امتلاءً ولونهما طبيعى. فى الحقيقة، كان كولن ذا منظر بائس حتى يؤكد على كونه الطفل المريض. أمسك د. كرافن بذقنه ويده وفكر فيه مليًا.

قال: "أأسف لسماع أنك لم تأكل شيئًا، لن يفيدك ذلك وستفقد ما اكتسبته من الوزن- وقد زاد وزنك بشكل مدهش. منذ مدة قصيرة كنت تأكل بشكل جيد جدًا".

أجاب كولن: "قلت لك إنها كانت شهية غير طبيعية".

كانت مارى جالسة على مقعدها بمقربة منهما، وفجأة صدر منها صوت غريب جدًا حاولت بشدة من خلاله أن تعبر أنها صدمت.

قال د. كرافن وهو يحول نظره إليها: "ما الخطب؟".

أصبحت مارى قاسية تمامًا فى تصرفاتها .

أجابت بوقار واضح: "كانت شيئًا بين السعال والعطس، ودخلت فى حلقى".

وقالت بعد ذلك لكولن: "ولكن، لم أستطع أن أتحكم فى نفسى. فقد انطلقت فقط عندما لم أمنع نفسى من تذكر آخر قطعة بطاطس أكلتها وكيف انبسط فمك عندما كنت تقضم كسرة من الخبز بالمربى وعليها القشدة المخثرة".

فسأل د. كرافن السيدة ميدلوك متعجبًا: "هل هناك أية طريقة يستطيع هذان الطفلان من خلالها أن يحصلا على طعام سرًا؟".

فأجابت السيدة ميدلوك: "ما من طريقة إلا إذا حفرا له فى الأرض أو التقطاه من على الأشجار، إنهما يظلان فى الأرض الزراعية طوال اليوم ولا يريان أحدًا إلا كليهما. ولو كانا يريدان طعامًا مختلفًا عن الذى يرسل إليهما لكانا طلباه".

قال د. كرافن: "حسنًا، بما أن عدم الطعام لا يقلقهما، فلا داعى أن نزعج أنفسنا. فالولد مخلوق جديد".

قالت السيدة ميدلوك: "وكذلك البنت، لقد بدا عليها الجمال منذ أن امتلأ جسمها وفقدت شكلها القبيح البائس. أصبح شعرها سميكًا وصحيحًا كما ازدهر لونها. كانت معتادة أن تكون أكثر شيء كئيب ومريض الطباع وهى الآن تضحك مع السيد كولن وكأنهما طفلان مجنونان. ربما يسمنان بذلك.

قال د. كرافن: "ربما ، دعيهما يضحكان".

الفصل الخامس والعشرون

الستار

وازدهرت الحديقة السرية مرات ومرات، وفى كل صباح كانت تأتى بمعجزات جديدة. فى عش أبى الحناء كان هناك البيض، ورقدت وليفة أبى الحناء على البيض حتى يظل دافئًا، بصدرها الريشى الضئيل وأجنحتها الراعية. فى البداية تملكتها العصبية وكان أبو الحناء نفسه يترقب بشىء من السخط. وحتى ديكون لم يذهب إلى الركن المتنامى القريب فى هذه الأيام، وإنما انتظر هادئًا لفك بعض الأعمال الغامضة، التى كان يبدو أنه نقلها إلى روح الزوجين الصغيرين؛ بأنه لم يكن هناك فى الحديقة أى نظير لهما- لا شىء لم يعرف روعة ما كان يحدث لهما- جمال ووقار البيض الهائل الرقيق المخيف الفاجع. وإذا كان هناك شخص واحد، فى تلك الحديقة، لم يعرف فى قرارة نفسه أنه إذا لم تؤخذ البيضة بعيدًا أو تصيب العالم بأكمله، فإنها يمكن أن تدور وتصطدم عبر الفضاء وتنتهي- إذا كان هناك شخص واحد لم يشعر بها، وتصرف وفقًا لذلك، فربما قد لا يكون هناك سعادة حتى فى

هذا الجو الربيعى الذهبى. ولكنهم جميعًا عرفوا ذلك وشعروا به وعلمت وليفته أنهم عرفوه.

فى البداية شاهد أبو الحناء كل من مارى وكولن بقلق شديد. ولسبب غامض فقد علم أنه لا يحتاج إلى رؤية ديكون. وفى اللحظة الأولى، وجه عينه السوداء البراقة بالندى إلى ديكون، وعلم أنه لم يكن غريبًا، وإنما كان نوعًا من طائر أبى الحناء بدون منقار أو ريش (وهى لغة متميزة تمامًا لا يخطئوها أى شخص). والتحدث بلغة أبى الحناء إلى أبى الحناء، يكون مثل تحدث اللغة الفرنسية إلى رجل فرنسى. ودائمًا ما تحدث ديكون بهذه اللغة إلى أبى الحناء نفسه؛ لذلك فإن الكلام الغامض الذى استخدمه، عندما تحدث إلى البشر، لم يكن له أهمية فى النهاية. واعتقد أبو الحناء أنه تحدث هذا الكلام الغامض إليهم؛ لأنهم لم يكونوا أذكياء بما يكفي؛ كى يفهموا كلام الطيور. ودائمًا ما كانت حركاته هى حركات أبى الحناء. ولم يندهشوا لأى حركات؛ بأن يكونوا مفاجئين بالقدر الكافى، لكى يبدوا خطرين أو مهددين. ويمكن لأى من طيور أبى الحناء أن يفهم ديكون؛ لذا فإن وجوده لم يكن مصدرًا للإزعاج.

ولكنه كان يبدو –فى البداية– بحاجة إلى حراسة ضد الاثنين الآخرين. وفى البداية فإن مخلوق الصبى لم يأت إلى الحديقة على قدميه. فقد دفع على شىء ذى عجلات وألقيت عليه جلود الحيوانات البرية. وكان هذا بذاته مثيرًا للشك. وبعد ذلك؛ عندما بدأ فى الوقوف، والتجول، فعل هذا بطريقة غريبة وغير معتادة وكان يبدو هناك ضرورة لمساعدته من الآخرين. وقد

اعتاد أبو الحناء أن يتخلص من فضلاته فى شجيرة، وينظر إلى الشجيرة قلقًا وقد مالت رأسه فى البداية على جانب واحد، وبعد ذلك على الجانب الآخر. وقد اعتقد أن الحركات البطيئة ربما كانت تعنى أنه كان يعد للقفز كما تفعل القطط. وعندما تستعد القطط للقفز فإنها تزحف على الأرض فى بطء شديد. وقد تحدث أبو الحناء بهذا، إلى وليفته، بقدر كبير لأيام قليلة ولكنه قرر بعد ذلك عدم التحدث عن الموضوع لأن أبا الحناء كان خائفًا من أن تتلف وليفته البيض.

وعندما بدا الصبى يسير بنفسه ويتحرك سريعًا فقد كان هذا للتخفيف عنه. ولكن لفترة طويلة– أو كانت تبدو فترة طويلة لأبى الحناء – كان الصبى مصدرًا لبعض القلق، فهو لم يتصرف مثل باقى البشر. وكان يبدو مغرمًا بالمشى ولكن كان له طريقة للجلوس أو الرقود لفترة والاستيقاظ بعد ذلك بارتباك؛ ليبدأ من جديد.

وفى يوم من الأيام؛ تذكر أبو الحناء أنه عندما تعلم هو نفسه الطيران، على يد والديه؛ فقد فعل هو ذلك أيضًا. وقد قام برحلات قصيرة لياردات قليلة وبعد ذلك ألزم على الراحة. لذلك فقد حدث له أن هذا الصبى كان يتعلم الطيران – أو بالأحرى المشى. وقد ذكر هذا لوليفته، وعندما أخبرها أن الصغار ربما يوجهون أنفسهم فى الطريق نفسه بعد أن ينبت ريشهم ، كانت مستريحة تمامًا وأصبحت مستمتعة وانتابتها سعادة غامرة من مشاهدة الصبى على حافة العش– رغم أنها دائمًا ما اعتقدت أن الصغار قد يكونون أكثر مهارة وأكثر سرعة فى التعلم. ولكنها قالت بعد ذلك بتسامح إن البشر

دائمًا ما كانوا أكثر سماجة وبطئًا من صغار الطيور ومعظمهم لم يبد مطلقًا أنه يتعلم الطيران على الإطلاق. أنت لم تقابلهم أبدًا فى الهواء أو على أعالى الأشجار.

وبعد فترة بدأ الصبى يتجول مثلما فعل الآخرون ولكن كل من الأطفال الثلاثة فعلوا ما هو غير عادى. كان يمكنهم أن يقفوا تحت الأشجار ويحركوا أذرعهم وأرجلهم ورؤوسهم بطريقة لم تكن مشيًا أو جريًا أو جلوسًا. وقد جربوا هذه الحركات فى فترات كل يوم ولم يكن أبو الحناء قادرًا مطلقًا على أن يشرح لوليفته ما كانوا يفعلونه أو يحاولون فعله. أمكنه فقط أن يقول إنه كان متأكدًا من أن الصغار لا يمكن مطلقًا أن يخفقوا بهذه الطريقة ولكن حيث يمكن للصبى أن يتحدث لغة أبى الحناء بهذه الطلاقة كان يفعل هذا معهم فإن الطيور يمكن أن تكون متأكدة تمامًا من أن التصرفات لم تكن خطيرة بطبيعتها. وبالطبع فإن أبا الحناء ووليفته لم يسمعا مطلقًا عن مصارع الأبطال، بوب هاورث، كما أن تمارينه لتقوية العضلات تظهر مثل الأورام. وطيور أبى الحناء ليست مثل البشر فعضلاتها دائمًا ما تمارس من البداية ولذلك فإنها تطور نفسها بطريقة طبيعية. وإذا كنت بحاجة إلى الطيران والعثور على كل وجبة تأكلها؛ فإن العضلات لا تضمر (الضامرة تعنى المستهلكة من خلال الحاجة إلى الاستخدام).

وعندما كان الصبى يمشى ويجرى ويحفر ويزيل الأعشاب مثل الآخرين فإن العش – فى الركن– كان يحتضنهم بسلامة وارتياح بالغ.

وقد أصبحت المخاوف من البيض أشياء من الماضى. وبمعرفة أن البيض كان آمنًا كما لو أنه وضع فى قَبْوٍ وحقيقة أنك يمكن أن تشاهد الكثير من الأشياء المثيرة للفضول تحدث جعلت المكان هو العمل الأكثر ترفيها. وفى أيام المطر شعرت أم البيض فى بعض الأحيان بقليل من التبلد لأن الأطفال لم يصلوا إلى الحديقة.

ولكن حتى فى أيام المطر لم يمكن القول بأن كلاً من مارى وكولن كانا متبلدين. وذات صباح عندما كانت الأمطار تتدفق دون توقف وكان كولن ينتابه شعور بقليل من الضجر؛ حيث كان مجبرًا على البقاء على أريكته، لأنه لم يكن فى مأمن للاستيقاظ والمشى، توصلت مارى إلى الإلهام.

وقال كولن: "الآن أصبحت صبيًا حقيقيًا وأرجلى وأذرعى وكل جسمى ملىء بالسحر حتى إننى لا يمكن أن أتحمل ثباتهما. إنهم يريدون عمل كل الأشياء فى وقت واحد. هل تعلمين مارى أنه عندما استيقظت فى الصباح، عندما كان الوقت مبكرًا والطيور تصيح بالخارج، وكل شىء يبدو مجرد صياح من أجل السعادة- حتى الأشجار والأشياء التى لا يمكننا أن نسمعها حقًا- أشعر كما لو أننى يجب أن أقفز من السرير وأصرخ بنفسى، وإذا فعلت، فتخيلى ما يمكن أن يحدث!".

قهقهت مارى بشكل مغالٍ فيه.

"يمكن أن تأتى الممرضة مسرعة ويمكن أن تأتى ميدلوك مسرعة ويمكن أن يكونوا متأكدين من أنك أصبحت مجنونًا ويمكن أن يطلبوا الطبيب" قالت ذلك:

ابتسم كولن نفسه، وأمكنه أن يرى كيف يمكن أن يظهروا جميعًا- كيف كانوا مرعوبين من هذا الضحك، وكيف كانوا مذهولين من رؤيته يقف مستقيمًا.

قال أتمنى أن يأتى والدى إلى المنزل، وأريد أن أقول له بنفسى ذلك، وسوف أفكر فى هذا دائمًا ولكن لا يمكننا أن نسير، فى هذا الاتجاه طويلاً فلا يمكننى أن أتحمل الاستمرار فى الكذب، والإدعاء، وبجانب ذلك فأنا أبدو مختلفًا إلى حد ما وأتمنى لو أنها لم تكن تمطر اليوم.

وبعد ذلك جاء الإلهام إلىَ السيدة ماري

كولن: بدأت بشكل غامض تسأل: "هل تعرف عدد الغرف الموجودة فى هذا المنزل؟".

أجاب: "أتصور أنه يتكون من ألف غرفة".

قالت مارى: "هناك حوالى مئة غرفة لا يذهب إليها أى شخص".

وذات يوم مطير ذهبت ونظرت إلى الكثير منها ولم يعرف أحد رغم أن السيدة ميدلوك وجدتنى تقريبًا فقد ضللت طريقى فى أثناء عودتى وتوقفت فى نهاية غرفتكم. وقد كانت هذه هى المرة الثانية التى أسمعك فيها تصرخ.

بدأ كولن ينهض من على الأريكة،

قال: "مئة غرفة لا يذهب إليها أحد إن هذا يبدو تقريبًا كحديقة سرية. نفترض أننا ذهبنا ونظرنا إليها يمكنك أن تنقلينى على كرسى ولا يعرف أحد أين ذهبنا".

قالت مارى: "هذا ما كنت أتصوره فلا أحد يمكن أن يجرؤ على تتبعنا وهناك معارض يمكنك أن تديرها ويمكننا أن نقوم بممارسة التمارين، وهناك غرفة هندية صغيرة بها كابينة مليئة بأفيال العاج وهناك جميع أنواع الغرف".

قال كولن: "دقى الجرس".

عندما دخلت الممرضة أعطاها أوامره.

قال: "أريد كرسيًا فسوف أذهب أنا والسيدة مارى لننظر إلى الجزء غير المستخدم من المنزل. يمكن أن يدفعنى جون بعيدًا عند معرض الصور لأن هناك بعض السلالم وبعد ذلك يجب عليه أن يذهب بعيدًا ويتركنا وحدنا حتى أطلبه مرة أخرى".

أدت الأيام المطيرة إلى فقدانهم المخاوف هذا الصباح. وعندما قام الخادم بدفع الكرسى إلى معرض الصور وترك الاثنين معًا طاعة للأوامر، نظر كل من كولن ومارى إلى بعضهما مبتسمين وبمجرد أن تأكدت مارى من أن جون كان بالفعل قد عاد إلى ركنه الخاص تحت السلالم خرج كولن من كرسيه.

قال: "سوف أجرى من أحد أطراف المعرض إلى الطرف الآخر وبعد ذلك سوف أقفز وبعد ذلك سوف نقوم بممارسة تمارين هاورث لقفز الحبل".

فعلوا ذلك كله والكثير من الأشياء الأخرى ونظروا إلى الصور ووجدوا الفتاة الصغيرة الجميلة ترتدى زيًا مطرزًا وتمسك ببيغاء بإصبع يدها.

قال كولن: "لابد أن كل هؤلاء أقاربى وقد عاشوا منذ فترة طويلة، وأعتقد أن هذا الببغاء كما أتصور كان ملكًا لإحدى عماتى من جيل قديم جدًا . تبدو مثلك إلى حد ما يا ماري- ليس كما تظهرين الآن وإنما كما ظهرتِ عندما جئت إلى هنا. والآن فقد أصبحت أكثر بدانة وأفضل شكلاً".

قالت مارى: "وأنت كذلك" وضحكا معًا.

ذهبا إلى الغرفة الهندية واستمتعا بأفيال العاج ووجدًا قماشًا مطرزًا باللون الوردى وفتحة فى الوسادة تركها الفأر ولكن الفئران نمت وتركت الفتحة فارغة. شاهدا الكثير من الغرف وحققا اكتشافات أكثر مما حققته مارى فى طوافها الأول وقد وجدًا طرقات وأركان جديدة وأماكن خطوات وصور قديمة جديدة أحباها وأشياء قديمة غريبة لم يعرفا استخدامها. وقد كان صباحًا ممتعًا بشكل فضولى كما أن شعور التجول فى المنزل ومعهم الآخرين ولكن فى الوقت نفسه شعور بأنه كما لو كانا على بعد أميال منهم وكان هذا الشعور شيئًا مبهرًا.

قال كولن: "سعيد بأن جئنا فأنا لم أعرف مطلقًا أننى عشت فى هذا المكان القديم الكبير العجيب وقد أحببته وسوف نتجول فيه كل يوم مطير وسوف نجد الأركان والأشياء المريبة والعجيبة".

فى هذا الصباح وجدًا من بين الأشياء الأخرى أذواقًا جيدة كتلك التى وجداها عندما عادا إلى غرفة كولن فلم يكن من الممكن إرسال الغذاء بعيدًا دون اللمس.

وعندما نقلت الممرضة الصينية لأسفل قامت برميها على دولاب أطباق المطبخ بحيث يمكن للسيدة لوميس الطاهية أن ترى الأطباق والأوانى وقد أكلا كل ما بها فظهرت عالية النظافة.

قالت: "انظرى إلى هذا إن هذا منزل الغموض، وهذان الطفلان هما أعظم نواحى الغموض فيه".

قال الخادم الصغير القوى جون : "إذا استمرا فى هذا كل يوم فلا عجب من أنه يزن اليوم ضعف وزنه منذ شهر مضى، وعلىَّ أن أتنازل عن مكانى يومًا ما خشية من أن يسبب إصابة لعضلاتي".

فى هذه الظهيرة لاحظت مارى أن شيئًا جديدًا قد حدث فى غرفة كولن ولاحظته فى اليوم السابق ولكن لم تقل شيئًا لأنها اعتقدت أن التغير ربما حدث مصادفة ولم تقل شيئًا اليوم ولكنها جلست ونظرت نظرة ثابتة إلى الصورة على الرف، كما أنه أمكنها أن تنظر إليها لأن الستارة سحبت جانبًا وكان هذا هو التغير الذى لاحظته.

قال كولن بعد أن ظلت محدقة لدقائق قليلة: "أعلم ما تريدين أن أقوله لك، فأنا دائمًا ما أعرف متى تريدين منى أن أقول لك شيئًا ما. تتساءلين لماذا تسحب الستارة للخلف، سوف أجعلها تبقى هكذا".

سألت مارى: "لماذا؟".

"لأنه لم يعد بعد يجعلنى غاضبًا أنا أراها تضحك، فقد استيقظت عندما كان ضوء القمر ساطعًا منذ ليلتين، وشعرت بأنه كما لو أن السحر كان يملأ الغرفة ويجعل الجميع مبهورًا بأننى لا يمكن أن أبقى ثابتًا، وقد استيقظت

ونظرت من خارج النافذة، وكانت النافذة مضيئة تمامًا، وكان هناك رقعة من ضوء القمر على الستارة وبطريقة ما فقد جعلنى هذا أذهب وأسحب الحبل. وقد نظرت لأسفل إلىَّ كما لو أنها كانت تضحك لأنها كانت سعيدة لوقوفى هناك وهذا جعلنى أود النظر إليها، وقد أردت أن أراها تضحك هكذا طوال الوقت، وأعتقد أنها ربما كانت نوعًا من الشخص الثأري".

قالت مارى: "أنت الآن مثلها الآن. أعتقد أنك ربما شبحها الذى صار صبيًا".

كانت تبدو هذه الفكرة مبهرة لكولن فقد فكر فيها. وبعد ذلك أجاب عليها ببطء.

"إذا كنت شبحها- فسوف يكون أبى معجبًا بي".

تساءلت مارى: "هل تريد أن يكون والدك معجبًا بك؟".

"تعودت أن أكره هذا لأنه لم يكن معجبًا بى، وإذا أصبح معجبًا بى فأتصور أننى يجب أن أكلمه عن السحر، وهذا يمكن أن يجعله أكثر ابتهاجًا".

الفصل السادس والعشرون

"إنها الأم"

كان إيمانهم بالسحر شيئًا واضحًا فبعد تعويذات(*) الصباح قدم لهم كولن محاضرات فى السحر.

شرح قائلاً : "أحب أن أفعل هذا لأنه عندما أكبر وأحقق اكتشافات علمية عظيمة سأكون ملزمًا بتقديم محاضرات عنها ولذلك فإن هذا تدريب. يمكننى فقط أن أقدم محاضرات قصيرة الآن لأننى صغير جدًا وبجانب ذلك يمكن أن يشعر بن وذرستاف كما لو أنه فى كنيسة ويمكن أن ينام" .

قال بن: "أفضل شىء عن تقديم المحاضرات هو أنه يمكن أن يأتى فتى ويسأل إن كان أسعدنا ولا يجيب عليه أحد. ولن أقدم بنفسى ولو محاضرة ضئيلة فى وقت ما" .

(*) Incantations : كلمات ومقطوعات منطوقة أو منشودة فى طقوس السحر.

ولكن عندما جلس كولن تحت شجرته ظل بن العجوز يلقى بنظراته الثاقبة إليه بتأثر متفحص. ولم تكن المحاضرة هى ما شغله بقدر ما شغلته الأرجل التى كانت تبدو أكثر استقامة وأقوى كل يوم والرأس الصبى الذى استوى بشكل جيد، والذقن والخدين اللذين كانا حادين ونحيفين فى يوم من الأيام وقد أصبحا مكورين وممتلئين، والعينان اللتان بدأتا تحويان الضوء ، فتذكر عينين أخريين. فى بعض الأحيان عندما كان يشعر كولن بنظرة بن الفاحصة والتى كانت تعنى أنَ بِن أكثر انبهارًا، كان يتساءل عما كان ينظر إليه، ذات مرة عندما كان يبدو مبهورًا سأله:

"فيم تفكر يا بن وذرستاف؟" .

أجاب بِن: "كنت أفكر لو أنى اكتسبت ثلاثة أو أربعة جنيهات هذا الأسبوع، وكنت أنظر إلى السيقان وإلى الأكتاف ووددت أن أضعك على ميزان" .

قال كولن: "إنه السحر وفطائر السيدة سوربى وألبانها وأشياؤها التى تجعلك ترى أن التجربة العلمية قد نجحت" .

فى هذا الصباح تأخر ديكون فلم يحضر المحاضرة. عندما جاء كان متوردًا من الجرى ووجهه الضحوك كان يبدو أكثر تألقًا من المعتاد. حيث كان لديهم قدر كبير من أعمال إزالة الأعشاب بعد سقوط الأمطار. ودائمًا ما كان لديهم قدر من العمل الذى يقومون به بعد الأمطار الغزيرة الدافئة. والرطوبة التى كانت جيدة للأزهار كانت جيدة أيضًا للأعشاب التى تدافعت على أوراق العشب الصغيرة ونقاط الأوراق التى كان يجب أن تنزع قبل أن

تنشر جذورها. وكان كولن يجيد إزالة الأعشاب مثل أى شخص فى هذه الأيام وأمكنه أن يعطى محاضرة فى أثناء عمله.

قال هذا الصباح: "يعمل السحر بشكل أفضل عندما تعمل بنفسك، ويمكنك أن تشعر بهذا فى عظامك وعضلاتك. سوف أقرأ كتبًا عن العظام والعضلات وسوف أكتب كتابًا عن السحر فقد عقدت العزم على ذلك الآن. إننى دائم اكتشاف الأشياء".

لم تمضِ فترةٍ طويلة بعد قوله هذا عندما وضع رافعة النبات على الأرض ووقف على قدميه وكان صامتا لعدة دقائق، ورأوا أنه كان يفكر فى المحاضرات كما فعل غالبًا، وعندما ألقى برافعة النبات ووقف مستقيمًا كان يبدو لمارى وديكون كما لو أن هناك فكرة قوية مفاجئة جعلته يفعل ذلك وقد شد نفسه من أطول ارتفاع وألقى بذراعيه مبتهجًا ومهللاً وتوهج اللون فى وجهه واتسعت عيناه الغريبتان بالسعادة، وفى مرة واحدة أدرك شيئًا ما بأكمله.

صرخ قائلاً: "ماري! ديكون ! انظرا إلىَّ !".

توقفا عن إزالة الأعشاب ونظرا إليه،

سأل: "هل تتذكران أول صباح جئتما بى فيه إلى هنا؟".

كان ديكون ينظر إليه نظرة متصلبة وحيث كان مغرمًا بالحيوانات فإنه أمكنه أن يرى أشياء أكثر مما يمكن لمعظم الأشخاص أن يروها، وكان الكثير منها أشياء لم يتحدث عنها مطلقًا فقد رأى بعضها الآن فى هذا الصبى.

أجاب: "هذا ما نفعله".

نظرت ماري متصلبة ولكنها لم تقل شيئًا،

قال كولن: "هذه اللحظة فقط كل ما تذكرته هذه اللحظة بنفسي- عندما نظرت إلى يدي تحفر برافعة العشب وكان عليَّ أن أقف على أحد قدمي لأرى ما إذا كان هذا حقيقيًّا أم لا. وإنه حقيقي! أنا بخير- أنا بخير!".

قال ديكون: "حسنًا هذا فن".

قال كولن مرة أخرى: "أنا بخير! أنا بخير! وأحمر وجهه تمامًا مرة أخرى".

عرف هذا من قبل بطريقة ما وفتحه وشعر به وفكر فيه ولكن في هذه اللحظة جاء شيء بخاطره- نوع من الاعتقاد الراسخ والإدراك وكان قويًّا حتى إنه لم يمكنه الخروج منها.

صرخ صرخة عالية: "سأعيش للأبد ولأبد الآبدين! سأكتشف آلاف وآلاف الأشياء سأكتشف الأشخاص والمخلوقات وكل شيء ينمو مثل ديكون ولن أتوقف مطلقًا عن عمل السحر. أنا بخير! أنا بخير! أشعر- أشعر كما لو أنني أذهب لأصرخ بشيء ما- شيء من الشكر ومن السعادة!".

نظر حوله بن وذرستاف والذي كان يعمل بالقرب من براعم القرود.

اقترح بصوت مرتفع وجاف: "هذا يمكن أن يرتل تسابيح الشكر(*)" ولم يكن له رأى فى تسابيح الشكر، ولم يقدم اقتراحًا بأى توقير أو تقدير خاص.

ولكن كولن كان يتمتع بعقل مستكشف، ولم يعرف شيئًا عن تسابيح الشكر.

تساءل: "ما هذا؟".

رد بن وذرستاف: "يمكن أن يرتلها ديكون لك وسوف أضمن ذلك".

أجاب ديكون بابتسامته التى تمثل ابتسامة ساحر الحيوانات.

قال: "إنهم يرتلونها فى الكنيسة، الأم تقول إنها تؤمن بأن الكروان يغنيها عندما يستيقظ فى الصباح".

أجاب كولن: "إذا كانت تقول هذا فإنها لابد أن تكون أغنية لطيفة".

"لم أذهب مطلقًا إلى الكنيسة بنفسى، فدائمًا ما كنت مريضًا إلى حد ما. رتلها يا ديكون أريد أن أسمعها".

كان ديكون بسيطًا تمامًا وغير متأثر بها، وقد فهم ما شعر به كولن أفضل من كولن نفسه، وفهم بنوع من الغريزة الطبيعية حتى إنه كان يفهم وسحب غطاء الرأس ونظر حوله مبتسمًا.

(*) Doxology : ترتيل مسيحى قصير لشكر الرب: كأب وابن وروح قدس.

قال لكولن: "هذا يجب أن يخلع غطاء الرأس، وهكذا يتذكر يا بن ويجب أن يقف وهو يعرف".

قام كولن بخلع غطاء الرأس، وسطعت الشمس عليه، ودفأت شعره السميك عندما كان يراقب ديكون عن قصد. وتدافع بن وذرستاف من ركبتيه وقام بتعرية شعره أيضًا بنوع من النظرة المحيرة شبه الاستنكارية على وجهه القديم كما لو أنه لم يعرف بالتحديد لماذا كان يقوم بهذا الشيء الملحوظ.

وقف ديكون بين الأشجار وبراعم الورود، وبدأ يرتل بطريقة واقعية بسيطة تمامًا وبصوت صبى لطيف ونقى:

"حمدًا للرب الذى به تتم الصالحات".

"حمدًا له على جميع مخلوقاته".

"حمدًا له فوق العائل السماوي".

"حمدًا للأب والابن والروح القدس".

آمين.

وعندما انتهى كان بن وذرستاف يقف ساكنًا وفكاه ثابتان ولكن بنظرة منزعجة فى عينيه تنصب على كولن وكان وجه كولن مفكرًا ومقدرًا.

"إنها أغنية لطيفة للغاية، وأنا أحبها، فهى ربما تعنى ما أقصده بالتحديد عندما أريد أن أصرخ وأقول إننى شاكر للسحر"، توقف وفكر

بطريقة محيرة: "ربما يكون كلّ منها نفس الشيء"، فكيف يمكننا أن نعرف الأسماء المحددة لكل شيء؟ رتلها مرة أخرى يا ديكون هيا نحاول يا مارى أريد أن أرتلها أيضًا إنها أغنيتى. كيف تبدأ؟ حمدًا للرب الذى به تتم الصالحات؟".

ورتلوها مرة أخرى، ورفع كل من مارى وكولن صوتهما بشكل موسيقى بقدر ما استطاعا وارتفع صوت ديكون عاليًا وجميلاً وفى السطر الثانى بين بن وذرستاف حنجرته مرتفعة وفى السطر الثالث انضم بهذا التضخم الذى كان يبدو همجيًا تقريبًا، وعندما جاءت "آمين"إلى النهاية لاحظت مارى أن نفس الشىء قد حدث له وهو ما حدث عندما اكتشف أن كلاً لم تكن عائقًا فذقنه كان ينتزع، وعندما كان يحملق ويومض بعينيه كانت خدوده العجوزة رطبة. قالت بصوت أجش:"أنا لم أشهد مطلقًا أى إحساس بتسابيح الشكر هذه من قبل ولكن يمكننى أن أغير رأيى فى وقت ما، يجب أن أقول إن هذا ارتفع خمسة أرطال هذا الأسبوع، سيد كولن– خمسة هذا الأسبوع!".

كان كولن ينظر عبر الحديقة إلى شىء يجذب انتباهه كما أن تعبيره أصبح متوقدًا مرة أخرى.

قال سريعًا: "من القادم هنا؟"من هو؟.

دفع الباب فى حائط اللبلاب وكان مفتوحًا بلطف ودخلت سيدة وجاءت بالسطر الأخير من أغنيته التى كانوا يستمعون إليها وينظرون

إليها. وكان خلفها اللبلاب وضوء الشمس يطل عبر الأشجار ويسقط على عباءتها الزرقاء الطويلة ووجها اللطيف الناضج يبتسم فى وسط الخضرة فقد كانت تصويرًا ملونًا ناعمًا إلى حد ما فى أحد كتب كولن، وقد كان لها عينان حائرتان كان يبدو أنهما يأخذان كل شىء هما جميعًا، وبن وذرستاف نفسه "مخلوقات" وكل وردة كانت تزهر. وكما كانت تبدو بشكل غير متوقع فلم يشعر أىٌّ منهم بأنها كانت متطفلة على الإطلاق فقد أضاءت أعين ديكون مثل المصابيح.

صرخ وذهب عبر العشب جريًا "إنها الأم– إنها هي!".

بدأ كولن يتحرك نحوها أيضًا وذهبت معه مارى وشعر كلّ منهما بأن النبضات تدق بسرعة أكبر.

قال ديكون مرة أخرى عندما التقوا فى منتصف الطريق: "إنها الأم! أعرف أنها أرادت أن تراها وقلت لها أين كان يختفى الباب".

أمسك كولن بيده بنوع من الخجل الملكى ولكن عينيه التهمت وجهها تمامًا.

قال: "حتى عندما كنت مريضًا أردت أن أراك أنت وديكون والحديقة السرية ولم أرغب مطلقًا فى رؤية أى شخص وأى شىء قبل ذلك".

أحدثت رؤية الوجه المرفوع تغيرًا مفاجئًا فيها، فقد ابتهجت كما أن أركان فمها ارتعدت وكان يبدو أن الضباب ينتشر حول عينيه.

اندفعت قائلة: "أيها الغلام العزيز! أيها الغلام العزيز".

كما لو أنها لم تعرف أنها كانت ستقولها. لم تقل "سيد كولن" وإنما فقط "أيها الغلام العزيز" فجأة وربما قالتها لديكون بنفس الطريقة لو أنها رأت شيئًا فى وجهه يلمسها. وقد أحبها كولن.

تساءل: "هل أنت مندهشة لأننى بخير!".

وضعت يدها على كتفه وابتسمت والضباب يخرج من عينيها.

قالت: "نعم أنا ولكن هذا هو الأمر لأن أمك هى من جعلت قلبى يقفز".

قال كولن بقليل من الجبن: "هل تعتقدين أن هذا سيجعل والدى يحبنى؟".

أجابت وربت على كتفه قائلة: "بالطبع أيها الغلام العزيز فإنه سيعود- إنه سيعود".

قال بن وذرستاف وهو يقترب من سوزان سوربى: "سوزان سوربى انظرى إلى أرجل الغلام أليس هذا؟ كانت مثل نقارة الطهور التى تدق منذ شهرين وسمعت الناس تقول إنها كانت تمس كلاً منهما فى وقت واحد انظر إليهما الآن!".

ضحكت سوزان سوربى ضحكة مريحة.

"سوف تكون رجلا الغلام القوى الناعمة قليلة ولنتركه يذهب ويستمر فى اللعب والعمل فى الحديقة ويأكل ويشرب الكثير من اللبن الحلو الطيب ولن يكون هناك إصبعان فى يروكشاير، نشكر الرب على هذا".

دفعت كلتا اليدين على أكتاف السيدة مارى ونظرت إلى وجهها الصغير بطريقة الأمومة.

قالت: "وأنت أيضًا يظهر نموك بشكل ملحوظ مثل ليزبيس ألين وسوف أضمن أن هذه ستكون مثل أمك أيضًا فقد قالت لنا مارثا عندما سمعت السيدة ميدلوك إنها كانت امرأة جميلة وسوف تكونين مثل الوردة المتفتحة عندما تنمو أنتِ يا معشوقتى الصغيرة أباركك".

لم تذكر أنه عندما جاءت مارثا إلى المنزل فى هذا اليوم ووصفت الطفل الشاحب أنها قالت إنه لم يكن لديها أية ثقة من أى نوع فيما سمعته السيدة ميدلوك وأضافت بعناد: "لا يمكن أن أتصور أن سيدة جميلة يمكن أن تكون أمًا لهذه الصغيرة الغبية".

لم يكن لدى مارى وقت لتوجه الكثير من الاهتمام إلى وجهها المتغير فقد عرفت فقط أنها كانت تبدو "مختلفة" وكان يبدو أن لديها الكثير من الشعر، وأنها كانت تنمو سريعًا ولكن بتذكر سعادتها فى النظر إلى مدام سهيب فى الماضى فقد كانت سعيدة بأن تسمع أنها يمكن أن تبدو فى يوم من الأيام مثلها.

تجولت سوزان سوربى حول الحديقة معهم وحكوا لها قصة الحديقة الكاملة وأروها كل برعم وكل شجرة دبت فيها الحياة. سار كولن إلى جانبها ومارى على الجانب الآخر وظل كلٌ منهما ينظر إلى وجهها الوردى المريح محتفظين سرًا بالمشاعر المبهجة التى منحتها لهما- نوع من الشعور الدافئ المعزن. وكان يبدو كما لو أنها فهمتهم حيث إن ديكون فهم "مخلوقاته". وقد انحنت على الورود وتحدثت عنه كما لو أن الورود أطفال. كان سوت يتبعها مرة أو مرتين نعب إليها ثم حط على كتفها كما لو أنه كان كتف ديكون. وعندما حكوا لها عن أبى الحناء والرحلة الأولى لطيوره الصغيرة ضحكت ضحكة بها نوع من الأمومة.

قالت: "أظن أن تعليمهم الطيران مثل تعليم الأطفال المشى ولكننى أخشى ولا أدارى قلقى لو أن أولادى كان لديهم أجنحة بدلاً من الأرجل".

كان هذا لأنها كانت تبدو امرأة رائعة بطريقتها الخاصة حتى إنه فى النهاية حكى لها عن السحر.

سألها كولن بعد أن شرح فكرة الناسك الهندى: "هل تؤمنين بالسحر؟ آمل أن تكونى مؤمنة به".

أجابت: "أؤمن به أيها الغلام ، لم أكن أعرفه مطلقًا بهذا الاسم، ولكن ما الذى يعنيه الاسم؟.

أثق أنهم يعطونه اسمًا مختلفًا فى الفرنسية واسمًا مختلفًا فى الألمانية. نفس الشىء فى مثل إنبات البذور وسطوع الشمس وقد جعلك

غلامًا جيدًا، وهذا هو الشيء الطيب. إن هذا ليس كما نعتقد نحن الفقراء الحمقى إن دعينا بأسماء غير أسمائنا. فالشيء الطيب الكبير لا يتوقف عن أن يوجد ويباركك. إنه يستمر فى صنع عوالم بالملايين– عوالم مثلنا. لا تتوقف عن الإيمان بالشيء الجيد الكبير ومعرفة العالم المليء به، وسمّه كما تحب. كنتَ تغنى له عندما جئت إلى الحديقة.

قال كولن وقد فتح عينيه الغريبتين الجميلتين : "أشعر أننى فى غاية السعادة، وفجأة أشعر كيف كنت مختلفًا، وكيف كانت ذراعاى ورجلاى قوية كما تعلمين، وكيف يمكننى أن أحفر وأقفز وقد قفزت وأردت أن أصرخ لأى شيء يمكن أن يستمع".

"كان السحر يستمع عندما قمت بترتيل تسابيح الشكر. وكان من الممكن له أن يستمع إلى أى شيء تغنيه. وقد كانت السعادة هى ما يهم. حسنًا أيها الغلام– أيًا كانت المسميات التى تعطيها لصانع السعادة".

وَرَبت على كتفه مرة أخرى.

كانت قد قامت بتعبئة سلة وكأنها خرجت فى عيد اعتيادى هذا الصباح. وعندما دقت ساعة الجوع، وجاء ديكون بالسلة من مكان اختبائها جلست معهم تحت شجرتهم وراقبتهم وهم يلتهمون طعامهم ويضحكون ويستمتعون بمذاق الطعام. كما كانت مفعمة بالمرح وجعلتهم يضحكون على كل أنواع الأشياء الغريبة. حكت لهم قصصًا من تراث يوركشاير وعلمتهم كلمات جديدة. وضحكت وكأنها لم تتمالك نفسها عندما حكوا لها عن تزايد الصعوبة فى التظاهر بأن كولن كان لا يزال مريضًا.

شرح كولن: "ترين أننا لا نتمالك أنفسنا من الضحك طوال الوقت عندما نكون معًا ولا يبدو هناك شيء من المرض على الإطلاق. فنحن نحاول أن نصنع صدمة بهذا الخبر، ولكن الأمر سوف ينفجر، وهذا يبدو أسوأ مما كان من قبل".

قالت ماري: "هناك شيء واحد يراودني مرارًا، ونادرًا ما يُمكنني أن أستمر عندما تواتيني هذه الفكرة فجأة. فأنا لا أزال أفكر لو أصبح وجه كولن مثل البدر، لم يصل شكله إلى ذلك بعد، ولكنه يصبح أفضل كل يوم– وأفترض أنه إذا أصبح ذات صباح بهذا الشكل – ما الذي يجب أن نفعله؟ ".

قالت سوزان سوربي: "يباركنا الرب جميعًا، أرى أن هذا جزءًا من مسرحية تمثلونها، ولكن هذا لا يجب أن يستمر لفترة أطول من ذلك فسوف يأتي السيد كرافن إلى المنزل ".

سأل كولن: "هل تعتقدين أنه سيأتي؟ ولماذا".

ابتسمت سوزان سوربي بصوت خافت.

"أفترض أنه سيتأثر قلبه لو أنه اكتشف قبل أن تعرفه بطريقتك الخاصة فقد سهرت الليالي تخطط له".

قال كولن: "لا أتحمل أن يحكي له شخص آخر، وأفكر في طرق مختلفة كل يوم وأريد الآن فقط أن أجري إلى غرفته".

قالت سوزان سوربى: "هذه قد تكون بداية جيدة له وأود أن أرى وجهه أيها الغلام أحب هذا! وسوف يعود فأنا أريده".

أحد الأشياء التى تحدثوا عنها كانت الزيارة التى سيقومون بها إلى كوخها وقد رتبوا للزيارة كلها. وكانوا سينتقلون إلى هناك ويتناولون الغذاء فى الخارج بين الخضرة. وكانوا ليروا كل الأطفال الاثنى عشر وحديقة ديكون وما كانوا ليعودوا إلا بعد أن يشعروا بالتعب.

نهضت سوزان سوربى فى النهاية لتعود إلى المنزل وإلى السيدة ميدلوك، وقد حان الوقت لكى يعود كولن أيضًا على كرسيه المتحرك. ولكن قبل أن يذهب إلى كرسيه وقف بالقرب من سوزان وثبت عينيه عليها بنوع من الافتتان المحيِّر. وفجأة أمسك بطية من عباءتها الزرقاء وتشبث بها بسرعة.

قال: "أنت بالتحديد ما أريد فأنا أتمنى أن تكونين أمي– كما أنت أم ديكون!".

فانحنت سوزان سوربى وجذبته بذراعيها الدافئين إلى صدرها تحت العباءة الزرقاء – كما لو أنه كان أخًا لديكون. وانهمرت الدموع سريعًا من عينيها.

قالت: "عزيزى الغلام، روح أمك تحوم فى هذه الحديقة. لا تستطيع أن تغادرها وأبوك سوف يعود إليك – وإلى أمك!".

الفصل السابع والعشرون

فى الحديقة

في كل قرن منذ بدء الخليقة كانت تُكتشف أشياء جديدة. ولكن القرن العشرين شهد اكتشافات مذهلة أكثر من أى قرن مضى. بل إن هذا القرن الجديد سيُظهر للنور مئات العجائب. فى البداية يذهب الناس إلى تكذيب فكرة حدوث شيء جديد غريب، ثم يتمنون إمكانية حدوثه، ثم يرون بأنفسهم إمكانية حدوثه، ثم يحدث هذا الشيء، ويتساءل الناس لماذا لم يحدث قبل ذلك بقرون! ومن الأشياء الجديدة التى بدأ الناس فى اكتشافها فى القرن العشرين هو أن الأفكار– مجرد الأفكار– يمكن أن تكون قوية كالبطاريات الكهربية، أو مفيدة كضوء الشمس، أو ضارة كالسم. وإن السماح لفكرة حزينة أو سيئة بدخول عقلك لهو بنفس خطورة السماح لجرثومة الحصبة أن تسكن جسدك، فإنك إن تركتها تسكن داخلك فلربما لا تستطيع أن تشفى منها نهائيًا.

وعندما كان عقل السيدة مارى ممتليئًا بالأفكار البغيضة عن الأشياء التى تكرهها والآراء السلبية عن الناس بجانب إصرارها على عدم السماح لأى شىء بإسعادها أو إثارة اهتمامها، فقد أصبحت طفلة بائسة، ضيقة الخلق، ذات وجه أصفر شاحب. وكانت الظروف فى صالحها كثيرًا، وكانت تدفعها لتسلك طريق الخير لنفسها، غير أنها لم تعى ذلك. ولكن عندما امتلأ عقلها تدريجيًا بالتفكير فى طيور أبى الحناء وأكواخ المستنقعات التى قد امتلأت بالأطفال، وعمال البساتين كبار السن معكرى المزاج، والخادمات الصغيرات فى منازل يوركشاير، بالإضافة إلى وقت الربيع الذى تزدهر فيه حدائق سرية يومًا بعد يوم، وولد ممن يعيشون فى هذه المستنقعات و"المخلوقات" التى معه، زال أى فراغ كان متاحًا للأفكار السلبية التى أثرت فى كبدها وهضمها للطعام، وغيرت من كونها شاحبة اللون متعبة البدن.

على حين حبس كولن نفسه فى غرفته ولم يفكر إلا فى مخاوفه وضعفه وبغضه للناس الذين كانوا ينظرون إليه، وامتلأ خاطره كل ساعة بالأشخاص ذوى الظهر الأحدب وشبح الموت المبكر، مما جعله يتحول إلى شخص هستيرى موسوس بالمرض إلى حد الجنون؛ إنه لم يكن يعرف شيئًا عن ضوء الشمس والربيع، ولم يدر بخلده أيضًا أنه بإمكانه أن يتعافى وأن يقف على قدميه إذا حاول ذلك. ولكن عندما بدأت الأفكار الجديدة الجميلة فى إزاحة الأفكار القديمة المقيتة، بدأت الحياة تدب فيه من جديد، وعاد الدم يجرى فى عروقه، وجرت الصحة والقوة فيه كالسيل. كانت تجربته العلمية عملية فى الحقيقة، وكانت أيضًا بسيطة ولم يكن ثمة شىء غريب أو من قبيل الصدفة فيها على الإطلاق. فمن الممكن أن تحدث أشياء أكثر غرابة

من هذا بكثير لأى شخص تداهمه فكرة سيئة أو مثبطة ثم لا يلبث أن يتذكر فى الوقت المناسب فيستبدل بها أخرى جميلة لترفع من حماسه وشجاعته وإصراره، إذ لا يمكن الجمع بين الشىء ونقيضه فى مكان واحد. كما يقول الشاعر:

لا ينبت الشوك فى مكانٍ، صاحبى تزرع فيه الورد فى كل جانبِ

على حين كانت الحديقة السرية وطفلان معها يعودون للحياة من جديد، كان هناك رجل يهيم على وجهه فى بعض الأماكن الخلابة البعيدة فى المضايق النرويجية(*) وأودية سويسرا وجبالها؛ إلا أن هذا الرجل قد ملأ عقله بالأفكار المظلمة والحزينة طوال عشر سنوات كاملة. لم يكن شجاعًا، ولم يحاول أن يستبدل بهذه الأفكار السوداء أفكارًا أخرى. لقد مشى بجانب بحيرات زرقاء وتفكر فيها، لقد تمدد على سفوح الجبال وقد تدثرت بزهور الجنطيانا الزرقاء(**) والتى كانت تتفتح فى كل مكان حوله، وقد امتلأ الجو بأريج الورود ونسماتها، وتفكر فيها. ومع ذلك فقد وقع إحساس رهيب بالحزن على هذا الرجل عندما كان سعيدًا، بل وترك نفسه تمتلئ بالتشاؤم المظلم، ولم يسمح أبدًا لأى بصيص من النور أن ينفذ إليها. لقد نسى بيته وواجباته وهجرهما، وعندما كان يتجول هنا وهناك كانت تعلوه ظلمة التشاؤم إلى حد أن كانت مجرد رؤيته وبالاً على الآخرين؛ لأنه كان يسمم الجو حوله بالكآبة. كان لدى معظم الغرباء شك قوى أنه ربما

(*) منافذ ضيقة للبحر محوطة بمنحدرات عالية.

(**) نباتات معمرة ذات أزهار زرقاء مشرقة، تزدهر فى المناطق الشمالية المعتدلة وجبال الألب.

كان على حافة الجنون أو أنه كان يخفى جريمة نكراء كانت تلقى بظلالها على روحه. كان رجلاً طويلاً مسحوب الوجه منحنى الكتفين. وكان معروفًا فى سجلات الفنادق باسم: "أرتشيبالد كرافن، من ضيعة ميسلثويت، يوركشاير- إنجلترا".

كان قد سافر كثيرًا منذ أن رأى السيدة مارى فى حجرة مكتبه وقال لها إنه بإمكانه أن تحصل على "قطعتها من الأرض". كان قد رأى أجمل الأماكن فى أوروبا ولكنه لم يمكث فى أى مكان أكثر من بضعة أيام. كان يختار أبعد الأماكن و أكثرها هدوءًا فلقد تسلق الجبال الشاهقات التى تناطح قممها السحاب، وكان ينظر تحته إلى الجبال الأخرى والتى عندما كانت الشمس تشرق عليها وتمسها بضوئها كان يخيل إليه أن العالم كان يولد من جديد فى هذه اللحظة.

ولكن كان يبدو أن النور لم يمس روحه بتاتًا حتى كان ذات يوم أدرك فيه أنه ولأول مرة فى عشر سنوات حدث شىء غريب. كان فى وادٍ رائع فى منطقة تايرول السويسرية(*) حيث كان يتجول وحيدًا خلال هذا الجمال الفائق الذى كان كفيلاً أن ينتشل روح أى إنسان من الاكتئاب. إلا أن روحه كانت تأبى بالرغم من أنه كان قد قطع مسافة كبيرة وسط جمال الطبيعة الفتان. ولكن عندما أحس بالتعب أخيرًا ألقى بنفسه ليرتاح على قطعة من الطحالب الكثيفة التى بدت وكأنها سجادة بالقرب من جدول ماء صغير صافى الماء بدا وكأنه سعيد بجريانه وسط الحشائش الخضراء الرطبة الغنية. كان ينبعث من هذا النهير الصغير أحيانًا صوت يشبه الضحك الخفيف عندما

(*) المقاطعة الألبية غرب النمسا.

تخر مياهه فوق الصخور وحولها. رأى الطيور تأتى وتغمس رؤوسها فيه لتشرب منه، ثم تنفض أجنحتها وتطير بعيدًا. كان هذا الجدول يبدو وكأنه كائن حى إلا أن صوته الخفيض زاد من إحساسك بهدوء الوادى الذى كان غارقًا فى غياهب السكون.

على حين كان يحدق أرتشيبالد كرافن فى صفاء المياه الجارية أحس أن عقله وجسده كانا يهدآن تدريجيًّا كهدوء الوادى نفسه. تساءل إن كان ذلك يعنى أنه سيخلد للنوم ولكن لا. جلس وحملق فى المياه التى لمعت تحت بريق الشمس وبدأت عيناه تريان أشياء تنمو على حافتها، كانت هناك كتلة جميلة من أزهار "لاتنسني" الزرقاء التى نمت قريبًا جدًّا من غدير الماء حتى ابتلت أوراقها، وجد نفسه ينظر إلى تلك الأزهار وتذكر أنه نظر إلى مثل هذه الأشياء منذ سنين عديدة. كان فى الواقع يتأمل جمالها اللطيف وروعة اللون الأزرق الذى جمل مئات من هذه البراعم الصغيرة المتفتحة. لم يدر أن مجرد هذه الفكرة البسيطة كانت تملأ عقله ببطء، ولكن ملأته عن آخره حتى أزاحت كل الأشياء الأخرى بلطف كأن غديرًا عذبًا صافيًا قد نبع فى بركة راكدة، ثم أخذ ينبع وينبع حتى أزاح المياه السوداء بعيدًا. ولكن لم يكن يفكر فى هذا بالطبع، إنما أدرك أن الوادى بدا وكأنه يهدأ شيئًا فشيئًا عندما جلس وحملق فى الأزهار ذات اللون الأزرق البهيج الرقيق. لم يكن يعلم كم مكث هناك وما الذى كان يحدث له، ولكن تحرك أخيرًا كأنه يستيقظ ونهض ببطء ووقف فوق "سجادة الطحالب" وأخذ نفسًا طويلاً وعميقًا لكن رقيقًا وتعجب من نفسه. بدا وكأن شيئًا قد أطلق وتحرر من القيود ببطء شديد داخله.

"ما هو؟"تساءل فى همس ومرر يده على جبهته، "أشعر تقريبًا كأننى... على قيد الحياة!".

لا أعرف بما فيه الكفاية عن روعة الأشياء التى لم تكتشف بعد لكى أستطيع شرح كيف حدث ذلك له، ولا يستطيع أى أحد ذلك. لم يفهم نفسه على الإطلاق، ولكنه ظل يتذكر هذه الساعة العجيبة لشهور بعد ذلك عندما رجع إلى "ميسلثويت" واكتشف بمحض الصدفة أن فى نفس ذلك اليوم دخل كولن الحديقة الخفية وصاح: "سأعيش للأبد، دائمًا أبدًا !".

ظل هذا الهدوء الرائع معه حتى بقية المساء، وخلد للنوم لينال قسطًا من الراحة، لكنه لم يشعر بطوله، ولم يكن يدرى بإمكانية الحفاظ عليه. ففى الليلة التالية فتح الباب على مصراعيه لأفكاره الحزينة التى ما لبثت أن تدافعت بشدة ورجعت إلى عقله كالسيل. فغادر الوادى وهام فى طريقه مجددًا. ولكن كان من الغريب – كما كان يبدو له – أن تأتى عليه دقائق كانت ربما تصل إلى نصف الساعة يرتفع هذا الحمل الثقيل الأسود عن كاهله ولا يعلم لذلك سببًا وكان يدرك خلالها أنه رجل حى وليس رجلاً ميتًا. لم يكن يدرى لماذا يرجع ببطء إلى الحياة مع الحديقة.

عندما ولى الصيف بلونه الذهبى وحل محله الخريف بلونه الذهبى الفاقع، ذهب إلى بحيرة كومو(*) حيث وجد جمال حلم. قضى أيامه فى تأمل زرقة البحيرة الصافية، أو فى التجول بين الحشائش الخضراء

(*) بحيرة جميلة فى منطقة الألب شمال إيطاليا .

والنباتات الكثيفة الرقيقة التى ملأت التلال واستمر فى السير حتى أرهقه التعب واضطره للنوم. وقد عرف حينئذٍ أن نومه بدأ يتحسن ولم يعد يتخوف من الأحلام المرعبة.

قال فى نفسه: "ربما كان جسدى يقوى أكثر". كان جسده فعلاً يقوى ولكن كانت روحه أيضًا تقوى أكثر بفضل السويعات الهادئة النادرة التى تغيرت فيها أفكاره. بدأ يفكر فى ميسلثويت وعودته إلى بيته. راوحت ذهنه تساؤلات غامضة بين الحين والحين عن ابنه وسأل نفسه كيف سيشعر عندما يرجع ويقف من جديد بجانب السرير المنحوت ذى القوائم الأربع، وينظر إلى ذلك الوجه الشاحب ذى الملامح الحادة أثناء نومه، وإلى هذه الأهداب السوداء التى تحف عينيه المغلقتين والتى كانت تفزعه، وكان ينكمش منها.

وقد مشى كثيرًا فى أحد هذه الأيام البهيجة، وعندما عاد وجد القمر عاليًا مكتملاً وقد حول العالم كله إلى ظلال فضية وأرجوانية، ولم يستطع مقاومة روعة هدوء البحيرة والشاطئ والغابة فلم يدخل الفيلا التى كان يعيش فيها، بل تمشى قليلاً إلى مصطبة معروشة صغيرة على حافة البحيرة وجلس على مقعد هناك وأخذ يتنفس هذه الروائح السماوية فى تلك الليلة. وشعر بهذا السكون العجيب يتسلل إليه ويسيطر عليه تدريجيًا حتى غلبه النوم.

لم يعلم متى راح فى نومه ومتى بدأ الحلم الذى بدا واقعيًا جدًا لدرجة أنه ظن أنه كان حقيقة، بل إنه تذكر بعد ذلك كم كان يتخيل أنه كان متيقظًا واعيًا فى أثناء هذا الحلم. اعتقد أنه على حين كان جالسًا يستنشق عبير

الأزهار فى آخر الليل و يستمع لاصطدام المياه بقدميه، كان هناك صوت ينادى. كان صوتًا جميلاً، واضحًا، سعيدًا ولكنه كان بعيدًا. بدًا الصوت بعيدًا جدًا ولكنه سمعه واضحًا جدًّا كأن الذى يتكلم جالس بجانبه.

"آرتشي! آرتشي! آرتشي!"كان هذا نداء الصوت الذى ازداد جمالاً ووضوحًا وكرر: "آرتشي! آرتشي!".

ظن أنه هب واقفًا على قدميه دون فزع، كان صوتًا حقيقيًا وبدا كأنه طبيعى لا بد له أن يسمعه".ليلياس ! ليلياس !"أجاب بدوره: "ليلياس ! أين أنت؟".

"فى الحديقة"أجاب الصوت وكأنه يصدر من عود ذهبى: "فى الحديقة !".

ثم انتهى الحلم بعد ذلك، ولكنه لم يستيقظ فقد راح فى نوم عميق جميل طوال تلك الليلة الجميلة. وكان صباحًا رائعًا عندما استيقظ أخيرًا ليجد خادمًا واقفًا عنده يحدق فيه. كان خادمًا إيطاليًا وكان معتادًا مثل بقية الخدم فى الفيلا أن يتقبل مناقشة أى تصرف غريب يصدر عن سيده الأجنبى. لم يكن أحد يعرف متى سيخرج ومتى سيعود وأين سينام، وما إذا كان سيتجول فى الحديقة، أم سيرقد فى القارب فى البحيرة طوال الليل. كان الرجل يحمل طبقًا به بعض الرسائل وانتظر بهدوء حتى أخذها السيد كرافن الذى وضعها فى يده وجلس لبضعة دقائق ينظر إلى البحيرة عندما غادر الرجل. كان ما زال يغشاه سكونه الغريب وشىء آخر- أحس بخفة

وكأن الشىء الوحشى الذى حدث لم يحدث فى أثناء تفكيره– وكان شيئًا ما تغير. كان يتذكر الحلم، الحلم الحقيقى... الحلم الحقيقى.

"فى الحديقة !"قال مستغربًا من نفسه: "فى الحديقة ! ولكن الباب مغلق والمفتاح مدفون فى مكان سحيق".

عندما لمحت عيناه الخطابات بعد عدة دقائق وجد أن الخطاب الذى فوق الآخرين كان مكتوبًا بالإنجليزية وأنه مرسل من يوركشاير. كان مكتوبًا بوضوح بخط يد امرأة لم يعرفها، وعندما فتحه لم يكن ليفكر من الكاتب ولكن الكلمات الأولى لفتت انتباهه فى الحال:

"سيدى العزيز:

أنا سوزان سوربى التى جمعت شجاعتها مرة لتتحدث إليك فى السبخة عن الآنسة مارى، وسأستجمع جرأتى لأتحدث مجددًا. لو سمحت لى يا سيدى، سأعود للبيت لو كنت فى مكانك، وأعتقد أنك ستكون سعيدًا لو عدت، ولو سمحت لى يا سيدى، أعتقد أن زوجتك كانت ستطلب منك العودة لو كانت هنا.

خادمتك المطيعة:

سوزان سوربى".

قرأ السيد كرافن الخطاب مرتين قبل أن يرده إلى ظرفه، وظل يفكر فى الحلم الذى رآه.

"سوف أعود إلى ميسلثويت"، ثم قال: "سأذهب فورا".

ثم أخذ طريقه خلال الحديقة إلى الفيلا وأمر "بتشر" أن يجهز لعودته إلى إنجلترا.

عاد ليوركشاير فى بضعة أيام، ووجد نفسه خلال رحلته الطويلة بالقطارات يفكر فى ابنه أكثر من أى مرة خلال السنوات العشر المنصرمة التى تمنى أن ينساه فيها، أما الآن فقد كانت ذكريات ابنه تتدفق باضطراد إلى عقله رغم أنه لم يكن ينتوى التفكير فيه. فقد تذكر الأيام الحزينة التى كان يهذى فيها كالمجنون لأن الطفل قد بقى حيًا فى حين ماتت أمه. لقد رفض حتى أن يرى الطفل الصغير، وعندما ذهب أخيرًا ليلقى نظرة عليه كان فى قمة البؤس والضعف إلى حد أن كل من رآه كان متأكدًا أنه سيموت بعد أيام معدودات، ولكن الأيام مرت لتخيب ظن الذين كانوا يعتنون به فقد عاش الولد وتيقن الجميع أنه سيكون كائنًا مشوهًا ومعوقًا.

لم يكن يقصد أن يكون أبًا سيئًا ولكنه لم يحس بمشاعر الأبوة تجاه ذلك الطفل على الإطلاق. لقد أحضر الأطباء والمربيات والممرضات وكل وسائل الترف لابنه، ولكنه كان ينكمش من مجرد رؤيته ثم دفن نفسه فى بؤسه. فى أول مرة يعود فيها إلى ميسلثويت بعد غياب دام عام، رفع إليه ذلك الكائن الصغير البائس عينيه الرماديتين الكبيرتين فى وهن وفتور بجفنيه الأسودين، كانا يشبهان ولا يشبهان إطلاقًا فى نفس الوقت العينين السعيدتين اللتين كان يعشقهما، لم يتحمل النظر إليهما، وأشاح بوجهه بعيدًا كأنما يغشى عليه من الموت. ولم يكد يراه بعد ذلك إلا فى نومه، ولم يعرف عنه شيئًا إلا أنه بات من المؤكد أنه سيصبح معوقًا ذا مزاج نكد وهيستيرى إلى حد الجنون، ولا سبيل إلى تجنب نوبات غضبه الضارة به

هو إلا تلبية طلباته فى كل التفاصيل التى يريدها.

لم يكن تذكر كل هذا بالشىء الذى يثير الحماس، ولكن على حين كان القطار يأخذه خلال الممرات الجبلية، والسهول الذهبية بدأ الرجل "العائد للحياة" يفكر بطريقة جديدة وكان يستغرق باستمرار فى تفكير طويل وعميق.

"ربما كنت مخطئًا طوال هذه السنوات العشر"، قال لنفسه: "عشر سنوات مدة طويلة. ربما فات أوان إصلاحِ أى شىء. لقد فات الأوان بالتأكيد. ما هذا الذى كنت أفكر فيه؟!".

كان هذا بالطبع السحر الضار... أن تستهل بقولك: "فات الأوان". حتى هذه الكلمة ربما كان يمكن أن يسمعها من كولن نفسه، لكنه لم يكن يعلم شيئًا عن السحر، أسود كان أو أبيض. كان ينقصه تعلم ذلك. تساءل إن كانت سوزان سوربى قد تشجعت وكتبت إليه ليس لشىء إلا أن عاطفة الأمومة لديها جعلته تدرك سوء حالة الولد الصغير كأن يكون قد أصيب بمرض مميت مثلاً. لو لم يكن تحت تأثير سحر الهدوء الأخاذ لاستبد به البؤس والشقاء عن ذى قبل، ولكن السكون قد صاحبه نوع من الشجاعة والأمل، فبدل أن يرضخ لأسوأ الأفكار وجد نفسه يحاول التفكير فى أشياء أحسن.

قال فى نفسه متسائلاً: "هل من الممكن أن تكون قد رأت أنه بإمكانى أن أنفعه وأن أتحكم فيه؟ سأذهب لأراها فى طريقى إلى ميسلثويت".

ولكن فى أثناء عبوره السبخة أوقف العربة عند المنزل حيث تجمع سبعة أطفال أو ثمانية كانوا يلعبون فى مجموعة فحيوه بانحناءات ودودة دمثة وأخبروه أن أمهم قد ذهبت إلى جانب السبخة الآخر فى هذا الصباح الباكر لتساعد امرأة رزقت بمولود جديد. ثم تطوعوا فقالوا إن ديكون "خاصتهم" فى الضيعة حيث يعمل فى إحدى المزارع أيامًا عدة كل أسبوع.

نظر السيد كرافن إلى هذه المجموعة من الأجسام الصغيرة القوية، والوجوه المستديرة ذوات الخدود المتوردة، ولكل واحد منهم طريقته الخاصة فى الابتسام، ثم انتبه إلى أنهم مجموعة من الأطفال الأصحاء الجديرين بالحب. ثم ابتسم إعجابًا بابتساماتهم الودودة وأخذ جنيها ذهبيًا من جيبه وأعطاه لـ "ليزابيث إلين" التى كانت أكبرهم سنًا.

قال لهم: "لو قسمتم هذا على ثمانية فسيكون نصيب كل واحد منكم نصف كراون".

ثم رحل بعيدًا وسط هذا الجو من البسمات والضحكات وتبادل التحيات المهذبة وترك الأطفال خلفه فى نشوة يلكز بعضهم بعضًا بالكوع وهم يقفزون فى ابتهاج بالغ.

أعطاه السير خلال هذه السبخات الرائعة إحساسًا عظيمًا بالجمال والراحة، وأحس بدفء الرجوع إلى وطنه بعد أن فقد الأمل فى الشعور به مرة أخرى- ذلك الإحساس بجمال الأرض والسماء واللون الأرجوانى للغبار الذى يعلو من مسافة بعيدة فى الأفق؛ لماذا أحس بدفء وانشراح فى

صدره عندما اقترب أكثر من هذا البيت العظيم والعتيق الذى آوى أجداده لمدة ستمئة سنة؟ تساءل كيف غادره فى المرة الأخيرة، وقد أخذته رعشة عندما تذكر حجراته المغلقة والولد الذى كان يرقد على السرير ذى القوائم الأربعة بستائره المطرزة. أكان من الممكن أن يجده قد تحسن ولو قليلاً أو أن يتغلب على نفوره منه؟ كم كان حقيقيًا هذا الحلم وكم كان رائعًا وواضحًا ذلك الصوت الذى رد عليه قائلاً: "فى الحديقة... فى الحديقة ! ".

قال فى نفسه: "سأحاول أن أجد المفتاح، سأحاول أن أفتح الباب. لا بد أن أفعل على الرغم من أننى لا أعرف لماذا".

عندما وصل إلى الضيعة بدا للخدم الذين استقبلوه بالمراسم المعتادة أنه قد تحسن وأنه لم يذهب إلى الحجرات البعيدة التى اعتاد أن يعيش فيها حيث كان بتشر يعتنى به، بل ذهب للمكتبة وأرسل للسيدة ميدلوك، التى أتت إليه وكان يغشاها شىء من الاهتمام والفضول والارتباك.

سألها: "كيف حال سيدك كولن يا ميدلوك؟".

"بخير يا سيدي" أجابت السيدة ميدلوك: "إنه... إنه مختلف، إلى حد ما".

تساءل: "أسوأ؟".

احمر وجه السيدة ميدلوك من الارتباك،

وحاولت أن تشرح: "حسنًا سترى يا سيدى أنه لم يستطع الدكتور كرافن أو المربية ولا حتى أنا أن نخرجه من حالته تلك".

"ولِم"

"الحقيقة يا سيدى أن سيدى كولن ربما يكون بصورة أحسن ولكنه يتغير نحو الأسوأ. لا يمكن أن نفهم شهيته سيدى ولا مزاجه".

"هل أصبح غريبًا... غريب الأطوار أكثر؟" سأل سيدها وقد قطب جبينه بقلق.

"بالضبط يا سيدى، إن مزاجه يتعكر باستمرار مقارنة بما كان عليه. فقد يمكث فترة لا يأكل شيئًا على الإطلاق ثم بعد ذلك يقبل بنهم على الطعام، ثم يتوقف عن الأكل فجأة وترجع وجباته كما أحضرت له تمامًا لا يمسها. ولعل أحدًا لم يخبرك يا سيدى لأنه كان لا يدع أحدًا يخرج به خارج المنزل أبدًا، ولقد عانينا من أشياء كثيرة تقشعر لها الأبدان إذا حاولنا أخذه على كرسيه: لأنه كان يدخل نفسه فى حالة من البؤس دفعت الدكتور كرافن إلى التبرؤ من أى محاولة لإجباره على الخروج. هذا يا سيدى ودون سابق عهد، لم تمر فترة طويلة بعد واحدة من أسوأ نوبات غضبه، حتى أصر فجأة أن يخرج كل يوم بصحبة الآنسة مارى وديكون ابن سوزان سوربى الذى يستطيع دفع الكرسى. إنه مغرم بالآنسة مارى وديكون الذى أحضر حيواناته الأليفة، وصدقنى يا سيدى إنه مستعد أن يمكث خارج البيت من الصباح حتى الليل.

"كيف حاله؟" كان هذا هو السؤال التالى.

عندما يتناول طعامه بصورة طبيعية يا سيدى فإنك تظن أن وزنه يزداد، ولكننا نخشى أن يكون نوعًا من الانتفاخ ليس إلا؛ أحيانًا يضحك بشكل غريب عندما يكون منفردًا مع الآنسة مارى، مع العلم أنه لم يكن معتادًا على الضحك أبدًا. سيأتى الدكتور كرافن ليراك حالاً إذا سمحت له. إنه لم يكن مضطربًا بهذا الشكل إطلاقًا من قبل".

"أين السيد كولن الآن؟"، تساءل السيد كرافن.

"فى الحديقة سيدى. إنه دائمًا فى الحديقة، ولا يسمح لأى مخلوق بشرى أن يقترب لكيلا ينظر إليه".

لم يسمع السيد كرافن كلماتها الأخيرة تقريبًا.

تمتم: "فى الحديقة، "وبعد أن أرسل السيدة ميدلوك بعيدًا وقف وأخذ يردد: "فى الحديقة !".

كان لا بد أن يبذل مجهودًا ليرجع للمكان الذى كان يقف فيه، وعندما شعر أنه عاد للأرض مرة أخرى، استدار وخرج من الحجرة. ثم أخذ طريقه عبر الباب إلى الشجيرات وأكاليل الغار ومجارى المياه تمامًا كما فعلت مارى من قبل. كانت النافورة تلعب وكان حولها أُصص زهور الخريف البديعة. عبر المرج واتجه إلى الممشى الطويل المتاخم للجدران التى تسلق عليها اللبلاب. لم يسرع فى مشيه بل كان متئدًا وتسمرت عينه على الممشى، شعر وكان

شيئًا يشده إلى المكان الذى هجره منذ زمن بعيد ولكنه لم يعرف لماذا. تباطأت خطاه حينما اقترب منه أكثر. كان يعرف مكان الباب بالرغم من أن اللبلاب الكثيف قد غطاه، ولكن لم يعرف بالتحديد مكانه... ذلك المفتاح المدفون.

توقف ووقف مسمرًا فى مكانه، وأخذ ينظر حوله وبمجرد أن توقف بدأ يركز بأذنيه ويتساءل إن كان يمشى فى حلم.

تدلدل اللبلاب كثيفًا على الباب وكان المفتاح مدفونًا تحت الشجيرات، لم يعبر كائن بشرى هذا المدخل طوال السنوات العشر الماضية، وإن كانت هناك أصوات داخل الحديقة. كانت أصوات لأقدام تجرى وتتشاجر وتطارد بعضها هنا وهناك تحت الأشجار. كانت أصواتًا بشرية غريبة وكانت مقهورة وخفيضة، وكأنها صياح وصرخات سعادة مكبوتة. كانت فى الواقع تشبه ضحكات الأشياء الصغيرة، ضحكات الأطفال التى لا يمكن السيطرة عليها وكأنهم يجاهدون لئلا يسمعهم أحد ولكن ضحكاتهم انفجرت عالية لدقائق بعد أن استبدت بهم الإثارة والمرح. فيم كان يفكر بحق السماء؟! ماذا سمع بحق السماء؟! أكان يفقد صوابه ويظن أنه يسمع أصواتًا لا تعيها الأذن البشرية؟! هل كان هذا معنى الصوت البعيد الواضح؟.

وقد حانت اللحظة إذن... اللحظة التى نسيت فيها هذه الأصوات أن تسكت نفسها. تسارع فيها جرى الأقدام، فى اتجاه باب الحديقة. كانت هناك أنفاس سريعة وقوية لأطفال صغار ونوبة هائجة من الضحك والصياح لا يمكن احتواؤها. وانفتح الباب الذى فى الجدّار على مصراعيه، وتأرجح غطاء اللبلاب الكثيف إلى الخلف، واندفع صبى صغير خلاله بأقصى سرعة ودون أن يرى ذلك الدخيل إلى أحضانه.

كان السيد كرافن قد فتح ذراعيه فى الوقت المناسب تمامًا لينقذه من السقوط بعد ارتطامه به دون أن يراه. واندهش لذلك كثيرًا، وعندما أمسك به لينظر إليه فى استغراب، كان يحاول أن يلتقط أنفاسه.

كان صبيًّا طويلاً ووسيمًا، وكان يشع بالحياة ورسم جريه لونًا مشرقًا ونشاطاً على وجهه. دفع بشعره الكثيف إلى الوراء من على جبهته ورنا بعينيه الرماديتين العجيبتين إلى أعلى، (واندفع صبى صغير خلاله بأقصى سرعة) وقد ملئتا بضحك صبيانى وحفتا بأهداب سوداء مثل شراريب القماش. لقد كانتا العينين اللتين جعلتا السيد كرافن يلهث ليلتقط أنفاسه.

تلعثم قائلا: "من... ماذا. من!".

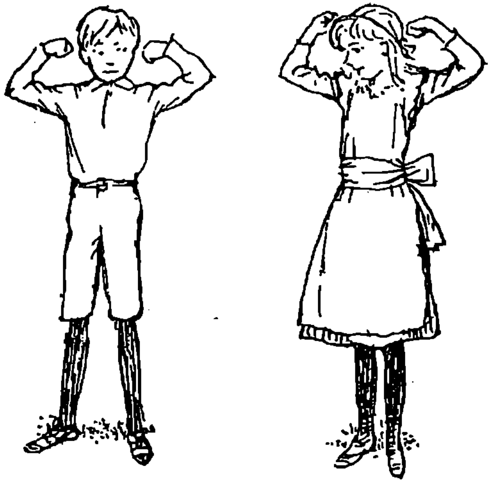

لم يكن هذا ما توقعه كولن، لم يكن هذا ما خطط له. لم يفكر أبدًا فى مثل هذا اللقاء، ولكنه كان أحسن حتى من مقدرته على الجرى بهذه السرعة التى مكنته حتى من كسب السباق. شب لأعلى ليبدو فى أطول صورة يستطيعها. أما مارى التى كانت تجرى معه والتى اندفعت خلال الباب أيضًا فكانت تعتقد أنه استطاع أن يبدو أطول من أى وقت مضى.

"أبي"صاح قائلا: "أنا كولن. أنت لا تصدق ذلك. أنا نفْسى لا أكاد أصدق ذلك. أنا كولن".

لم يفهم ما يعنى أبوه تمامًا مثل السيدة ميدلوك عندما أخذت تتمتم بسرعة: "فى الحديقة! فى الحديقة!".

"نعم". واستطرد كولن بسرعة: "إنها الحديقة التى فعلت ذلك وكذلك مارى وديكون وهذه الكائنات والسحر. لا أحد يعرف ذلك، لقد جعلنا ذلك سرًّا لنبوح به لك عندما تأتى. إننى بخير وأستطيع أن أسبق مارى وسأصبح رياضيًّا".

قال ذلك كله كصبى قوى معافى، تورد وجهه والتبست كلماته من لهفته الشديدة ورفرفت روح السيد كرافن الذى لم يصدق من كثرة الفرح.

مد كولن يده ووضعها على ذراع أبيه.

"ألستَ سعيدًا يا أبى؟"، ثم قال فى النهاية: "ألست سعيدًا؟، سوف أعيش دومًا وللأبد!".

وضع السيد كرافن يديه على كتفى الصبى وأمسك به، كان يعلم أنه لن يجرؤ على الكلام للحظات.

"خذنى إلى داخل الحديقة يا بني"، أخيرًا نطقت شفتاه: "واحكِ لى كل شىء عن ذلك".

ثم أخذوه إلى داخل الحديقة.

كان المكان غنيًّا بألوان الخريف المختلفة مثل الذهبى والأرجوانى والأزرق المائل للبنفسجى والقرمزى المتوهج، وكانت هناك أيضًا حزم من السوسن والزنابق التى تأخر إزهارها قد وقفت سويًّا؛ وكان لونها أبيض صافيًا أو أبيض مشوبًا بحمرة دكناء. تذكر جيدا متى زرعت أولهن وكان هذا الوقت من السنة تحديدًا ميعاد تفتحهن وبلوغ مجدهن. تسلقت الأزهار الحديثة وتدلدلت ثم انعقدت بعضها على بعض وزادت أشعة الشمس من اصفرار الأشجار مما أضفى شعورًا أنهم كانوا واقفين فى معبد معرش من الذهب. وقف القادم الجديد صامتًا تمامًا كما فعل الأطفال عندما حضروا هذا اللون الأشيب؛ تلفت حوله ثم قال:

"ظننت أنى سأجدها ميتة".

قال كولن: "كذلك ظنت مارى فى البداية، ولكنها رجعت للحياة من جديد".

ثم جلسوا جميعًا تحت شجرتهم باستثناء كولن الذى أراد أن يحكى القصة واقفًا.

كان أرتشيبالد كرافن يعتقد فى قرارة نفسه أن هذا أغرب شىء سمعه كما حكاها هذا الصبى بذلك الحماس الطفولى. الغموض والسحر والكائنات المفترسة، اللقاء العجيب فى منتصف الليل، حلول الربيع، والغضب الشديد من جراء الكبرياء المجروح الذى جر الراجا (الأمير) الصغير على قدميه ليتحدى بن وذرستاف فى وجهه. هذه الرفقة الغريبة، تمثيل الأدوار، والسر العظيم الذى حافظوا عليه بعناية بالغة. ضحك المستمع حتى اغرورقت عيناه بالدموع، وإن كانت الدموع أحيانًا تملأ عينيه حتى ولو لم يضحك. كان هذا الرياضى والمحاضر والمكتشف العلمى مخلوقًا بشريًا صغيرًا أتضحك له وتحبه وقد تعافى من مرضه.

"أما الآن" قال فى نهاية القصة: "فلم تعد هناك حاجة أن نكتم هذا السر أكثر من ذلك. أنا متأكد أن نوبات من الرعب ستتملكهم عندما يرونى، ولكنى لن أقعد على الكرسى مرة أخرى، سوف أرجع معك ماشيًا يا أبى... إلى البيت".

كان بن وذرستاف يباشر مهامه فى الحدائق معظم الوقت، ولكن فى هذه المناسبة تحجج بحمل بعض الخضروات إلى المطبخ، وبما أن السيدة ميدلوك قد دعته ليشرب كأسًا من الجعة فى صالة الخدم، فقد كان فى المكان الذى شهد وقوع الحدث الأكثر إثارة فى ضيعة ميسلثويت خلال الجيل الحالى، كما كان يتمنى.

كان المرج أيضًا يظهر من خلال إحدى الشرفات التى كانت تطل على الفناء، وتمنت السيدة ميدلوك التى علمت أن بِن قد أتى من الحدائق أن يكون قد رأى سيده ولقاءه ابنه السيد كولن ولو عن طريق المصادفة.

سألته: "هل رأيت أيًا منهما يا وذرستاف؟".

أزاح بِن كوب الجعة من على فمه ومسح شفتيه بظهر كفه وأجاب بخبث ظاهر: "نعم، رأيتهما".

تساءلت السيدة ميدلوك: "كلاهما؟".

"كلاهما"، أجاب بن وذرستاف واستطرد: "شكرًا جزيلاً سيدتى، أستطيع أن أحتسى كوبًا آخر منها".

ملأت السيدة ميدلوك كوبًا آخر من الجعة حتى سال وتساءلت فى لهفة : "أكانا معًا؟"،

"معًا يا سيدتي"، ثم فرغ بِن نصف كوبه الجديد فى جرعة واحدة.

"أين كان السيد كولن؟ كيف كان يبدو؟ ماذا قالا لبعضهما؟".

قال بن: "لم أسمع ذلك، فقد كنت على السلم الخشبى فقط أنظر من فوق الجدار. ولكن دعينى أقل لكِ هذا: كانت هناك أشياء تدور فى الخارج لم تعلموها أنتم يا من فى المنزل، والأشياء التى ستعرفينها، ستعرفينها قريبًا".

ولم تمضِ دقيقتان حتى بلع ما تبقى من الجعة ولوح بالكوب بكآبة تجاه الشرفة المطلة على الشجيرات والتى كشفت جزءًا من المرج.

قال: "انظرى إلى هناك لو كان لديك فضول. انظرى ما هذا القادم وسط الحشائش".

عندما نظرت السيدة ميدلوك رفعت يديها وأطلقت صرخة قصيرة جعلت كل الخدم الذين سمعوها رجالاً ونساء يهرعون إلى صالة الخدم ووقفوا يحملقون من الشرفة تكاد أعينهم أن تجحظ من رؤوسهم.

كان سيد ضيعة ميسلثويت يجتاز المرج، وكان يبدو بشكل لم يره كثير منهم من قبل. وبجانبه فتى رافع رأسه فى الهواء وقد ملئت عيناه بالضحك، كان يمشى بقوة وثبات كأى صبى فى يوركشاير– إنه السيد كولن !.

النهاية

المؤلفة فى سطور:

فرانسيس هودجسون برنت Frances Hodgson Burnett روائية ومسرحية إنجليزية، (١٨٤٩ – ١٩٢٤ م).

عرفت باهتمامها بأدب الأطفال ، ومن أعمالها :

- رواية هاورثر ١٨٧٩ م.
- رواية لوزينا ١٨٨٠ م.
- رواية الهمجى الجميل ١٨٨١ م.
- رواية فى أثناء الإدارة ١٨٨٣ م.
- رواية اللورد فونتلورى الصغير ١٨٨٦ م.

– رواية الأميرة الصغيرة ١٩٠٥ م.

– رواية الحديقة السرية ١٩١١ م.

وبالإضافة إلى ذلك كتبت مسرحية بعنوان (ازمر الادا) عام ١٨٨١م، كتبتها بمساعدة الممثل وليام هوكر جليت .

وفى عام ١٨٨٦م نشرت رواية اللورد فونتلورى الصغير، فقد بيع من الرواية فيما يتجاوز نصف المليون نسخة .

فى عام ١٩٩٨م حصلت على طلاقها من السيد برنت، وتزوجت مرة أخرى من السيد ستيفن تاونسند، وكان فى عام ١٩٠٠م زواجها الثانى من رجل أعمال لم يدم زواجهما أمدًا طويلاً، حيث دام عامين فقط وحصل طلاقهما فى عام ١٩٠٢م .

ومن أعمالها (سارة كريو) فى عام ١٨٨٨م، ثم أعادت صياغتها فى عام ١٩٠٥م، بعنوان الأميرة الصغيرة، كما لاقت مسرحيتها سيدة أرستقراطية استحسانًا وصدى كبيرًا لدى القراء آنذاك، واعتبرت من أفضل مسرح حياتها على الإطلاق، وأيضًا رواية الحديقة السرية ١٩١١م، هى الرواية التى خلت فى قلوب الأطفال ولاتزال محبوبة لدى الأطفال، وفى عام ١٩١٥م نشرت رواية الأميرة التائهة، نشرت فى كندا فى عام ١٩٢٢م رواية رئيس بيت كومب .

(عمل الماركيزة) نشرت هذه الرواية فى عام ١٩١١م وذكرته الأديبة الإنجليزية نانسى متفورد بأنه من أفضل الكتب التى قرأتها كما ذكرته فى روايتها (حب فى طقس قارص) .

فى عام ١٨٩٣م نشرت مذكرات شبابها تحت عنوان: (الأمر الذى عرفت من قبل الجميع)، ومن منتصف عام ١٨٩٠م عاشت بشكل رئيسى فى إنجلترا، ولاسيما فى قاعة مايثام العظيمة. عاشت فيها من عام ١٨٩٧ إلى ١٩٠٧م، حيث اكتشفت الحديقة السرية، بيد أنها غادرت إنجلترا إلى الولايات المتحدة بعد أن حصلت على الجنسية الأمريكية فى عام ١٩٠٥ م .

المترجم فى سطور

د . شريف الجيار

ناقد وأكاديمى مصرى من مواليد ١٩٧٠م.

أستاذ مساعد النقد والأدب المقارن – قسم اللغة العربية وآدابها– كلية الآداب – جامعة بنى سويف .

– حاصل على post doctorate فى النقد الأدبى والأدب المقارن من مركز لغات وحضارات الشرق الأدنى Department of Near Eastern Lnaguages and Civilizations – جامعة شيكاجو – الولايات المتحدة الأمريكية– (٢٠٠٩– ٢٠١٠م) .

– حاصل على فصلين دراسيين فى سياقات النقد الأدبى ونظريات السرد والثقافة ، فى فصلى الكلاسيكيات و الثقافة – بقسم الأدب المقارن وقسم اللغة الإنجليزية والأدب– جامعة شيكاجو– الولايات المتحدة الأمريكية – شتاء ٢٠١٠م.

– دكتوراه النقد والأدب المقارن – قسم اللغة العربية وأدابها – كلية الآداب – جامعة عين شمس – مارس ٢٠٠٣م ، بتقدير " مرتبة الشرف الأولى ، مع التوصية بالطبع والتبادل مع الجامعات الأخرى " ، وكان عنوان

الرسالة " روايات إحسان عبد القدوس ذات الاتجاه النفسى ، ومصادرها الأجنبية ، دراسة مقارنة فى التقنيات الفنية والتداخل الحضارى " .

- ماجستير فى الآداب (النقد الأدبى الحديث) – قسم اللغة العربية وأدابها – كلية الآداب – جامعة عين شمس– يناير١٩٩٨ م – بتقدير ممتاز – وكان عنوان الرسالة " الظواهر الأسلوبية فى شعر إبراهيم ناجى" .

- رئيس الإدارة المركزية للمشرعات الثقافية والنشر(وكيل وزارة)؛ بالهيئة المصرية العامة للكتاب.

- عضو لجنة الدراسات الأدبية واللغوية بالمجلس الأعلى للثقافة.

- عضو مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر– ورئيس لجنة الشباب .

- مشارك فى العشرات من الندوات، والعديد من المؤتمرات داخل مصر وخارجها .

- قدم محاضرات عدة عن الأدب العربى فى جامعتى : شيكاجو ، و جورج تاون؛ بالولايات المتحدة الأمريكية .

- أقام العديد من المحاضرات عن الأدب العربى، بعدة جامعات إندونيسية؛ ٢٠١٤م.

- أقام العديد من المحاضرات عن الأدب العربى؛ فى جامعات نيودلهى، وجواهر لال نهرو، والملية الإسلامية، بنيودلهى– الهند؛ فبراير ٢٠١٥م.

– أشرف وناقش العديد من الرسائل العلمية تخصص النقد والأدب المقارن.

من مؤلفاته :

– شعر إبراهيم ناجى دراسة أسلوبية بنائية – دار الثقافة المصرية ٢٠٠٤م / الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٨م .

– التداخل الثقافى فى سرسيات إحسان عبد القدوس (مدخل نقدى مقارن) – الهيئة العامة لقصور الثقافة – سلسلة كتابات نقدية – العدد ١٥٥ – ٢٠٠٥ م .

– السارد الإثنوجرافى فى أدب جمال الغيطانى الروائى : رواية شطح المدينة نموذجا .

– بلاغة السرد فى الرواية النسائية السعودية.

– بنية السرد فى رواية أيام الشتات لكمال رحيم.

– تجليات السارد فى ذاكرة الوطن الروائية (الحضور والغياب).

– رحلة الموت الفلسطينى" دراسة فى رواية رجال فى الشمس لغسان كنفانى " .

– أثر ألف ليلة وليلة فى السرد المصرى المعاصر؛ رواية ليالى ألف ليلة لنجيب محفوظ نموذجا.

– رؤية " الشرق" وترجمة أدبه في ظل ألف ليلة وليلة–هارتموت فاندرخ–ترجمة: شريف الجيار–المعهد الفيدرالى السويسرى للتكنولوجيا–جامعة شيكاجو– الولايات المتحدة الأمريكية Swiss Federal Institute of --Technology

هذا المقال نشر فى : الكتاب السنوى للأدب المقارن والعام– مجلة فصول–٢٠١٤م.

Yearbook of Comparative and General Literature, 48, 2000,Indiana University, Bloomington, Indiana.–

– الخطاب الروائى وخصوصية النوع؛ دراسة فى "رواية موال البيات والنوم" لخيرى شلبى، الملتقى الدولى السادس للرواية– المجلس الأعلى للثقافة– مصر – ٢٠١٥م.

التصحيح اللغوى : **جمال عبد الحى**

الإشراف الفنى : **حسن كامل**

إن رواية " الحديقة السرية"(1911م)؛ للروائية والمسرحية الإنجليزية " فرانسيس هودجسون برنَت"(1849-1924م)، تمثل خطابًا روائيًا كلاسيكيًا متفردًا، بواقعيتها الفنية التى تقدم تجربة سردية، مفعمة بالإنسانية، التى يتفاعل معها الصغير والكبير، ويفيد منها القارئ، فى غرس مجموعة من القيم الإنسانية والأخلاقية، فى نفوس أطفالنا؛ كالصداقة، والمودة، فضلاً عن قيم العمل والوعى الجماعى، وروح التعاون والقيم المعرفية، والبناء التربوى والتوازن النفسى، واكتشاف الهوايات والمهارات الجديدة، والتجريب والمغامرة والاكتشاف، وإتاحة الفرصة أمام الطفل فى حل مشكلاته الخاصة، وتنمية مخيلته إلى غير ذلك من القيم التى تحفظ لهذه الرواية استمرارها فى وجدان الطفل والقارئ بشكل عام.

تصميم الغلاف: نادية كشك

المركز القومى للترجمة
٤٧